رواية

مُواسير سكليار

المرأة التي كتبت التوراة

ترجمها عن الفرنسية:

أبو بكر العيّادي

راجعها عن البرتغالية:

عبد الجليل العربي

المتوسط

مكتبة

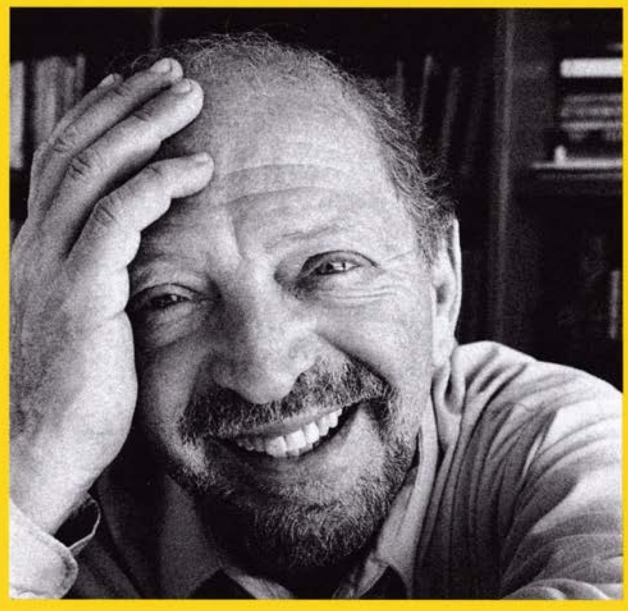

مواسير سكليار: طبيب وكاتب وصحافي برازيلي، من عائلة روسية يهودية مهاجرة. وُلد عام ١٩٣٧ في مدينة بورتو أليغري. فاز بجائزة لاس كاساس أمريكاس أكبر جائزة في أمريكا اللاتينية، وانتُخب عضوًا بالأكاديمية البرازيلية للآداب عام ٢٠٠٣، قبل أن يصبح رئيسًا لها حتّى وفاته، في المدينة نفسها عام ٢٠١١.

من أعماله الروائية التي تُرجمت إلى لغات عديدة: ولادة رفاييل منديس الغريبة، كرنفال الحيوانات، ماكس والوحوش، أذن فان غوخ.

المتوسط

المرأة التي كتبت التوراة

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/soramnqraa

حقوق النسخ والترجمة © 2019 منشورات المتوسط - إيطاليا.

12 12 2022 مكتبة
t.me/soramnqraa

A mulher que escreveu a Bíblia *by* "Moacyr Scliar"
Copyright © 1999 by The Estate of **Moacyr Scliar**.
Arabic copyright © 2019 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: مُواسير سكليار / المترجم: أبو بكر عيادي
عنوان الكتاب: المرأة التي كتبت التوراة
الطبعة الأولى: 2019.
لوحة الغلاف إشتغال على تفصيل من صورة (Hombre y Mujer) من موقع 123RF
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-32201-28-4

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/soramnqraa

مُواسير سكليار

المرأة التي كتبت التوراة

ترجمها عن الفرنسية: **أبو بكر العيّادي**

راجعها عن البرتغالية: **عبد الجليل العربي**

المتوسط

في أورشليم، قبل ما يقارب الثلاثة آلاف سنة، كتب أحدُهم نصًّا صار، منذ ذلك الوقت، يمثّل الضمير الروحي لجانب كبير من عالمنا [...].

لم يكن نَسَّاخًا محترفًا، بل هو شخص بالغ التهذيب، مثقّف وساخر، شخصية بارزة من نخبة الملك سليمان [...]؛ امرأة، كتبت لمعاصريها، بوصفها امرأة".

هارولد بلوم، كتاب الجيم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكتبة
t.me/soramnqraa

يسألني كثيرٌ من الناس لماذا أُلزِم نفسي بالعلاج عن طريق الحيوات السابقة. وإجابتي تتغيّر بحسب الظروف. عندما تتمّ محاورتي في التلفزيون أو في الإذاعة - وهو ما يحدث معي في الغالب -، أصرّح، في نوع من التّمنّع المحسوب، بأنّني انقدتُ إلى ذلك بمشيئة القَدَر. وعادةً ما يكون ردّ الفعل طيّبًا، ينعكس في علاماتِ إعجابٍ من قِبل المحاور أو الجمهور. "القدَر" كلمة يعشقها الناس. يَصِلُونها بالخارق للطبيعة، بالكواكب، وبكلّ الأشياء التي تثير الاهتمام بشكل متماثل. أغتنم تلك الرجفة، فأمعن في المزيد، بصعوبة مدروسة في البداية -وقفات تردّد، سكون ثقيل-، ثمّ بحماس مطّرد، وكأن الأهوسة انفتحت، أهوسة الانفعال أعني، فأبوح بأن مهنتي في الأصل كانت مغايرة: كنتُ مدرّس تاريخ. وهو ما يثير المفاجأة مرّة أخرى؛ فالناس، في عمومهم، يتصوّرون أني عالم نَفْس أو طبيب.

لا أحكي كيف اخترتُ التاريخ، لأن ذلك لا يهمّ الجمهور، وحتّى لو همَّه، فلن أحكيه. أبي هو الذي دفعني إليه، أبي الشيوعي العجوز أوريليو سيلفا. ما كان يكسبه كمنضّد طباعة يكاد لا يكفي قوت العائلة - امرأة وخمسة أطفال. ولكنْ، كان له إيمان راسخ

بالمستقبل، وهو يتلخّص عنده في كلمة سِحْرِيَّة: الشيوعية. لم يَرَ الناس -ولن يَروا- شخصًا له مثلُ ذلك الإيمان بمَثل أعلى. لم يكن مناضلًا فقط، بل كان متعبّدًا ورِعًا للنظرية. كان يلتهم كلّ الكُتُب التي يعيره إيّاها الرفاق. وبما أن وقته ضيّق، كان يطالع حتّى ساعةٍ متأخّرة من الليل، رغم احتجاجات أمّي. ومن الغد، كان يجد صعوبة في العمل؛ ويظلّ يترنّح من شدّة النعاس والتعب. ثمّ انتهى به الأمر إلى حادث مريع، إذْ بتَر المِقطعُ الذي كان يستعمله يدَه اليمنى. ولمّا صار معوقًا، تمّ فصله بكيفية مستعجلة. عثر له رفاق الحزب على عمل آخر - حارس في النقابة -، ولكن حياته لم تعد مُطلقًا كما كانت. صار يكتئب بسرعة، ويبكي لأدنى سبب. ولم تعد أمّي تعرف ما تصنع، وإخوتي لا صبر لهم. فصار لزامًا عليّ أنا أن أقدّم له بعض السند. كنّا نثرثر ساعات طويلة. نثرثر، كلّا، كان هو يتكلّم، وأنا أستمع له. كان يتحدّث دائمًا عن ماضيه كمناضل. "أعمال ماركس - يقول وقد بلّل الدمع عينَيْه - كانت وحيًا، بالنسبة إليّ". في الواقع، لم يقرأ سوى خلاصة لـ "رأس المال"، ولكن ذلك كافٍ: كل شيء بدا له، فجأةً، واضحًا، كان للتاريخ معنى؛ لا، بل كانت له قوانين.

هل بسبب تلك الأحاديث اخترتُ التاريخ؟ نعم، فيما أعتقد. كأني أُعوّضه عن خسارة يده، عن آلامه ... بكى من شدّة الفرح يوم نجحتُ في امتحان الدخول إلى الجامعة: "ستكون ما لم أستطع أن أكونه - قال، مثقّفًا كبيرًا، قائدَ حزب".

وكان المسكين مخطئًا. كنتُ من اليسار، ولكني لستُ مناضلًا. لم أستطع قطّ أن أُخضِع نفسي لنظام حزب. في الجامعة، كنتُ

أشارك في بعض مظاهرات الاحتجاج: أوقّع بيانات، وأوزّع مناشير. ولكنْ، عندما أنهيتُ دراستي، لم تعد السياسة ضمن اهتماماتي. كان لي دبلوم، وكان عليّ أن أكسب عيشي - كان أبي وقتها قد فارق الحياة، وباتت العناية بأمّي من مشمولاتي أنا وحدي؛ لكوني أقيم معها. كنتُ أحبّ التدريس، وهكذا وجدتُ منصب أستاذ في معهد حُرّ. كان الراتب هزيلًا، والمعهدُ فقيرًا، وبلا إمكانيات، ولكن ما كان يشغلني أكثر هو استهانة التلاميذ بالمادّة التي كنتُ أُدرّسها. "ما حاجتنا إلى معرفة المصريّيْن - كانوا يقولون - والفراعنة؟ لقد ماتوا منذ زمن بعيد!" كان أولئك التلاميذ رديئين، وكنتُ أتحرّق حنقًا، وأحلم بوضع حدٍّ لكلّ شيء. غير أني قرّرتُ أن أجرّب محاولةً أخيرة، قبل أن أترك المعهد. دبّرتُ حيلةً صغيرة، إخراجًا تمثيليًّا، يتقمّص فيه كلّ تلميذٍ شخصيّةً تاريخية، وما راعني إلا أن المسألة استهوت الأطفال. وغدت حدَثًا في المعهد. ملوك، كونْتات، جنرالات، لم يعد التلاميذ يتحدّثون سوى عن ذلك. هنّأني الأساتذة الآخرون بإعجاب عن هذه الفكرة. عندئذ حدث ما لم أكن أتوقّعه.

لقد اختار أحدُ التلاميذ، وهو ولد هادئُ الطبع، وحَيِيٌّ، أن يمثّل دور أمير عاديّ، ما عدتُ أدري مَنْ يكون. وأقبل على المهمّة بكل هِمّة. كان يقضي ساعات في المكتبة لدراسة حياة تلك الشخصية - حتّى إن الموظّفة اضطرّت إلى طرده. بدأ سلوكه يتغيّر. صار يعامل رفاقه بكيفية غريبة، عدوانية. اشتكى من ذلك كثيرٌ منهم دون أن أُرْعيهم سمعي بشكل خاصّ. فهو مراهق على أيّ حال، والمراهقون لهم أحيانًا تصرّفات عجيبة ...

ذات يوم، جاءتني سكرتيرة المدرسة إلى قاعة الدرس، وسحبتْني إلى الرواق: هناك امرأة في ردهة الدخول، تريد أن تتحدّث إليكَ. "إنها ثائرة، أضافت محذّرة. يستحسن أن تذهب إليها". فذهبتُ.

كانت أمَّ الولد. "ماذا فعلتَ بولدي؟" صرختْ ما إن رأتْني. حاولتُ تهدئتها، ورجوتُها أن تحدّثني بما جرى. قالت دون أن يغادرها الاضطراب إنّ ابنها لم يَعد يطيعها، وإنه صار متكبّرًا، متعجرفًا. لم يعد يرتّب فراشه، صار يترك ثيابه مبعثرة في فوضى حتّى يجيء مَنْ يلتقطها.

"كل هذا بسببكَ! قالت متذمّرة. بسبب هذا "العمل" الشائع الذي ابتدعتَهُ".

كانت تريد أن تشكو أمرها للإدارة، ولكني أقنعتُها بالعدول عن الشكوى: "أؤكّد لكِ أني سأحلّ المشكلة"، قلتُ لها في وثوق.

دعوتُ الولد على انفراد. في الواقع، لم يعد لوزينيو ذلك الولد الذي كان يكلّمني باحتشام، وهو يغضي بصره. مَنْ يقف الآن أمامي يتبدّى في هيئة أمير. سألتُه في حذر هل يعي التّغيّر؟ وإلى أي شيء يعزوه؟ أجابني في البداية باستعلاء - ليس مُطالَبًا بإجابتي، ومَنْ أكون؟! مُجرّد مدرّس بسيط -، ولكنه كشف عن أوراقه فجأةً. أجل، شيء مّا حدث، شيء خارق للعادة. لم يعد فقط يمثّل دورًا؛ صار يعيش حياة مختلفة. كان قد عاد إلى الماضي، واكتشف أنه في الواقع لم يكن أميرًا، كما ظنّ بتواضع، بل ملك. ملك ذو نفوذ وقسوة، واحد من أولئك الملوك الذين

لا يتردّدون عن سفك دماء أعدائهم. " قتلتُ منهم حتّى الآن أكثر من ثلاثة آلاف" ، أكّد في كِبْر. روى لي بالتفصيل إحدى عمليات الإعدام، وقد وقعت في الفناء الكبير للقصر الملكي أمام حشود ضخمة. وصف لي كيف وضع الجلّاد عنق المحكوم عليه على النطع، وكيف فصل رأسه بضربة فأس - وشخب الدم يرشّ الناس من حوله. أُقرّ بأني تأثّرتُ. كان الولد كمَنْ يعيش الحادثة بالفعل. عندما أتمّ حكايته، شكرني بشهامة؛ لكوني مهّدتُ له عودةً في الزمن، سمحت له باكتشاف حقيقة شخصيّته.

"سوف تُجازى" ، وعَد وهو ينصرف.

كنتُ مذهولًا ، لم أدرِ ما أفكّر. ثمّ سرعان ما أدركتُ الإمكانات العجيبة التي يقدّمها لي هذا الولد. سبيل أخرى تنفتح أمامي: اكتشفتُ أني معالج بالحيوات السابقة.

تلك هي الحكاية التي أرويها خلال لقاءاتي. وقد رويتُها مرارًا وتكرارًا حتّى باتت حقيقيّةً في نظري. وسواء أكانت حقيقةً أم خيالًا ، فالثابت أنها تعجب الناس كثيرًا، وذلك هو الأهمّ. بعدها، تابعتُ طبعًا درسًا في العلاج بالحيوات السابقة، ولكني أستعمل طريقتي، المَبنية على معارف، تعلّمتُها حين كنتُ أستاذ تاريخ. المرضى يعودون إلى الماضي. وفي أثناء رؤاهم، أقدّم شروحًا: "هذا المكان الذي توجد فيه الآن، هو القصر الملكي؛ الرجل ذو الدروع قبالتكَ هو فريديرك الثاني الأكبر، والآخرون هم حاشيته .." .. أقول برحابة صدر إني أقوم بدورِ دليلٍ، يقود الناس في متاهات الزمن.

كان النجاح فوريًّا. بدأتُ أستقبل المرضى في قاعة صغيرة، بمبنى قديم في وسط المدينة. ونِلْتُ الشهرة في وقت قصير. وازداد الطلب بشكل مذهل، والمداخيل أيضًا. فبحثتُ عن مكان أوسع، وأكثر رفاهية، مكانٍ أنسب لنوعية الزبائن المنتقاة التي صارت لديّ. دلّنا أمين عقارات على مسكن قديم، بشارع هادئ في الجوار. قصدتُه، وما إن دخلتُه حتّى أدركتُ أنه المكان المثالي. كانت السلالم محفوفة بالأسود، والغرف فسيحة، والجدران من الخشب الصلد. البلاط البرتغالي في الممرّات، الثّريّات العتيقة، كل ذلك يُذكّر بالماضي. كان ذلك، إذنْ، الديكور الأمثل لأناس، يرغبون في الارتداد عبر الزمن. أكّد الانتقال سطوع نجاحي الذي صار أمرًا مَقضيًّا. وأصبحتُ مطلوبًا من متعهّدي الحفلات، والفنّانين، وممثّلي التلفزيون. غيّرتُ شقّتي، واشتريتُ سيّارة أجنبية. أصبحت وسائل الإعلام تجري خلفي. ناشرو كتيّبات التنمية الذاتية يطلبون منّي بإلحاح أن أضع كتابًا.

في هذه الأثناء ظهرتْ.

ذاتَ أصيل، أعلمتْني السكرتيرة أنّ هناك مَنْ يريد مقابلتي، فتاة كانت قد رأتْني في التلفزيون، واستخلصتُ أن العلاج بالحيوات السابقة هو بالضبط ما يناسبها.

"هي ابنة صاحب ضيعة"، أضافت السكرتيرة وهي تغمز بطرف عينها. يعني أن البنت لها أموال، وهو ليس أمرًا حاسمًا، ولكنّ له ثقله في الميزان. استقبلتُها، وقبلتُ علاجها.

خلال الحصّة الأولى، بكت كثيرًا. قالت إنّ علاقتها بأبيها

ليست على ما يرام: "هو لا يفهمني، لم يفهمني قطّ، لم يستطع قطّ أن يكون قريبًا منّي" -النغمة المعتادة. باستثناء أخت لها كانت مأمن أسرارها، عاشت بمفردها، في عالمها - والعبارة لها - أشياء كثيرة خالية. كانت تُسلّي نفسها بالمطالعة والدراسة، وكانت تُعَدُّ من أحسن الطالبات في معهد الراهبات الذي تردّدتْ عليه، ونالت جوائز عديدة عن معرفتها بالتوراة. فهي تحفظ مثلًا نشيد الأنشاد(*) عن ظهر قلب.

منذ حوالي سنة تقريبًا، عاشت حدثًا مؤلِمًا، شيئًا بَلبلَ حياتها. وقعَتْ في غرامِ عاملٍ بالضيعة، شابٍّ وسيم، ولكنه غريب وبعيد. كان الأمر مباغتًا. كانا متجاورَيْن منذ أيّام الطفولة، ولكنّهما ظَلاّ دائمًا متباعدَيْن، إلى أن طرأ هذا الأمر، هذا الانبهار غير المتوقّع، ولا تفسير له؛ لم تعد تفكّر إلا في هذا، أن تراه، أن تكون قريبة منه. ثمّ الشّكّ: هل ينبغي أن تحدّثه عن مشاعرها؟ كان الشّابّ مختلفًا عن الآخرين، ويبدو أنه ينظر إليها بمودّة، وحتّى بعطف. استجمعت شجاعتها، وقرّ منها العزم. سوف تفتح قلبها، وتبوح له بكل شيء. ولكنْ، في اليوم الذي كانت تتهيّأ فيه لذلك، تفجّرت الفضيحة داخل العائلة. كان للولد علاقة بأختها، وافتضّ بكارتها. هاج صاحب الضيعة، وأرسل مَنْ يعنّفه، ثمّ طرَده.

كان ألم الفتاة من الشّدّة - وهو ألم، لم تكن تستطيع أن تشاركَ فيه غيرها - ما جعلها تقرّر هجر البلدة الداخلية التي كانت

---

*) أحد أسفار العهد القديم، ويُعرف أيضًا بنشيد أنشاد سليمان.

تعيش فيها، والتّوجّه إلى العاصمة. وجدتْ عملًا في مؤسّسة كبرى. كان العمل مَرْضِيًا، والزملاء طيّبين معها، ولكنها لم تستطع نسيان ما حدث. كان ألمها يزداد كل يوم. وساءت حالها، فلم تعد تنام.

أحد الحوارات التي أجراها معي التلفزيون كان -حسب تعبيرها- تجلّيًا حقيقيًّا. قد تجد حلًّا لمشكلتها، بفضل العلاج بالحيوات السابقة. هي متأكّدة، حسب قولها، أنني أستطيع أن أساعدها، وأن أكون دليلها عبر متاهات الماضي؛ حيث يتخفّى جلُّ عذاباتها. كان استعدادُها كبيرًا، ولكني تلكّأتُ. شيء ما كان يقول لي إنّ هذا العلاج لن يكون عاديًّا، وإني سوف أغامر بنفسي في حقل ملغوم. ورغم ذلك بدأنا، وتراجعَتْ سريعًا في الزمن، حتّى بلغَتْ، في رؤاها، القصر الذي رأتْه في المنام، وكان للملك سليمان (وهو ما مثّل مشكلة بالنسبة إليّ - لأني لم أكن مُلمًّا كثيرًا بالتوراة، واضطررتُ إلى دراستها في الحال). كانت موجودة فيه صحبة عدّة زوجات للعاهل الذي وصفتْه بكونه رجلًا وسيمًا ولطيفًا. وكانت تعشقه بعمق. صحيح أن ذلك العشق لم يكن متبادَلًا، غير أن ذلك لم يمنعها من تخيّل مشاهد حامية على فراش سليمان - مشاهد كانت تصفها بتفاصيل شهيّة.

وسرعان ما اكتشفتُ نيّةً مبيّتة خلف كل ذلك. كانت تعشقني، وذلك الوصف الدقيق إنّما كان موجّهًا إليّ. بل إنها حاولت ذات مرّة عناقي. دفعتُها في لطف، وفي حزم أيضًا، وشرحتُ لها أن ذلك خطأ حقيقيّ، وأنها بصدد الخلط بين

الحاضر والماضي. أن تكون لي مغامرة مع إحدى مريضاتي، ففي ذلك مجازفة بالنسبة إليّ، وهو آخر ما يمكن أن أتمنّاه.

ولكن المشكل لم يكن هناك. المشكل أن حكاياتها كانت تُربكني. فاجأتُ نفسي أكثر من مرّة بصدد استراق النظر إلى صدرها عبر قميصها الموارب. نهدان صغيران جميلان، نتوءان متناسقان. كنتُ أحبّ السير في وادي عنقها. أود تسلّق نهدَيْها، ولحس تينك الحلمَتَيْن ... وهو ما يُغرقني في ارتباك تامّ. أمّا هي، وهو أمر محيّر أكثر ممّا يبدو، فلم تكن تلاحظ شيئًا. وكأنّها تكتفي برفضي، مركّزةً طاقتها على صيدها المحموم لسليمانها المحبوب. لم أكن أملك الجرأة لأقول لها: "حسبُنا هذا الاستمناء، أنا هنا وأنت أيضًا، إن شئتِ أن نمارس الجنس، فهيّا بنا". بعد كل حصّة، كانت تستأذن في الانصراف بمودّة وتمضي، دون أن يقع أيّ شيء. وأنا؟ كنتُ أنغلق في بيت الراحة، وأمارس العادة السّرّيّة. مثل مراهق بَثير.

ازداد قلقي حينما أعلمتْني السكرتيرة أنّ رجلًا جاء يطلبها في المصحّة، بعد أن مرّ بالمكتب. وحسب أوصافها، لم يعد ثمّة مجال للشّكّ. إنه العامل السابق في ضيعة أبيها، لعلّه صار مستعدًّا للتكفير عن ذنبه، والقيام بالاختيار المناسب. وهذا أبعد ما يكون عن الخبر السّارّ. بين الملك سليمان والعامل الذي تحوّل إلى غازٍ، تضاءلت حظوظي. كان لا بدّ أن أعجّل. لم أكن أصارع فقط من أجل العودة إلى الزمن، وإنما أيضًا ضدّ الزمن نفسه. بدا قلقي في أحلامي. كنتُ سليمان، ولكنْ، لم

تكن مريضتي هي التي في فراشي، بل ملكة سبأ، وقد جاءت من مكان بعيد، تزورني؛ لأقدّم لها نصائح سياسية وجنسية؛ أي أنني كنتُ أمارس الجنس مع امرأة، وأفكّر في أخرى.

كنتُ أفيق من تلك الأحلام، وأنا أتصبّب عَرَقًا. عندئذ، قرّ منّي العزم على البوح لها بحبّي. فورًا. لم أعد أطيق حكاية الحيوات السابقة تلك. ولكنْ، ما العمل؟ كيف السبيل للعودة إلى الوراء، بعد أن صددْتُها؟

ذات صباح، هاتفتْ؛ لتُعلِم السكرتيرة بأنها لن تأتي إلى العيادة. ولكنها تركت رسالة: لا بدّ أن أذهب إلى شقّتها بعد الظهر. ففي انتظاري مفاجأة هناك.

مفاجأة. إلهي، أيّ مفاجأة قد تكون؟ ماذا سأجد إذا الباب -باب القَدَر- انفتح؟ هل ستكون هناك في رداء أسود(*)، وثدياها الرائعان يخفقان من أجلي؟ هل حانت اللحظة الحاسمة؟

لم تكن ساعات الأصيل تمرّ. كان المرضى يتكلّمون، يتكلّمون، امرأة قُطع عنقها خلال الثورة الفرنسية، رجل كان يجوب البحار على متن كارافيل(**)، امرأة ناضجة تقاتل إبّان حرب الانفصال(***)، ولم أكن أصغِي إلى أيّ شيء. كنتُ أتطلّع إلى بندول الساعة. في الرابعة، نفد صبري. أعلمتُ السكرتيرة

---

*) Négligé (بالفرنسية في الأصل): مبذل، ثوب البيت.

**) سفينة شراعية صغيرة ذات أشرعة مثلّثة، طوّرها البرتغاليون في القرن الخامس عشر.

***) الحرب الأهلية الأمريكية (1861-1865) بين ولايات الشمال وولايات الجنوب.

بتعليق العيادات، وجريتُ إلى شقّتها، على مسافة بضعة بيوت من هنا. عندما انعطفتُ مع الشارع، كاد قلبي يتوقّف.

كانت خارجة من العمارة في ذراع رجل، وكلاهما يضحكان، سعيدان. لم أكن أعرف ذلك الشخص، ولكني لم أشكّ لحظة: إنه عامل أبيها الأسبق. كان يحمل حقيبة، لعلّها حقيبتها. انحشرا في تاكسي، وذهبا.

دلفتُ إلى العمارة، استعملتُ المصعد، دخلتُ الشّقّة التي كانت تشارك فيها زميلة لها في الشغل. هي التي فتحتْ لي. سألتْني إن كنتُ المعالج، ولمّا رددتُ بالإيجاب، قالت إن لديها حاجة لي. "من قبل مريضتكَ، قالت. لقد ذهبتْ، ولن تعودَ، ولكنها تركت هذه".

وناولتْني رسالة وحافظة وثائق. كانت الرسالة، المكتوبة على عجل، رسالة وداع-وشكر. العون الثمين الذي قدّمتُه لها قادها إلى نتيجة مذهلة. الحنق الذي كانت تكنّه للشّابّ الذي خيّر عليها أختها اختفى تمامًا، والحُبّ القديم عاد. كان مَلِكَها، العاهل الذي طالما حلمت به.

أمّا جلادة الورق المقوّى؛ فكانت تحوي الحكاية التي دوّنتْها بعد ارتحالها إلى الماضي. وهي تضعها على ذمّتي، وتبيح لي أن أفعل بها ما أريد. يمكنني أن أشيع الحكاية بين الناس بشرط ألاّ أفضح اسمها هي.

هذه هي الحكاية التي أقرؤها ليلَ نهار، منذ رحيلها. أبحث

عن نفسي فيها، أبحث عن نفسي في السطور، وما بينها، أبحث عن نفسي في أسماء العَلَم والأسماء المجرّدة، أبحث عن نفسي في الأفعال والظروف، في النقاط، في الفواصل، وفي نقاط التتابع ... ولا أجد نفسي فيها. مثلما لا أجد نفسي في أيّ مكان. تهتُ.

أواصل الكشف في مصحّتي، غير أني أفكّر جدِّيًّا في تغيير وجهتي، والعودة إلى تدريس التاريخ. سوف أكسب أقلّ، وأتعب أكثر، ولكنْ، آمل ألا تصادفني خيبات أخرى. أريد أن أنساها.

ماذا أيضًا؟ آه، تذكّرتُ، كانت دميمة.

الدمامة أساس، على الأقلّ لفَهْم هذه الحكاية. فهذه المرأة التي تحدّثكم كانت دميمة، دميمة جدًّا، دميمة مقبولة أو دميمة مهتاجة، دميمة خجلة أو دميمة راضية، دميمة متواضعة أو دميمة متكبّرة، دميمة كئيبة أو دميمة مرحة، دميمة مستاءة أو دميمة مطمئنّة. ولكنّها دميمة، دميمة على الدّوام.

كنتُ أشكّ منذ ولادتي في أنّي دميمة، فبنات القرية الصغيرات، وهنّ جميلات عمومًا، كنّ يتمنّعنَ عن اللعب معي. عندما أظهر، يلذنَ بالفرار وهنّ يتضاحكنَ خفية. والحال أني لم أكن مشوّهة، ولا بلهاء؛ فلماذا يهربنَ؟ كان ثمّة شيء يَريْنه فيّ، ولا يرغبنَ في الحديث عنه. هكذا، وإن بدا أمرًا لا يُصدَّق، لم أكتشف مقدار دمامتي إلا في سنّ الثامنة عشرة. ومن سخرية الأقدار أن أختي الصغرى هي التي ساهمت في ذلك، أختي الودود، أمينة أسراري التي كنتُ ألوذ بها كلّما عَنَّ لي أمر أرويه.

ذات مساء، دخلتُ غرفتها بوجودها. كانت بصدد تقويم جمالها أمام مرآة.

لم أكن أعلم أنّ لأختي مرآة. لا أحد يعلم. بل لا أحد يعلم أن في بيتنا

مرآة. كانت المرآة شيئًا نادرًا، لا يحوزها غير النبلاء والمالكين الأثرياء، ولم يكن ذلك شأن أبي. ومع أنه كان كبير القرية، لم يكن يملك غير قطيع عنز، غير ذي بال. والحقّ أن شعبنا، حتّى مرحلة جدّي، كان من الناجعة. نجوب البيداء بحثًا عن مراع للعنز، ونعيش في الخيام. كانت تلك حالنا دائمًا، وكانت كل الدلائل تشير إلى استمرار الحال على الدّوام. غير أن أبي قرّر أنّ على القبيلة أن تستقرّ. كان حلمه أن نشكّل نواة مدينة، مدينة تتّسع بسرعة، إلى أن تصبح مدينة كبيرة، وربّما عاصمة إمبراطورية. كان رجلاً طموحًا، رغم قلّة ذكائه، وعنيدًا، لا يحتمل أن يُعارَض. إذا سأله أحدهم عن المدينة التي ينوي إنشاءها، أو عن الإمبراطورية، يكتفي بالرّد في جفاء:

"سترى".

ولا يضيف إلى ذلك كلمة.

وما دام المستقبل الذي تنبّأ به أبونا لم يأتِ بعد، فقد كنّا نواصل السَّكَن في بيت صغير متواضع. كلّ ما يمكن أن يوحي بالترف محظور. لذلك، حتّى وإن أمكن لنا شراء مرآة، فلن نفعل. "هي من أدوات الشياطين"، كان يقول، خلف كل مرآة يتخفّى الشّرّ المتأهّب لاستغلال الإعجاب بالذات؛ كي يستدرج الناس إلى الخطيئة. "ليس لأنه هو نفسه مثال للأخلاق الحميدة، إذ كان زيرَ نساء، لا يكّف ولا يعفّ، من أولئك الذين لا يرعون حرمة الجار". أضف إلى ذلك أن له أنشطة مشبوهة، فبعض قطيعه كان - وهذا من باب تلطيف الكلام - من مصدر مريب. ولا شيء من ذلك كان يمنعه من تنصيب نفسه حاميًا للأخلاق. كان يفرض على القبيلة، وعلى عائلته بشكل خاصّ، سلوكًا، لا تشوبه شائبة.

فهو لا يتسامح مُطلَقًا مع أدنى مظهر من مظاهر الإعجاب بالذات، إذا صدر عن بناته.

وأختي عصت هذا التعليم بامتلاكها (بطريقةٍ من الطُّرُق، لم أعرف ذلك إلا فيما بعد) مرآة صغيرة مستديرة، وها هي تتملّى وجهها فيها. كانت منتشية، عن جدارة، إذ كانت جميلة فعلاً، لها من الجمال قدر ما لي من الدمامة. عينان واسعتان، أنف قصير دقيق، فم مرسوم بعناية ... جميلة، ولكنْ، قليلة الحيطة. نسيت إغلاق الباب. وبذلك أمكن لي أن أفاجئها في غمرة الانتهاك.

انتفضتْ؛ إذ رأتني، وحاولتْ إخفاء المرآة. تعلّقتُ بها، ومسكتُها. "أعطيني إيّاها! صحتُ فيها مهتاجة. أنا أيضًا أريد أن أرى نفسي!" أدركتْ في الحال الخطر الذي يهدّدني، وحاولتْ منعي: "لا تفعلي هذا، هذه المرآة ملعونة، لقد جعلتْني دميمة، ولسوف تجعلكِ كذلك أنتِ أيضًا! أبونا مُحقّ في منع آلة الشيطان هذه! لا تنظري إلى وجهكِ، أرجوكِ، لا تنظري، فهذا خيلاء، أمر مكروه! أنا أذنبتُ، فلا تُذنبي أنتِ أيضًا!".

لم تُجدِ صيحاتها ويأسها نفعًا. كنتُ أدرك في قرارة نفسي أنها تريد حمايتي من شيء، ما زلتُ أجهله: الاكتشاف الكاسح لدمامتي، وقد كان ينتابني منها في تلك الفترة شكّ طفيف. ولكنْ، بعد أن رأيتُ المرآة، لم يعد هناك في الأرض ما يحملني على التراجع. كانت إغراءً لا يُقاوَم. أن تبتلعني تلك الهوّة، لا أهمّيّة له عندي. سوف أُلقي فيها بنفسي عن طيب خاطر، بحثًا عن الحقيقة. لعلّي كنتُ أمنّي النفس في قرارتي بمعجزة سِحْرِيَّة، بالنسبة إليّ طبعًا، لا إلى الآخرين. فربّما تكشف لي المرآة عن وجهٍ جميلٍ جمالًا يثير الدهشة، وفي الأقلّ مقبولٍ. لعلّها

سِحْرِيَّة، هذه المرآة، مرآة قادرة على أن تكون في انسجام مع رغائب الشِخص الدفينة، تعمل بفعل طاقة، لا يلبث حارسها المؤتمن عليها أن يُعيد تنسيق ملامح الوجه، وتجميله مثل حكاية الضفدع الذي يتحوّل إلى أمير. ما كنتُ أفكّر فيه، وأتوق إليه في تلك اللحظة، ما عدتُ أذكره. أعرف فقط أني كنتُ أريد تلك المرآة، وكنتُ على استعدادٍ للقيام بأيّ شيء، من أجل الاستيلاء عليها.

حاولتْ أختي الفرار، وقد تملّكها الذعر، فهجمتُ عليها، وأوقعتُها أرضًا. تصارعنا قليلاً. لم تكن خصمًا نديدًا لي. ما كنتُ أملكه من دمامة، كنتُ أملك مثله من قوّة ... غلبتُها، وانتزعتُ المرآة من يَدَيْها، وفي لمح البصر، صارت لي.

ليست من أفضل المرايا. مجرّد أسطوانة من البرونز المصقول، من النوع الرديء. ولكنها تقوم بما ينبغي أن تقوم به المرايا، لحسن حظّ مَنْ يتطلّعون إليها أو لسوء طالعهم: أي تُظهِر وجهًا. وجهي.

لم أصدِّق عينَيّ. إلهي، هذه أنا؟

لم يكن في ذلك المحيّا أيّ تناظر، حتّى التناظر المخيف لفكّيْ نمر. بحثتُ عبثًا عن أدنى تناسق. لا أطمع في تناسق الأجسام الكروية الأمثل، تكفيني لمسة واحدة، ولكني لم أعثر على أيّ منها، لأنّ في وجهي نزاعًا، الفم متداخل مع الأنف، والأذنان غير منسجمَتَيْن فيما بينهما، والعينان اللتان كان يمكن أن تُنقذا كل شيء، فيهما حَوَل. واحدة تحدّق في المرآة في أسى، فيما الثانية تائهة، تركّز في يأس في اللانهائي، ربّما كي تتجنّب الصورة القاسية. جزئية أخرى (وهل ينبغي التفصيل حقًّا؟ نعم، ينبغي

المضيّ إلى التفاصيل، ينبغي النزول إلى قيعان بئر الكآبة): بقع. منثورة على كامل الوجه - لم أعُدَّها، ولكنْ، أظنّ أن دستَتَيْن تقديرٌ معتدل -، بقع. بقع. عبثية بقع. تضخّم بقع. بتنوّعها، كان يمكن أن تشكّل موضوع دراسة لرسالة في الأمراض الجلدية. كانت من شتّى الأحجام ومختلف الألوان. إحداها كانت تزعجني بصفة خاصّة، فهي منتفخة، حتّى لتكاد تكون جسمًا، لا عنق له، إذ تتأرجح في الفراغ بمفردها. ولو هبّت ريح قوية، والرياح القوية في مناطقنا لم تكن نادرة، فسوف تقتلعها، وتحملها بعيدًا. إن وقعت على الحجر ماتت، وإن وقعت في الصحراء ماتت، وإن وقعت في فوهة بركان ماتت، وإن ماتت، فسوف أكون سعيدة ... وإن وقعت في أرض خصبة ... إن وقعت في أرض خصبة، فسوف تنبت، والربّ وحده أعلم أيّ نبتة سوف تُولَد، وأي شجرة غريبة ذات فروع صلبة ومعوجّة ... وإن أطلقنا على هذا النوع، ولو على سبيل التخمين، اسم "شجرة الدميمة"، فلن أتذمّر. وأقصى ما يمكن أن أفعله هو أن أحاول قطعها في سكون الليل.

باختصار، هذا ما رأيت: أ) لا تناسق فظيع؛ ب) نقص في الانسجام؛ ج) حَوَل (ولو أنه معتدل)؛ د) شطط في البقع. ينبغي القول إن المجموع مؤطّر (مؤطّر! حلوة مؤطّر هذه! مؤطّر على غرار عمل فنّي جميل مؤطّر! مؤطّر!) بشَعْر جافّ كابٍ، قادر على إذلال أيّ حلّاق.

ما كانت المرآة تبديه يكاد يشبه مشهدًا غريبًا، معذّبًا، تبدو فيه الحوادث (حادث، عبارة مناسبة جدًّا) الجغرافية في ذروة التنافر. كارثة حلّت بوجهي، جائحة سبقت من قديم ولادتي دون ريب. فما ألمحه كان دمامة عتيقة، دمامة سلفيّة، دمامة ثبّتتْها الأعوام والألفيات، ربّما.

كانت أختي تبكي في صمت، ووجهها مَخفيّ بين يَدَيْها. لم ينتبني أي ألم لرؤيتها كذلك. بالعكس، ما كنتُ أحسّ به هو الحنق -حنق عظيم مهتاج- تجاهها هي، أختي، وتجاه والديّ. لماذا لم يخبروني من قبل بأني دميمة ؟ لماذا خدعوني؟

كان الإشفاقُ الإجابةَ الأكثر بَدَهيّة. حاولوا تجنيبي الحقيقة المؤلمة بتواطؤ متكلّف. طوال سنوات، كانوا شخصيّات كوميديا أُخرجت بعناية لجمهور محدود: أنا. "آه، ها هي ذي، سوف نتظاهر بأننا لا نلاحظ شيئًا في وجهها، كما لو كانت طبيعية، وحتّى جميلة إلى حدّ ما - لن نبدي انبهارنا بجمالها؛ لأن ذلك لا يستقيم، فالصّدقة الضخمة تثير شكوك القدّيس، ولكنْ، إذا تصرّفنا بصورة طبيعية، فلن تلحظ شيئًا". ولمّا كنتُ المتفرّجة الوحيدة، فقد انخدعت بسهولة. والحقّ أن تمثيلهم -أُقرّ بذلك- كان رائعًا. لا أحد يتحدّث عن ملامحي. لا أحد يمكن أن يقول مثلاً: "أنتِ جميلة"، ولكنْ، لا أحد أيضًا يمكن أن يقول: "أنتِ فظيعة". كانوا يلزمون الصمت أو يلوذون بالمديح المنحرف: "كم أنتِ جميلة في هذا الزّيّ!" فالتأكيد "أنتِ جميلة" كان دائمًا مشفوعًا بفضلة تكميلية، تفيد النسبيّ ("في هذا الزّيّ") تلطّف الكذبة، وتجعلها مقبولة في عيون يَهْوَه(*) مع المحافظة على الإيهام بالورع.

كان يمكن أن ألمس الخدعة، لو انتبهتُ قليلاً. ولكن؛ هل كنتُ أريد ذلك؟ ألم أشارك فيها، وغالطتُ نفسي؛ لكي لا أثبّط المجموعة العائلية من جهة، ولا أكتشف الحقيقة الرهيبة من جهة ثانية؟

(* Yahvé: يَهْوَه أو يَهْوي، إله اليهود.

لم يعد لهذا الشّكّ معنى، ولهذه الخدعة مكان. في مواجهة الواقع، لم يعد ثمّة مجال للهروب منه. آه لو كان بإمكاني العودة إلى الوراء! لماذا نظرتُ إلى وجهي في المرآة، تساءلتُ وأنا ألطم صدري في حنق هائج، لماذا خضعتُ لهذا الفضول اللعين، لهذا الغرور التافه؟ لماذا لم ينتزع يَهْوَه من يَدَيّ هذا الكاشف، هذا الشيء المنحوس؟ هه، يَهْوَه؟ لماذا لم تتّخذ بعض إجراء ربّاني، أنتَ العليم بكل شيء، القادر على كل شيء؟ كان يمكن أن تحيل تلك المرآة إلى تراب، بإرادتكَ وحدها. لماذا لم تفعل؟ ألا تكون غير موجود، يا صديقي؟ هه؟ ألا تكون غير تجريدٍ، ومجرّد خداعٍ بصري انفعالي؟

لا جدوى من الصراخ والتّظلّم. قُضي الأمر. رأيتُني في المرآة، ولن أستطيع نسيان ما اكتشفتُ فيها. ولكني كنتُ بحاجة إلى عزاء، وفي الأقلّ إلى تفسير. كان لا بدّ أن أعرف السبب الذي جعل هذا النصيب من الدمامة ينتهي إليّ. الطبيعة لا يمكن أن تكون تصرّفتْ في صنع وجهي كيفما اتّفق. لا ريب أن ذلك جواب عن خطيئة، عن جريمة. ولكنْ، أيّ خطيئة، وأيّ جريمة ارتكبتُ؟ عدتُ إلى طفولتي بحثًا عن جواب. صحيح أني كنتُ شرّيرة، ولكنْ، ليس بالقدر الذي يفوق معدّل الأطفال. كنتُ أضرب أخواتي، ولكنْ، من حين إلى آخر فقط، بل بكيفية معتدلة نسبيًّا. كان عدواني ينتهي ببعض خدوش وكدمات، ولا يؤول إلى التواء مفاصل مثلًا، أو إلى كسور بدرجة أقلّ. كلّا، لا شيء في سيرتي السابقة يمكن أن يفسّر الصورة التي رأيتُها، وباتت لا تفارقني الآن. عن أخطائي الماضية، كنتُ أستحقّ نصف دستة من الثآليل على أقصى تقدير، وبأقلّ حجم. أو حَوَلًا خفيفًا. أو أذنَيْن أكبر حجمًا بقليل. وليس أكثر. كلّ ما تبقّى ناجم عن سبب آخر، سبب خارجيّ. كنتُ ضحيّة، لا فظّة. ولكنْ، ضحيّة مَنْ؟

بعد أن تساءلتُ طويلاً، عرفتُ الجانية: أمّي. تلك المرأة الهادئة، الوجلة. كانت تخاف من كل شيء، من الريح، والعاصفة، ولكنها تخشى خاصّة أبي، الذي كان يعنّفها. لم تقربني كثيرًا. يصادف أن تحكي لي حكاية، أو تهدهدني بأي أُغنيّة بصوتها الناشز. كانت أحيانًا تداعب وجهي، ولكنْ، بيد جافلة، مرتجفة. في هذا تلخّصت علاقتنا. بعد أن رأيتُ نفسي في المرآة، صرتُ أتبين علّة سلوكها. كانت تتجنّبني بسبب دمامتي، ولكنْ، أيضًا- استخلصتُ ذلك بعد أن فكّرتُ فيه مليًّا- بسبب الذنب الذي كانت تحسّ به، الذنب عن خطأ، تشهد دمامتي عليه.

ذنب ماذا؟ وأنا أبحث عن جواب على هذا السؤال، تذكّرتُ أمرًا حكتْه لي، عندما كنتُ طفلة: عندما كانت حاملاً بي، كان من عادتها النظر إلى الجبل، الجبل الحجري الوعر الذي يطلّ على المشهد الطبيعي في جهته الصحراوية. قامت بهذا التعليق في نبرة لامبالية في الظاهر، نبرة أرادت من ورائها مداراة قلق خافٍ، لم تكن واعية به، على الأرجح - لا هي ولا أنا، في تلك الفترة. ولكنْ، مثل ذلك القلق، الذي ألمسه الآن بشكل استعادي، كان شديد الإيحاء، قويّ البيان. فهنا يوجد تفسير دمامتي، في الجبل. في ذلك الحادث الجغرافي المعادي الذي أعرفه جيّدًا. مكان غالبًا ما ألوذ به حين كنتُ طفلة متسلّلة، مدفوعة ربمّا، وهذا يتبدّى لي اليوم، بنوع من التفاهم العميق، فملامح سحنتي البشعة تُوافق، في سلّم مصغّر، وإن لم يكن أقلّ فظاعة، ذلك المشهدَ المعذَّب. أنفي كان صخرة ناتئة؛ فمي يوافق المدخل المظلم لأحد كهوفه العديدة. كثير من البشر يرون وجوهًا في السحب؛ أنا كنتُ أرى في الجبل - مَعلم الشذوذ - استنساخ خلقتي. الأحاسيس التي انتابت أمّي في أثناء الحمل، انطبعت بكيفية لا تمّحي على وجه ابنتها. ابنة

لعلّها لم ترغب فيها. في تلك الفترة، كان أبي يلاحق امرأة أخرى. حبّل الزوجة؛ كي لا تكتشف العلاقة الدنيئة. كانت الحامل المتروكة تقضي أيّامها تنظر إلى الجبل باكية. وهي تعرف أن زوجها الزاني، المختفي هناك في أحد الكهوف، يمارس الجنس، بلا هوادة. كانت تريد أن تذهب على الأقلّ لملاقاته، عندما يغادر مخبأه مُتعبًا ومُشبعًا، لكي توجّه إليه نظرة عتاب. بلغت هدفها ذاك مرّة أو اثنتَيْن، ولكنْ، دون أدنى نتيجة. كان الرجل لا يقيم وزنًا لعتابها. بيد أن المراقبة المهووسة كان لها أثر غير منتظر: ستظلّ رؤية الجبل مرسومة إلى الأبد على وجهي. تمامًا مثل النساء اللاتي يأكلنَ حبّات الفراولة، فيولد الطفل ببقعة شبيهة بفراولة.

أثر غير منتظر. هِمم... لا أدري هل كان غير منتظر إلى هذا الحدّ؟! ألم تكن أمّي موجَّهةً بِنِيّةٍ غامضة في هذا السلوك المهووس؟ "هذا الوغد يخونني، سأنتقم منه إذنْ بأن أطبع على وجه ابنه (كان أبي يرغب في أن يكون المولود الأوّل ذكرًا؛ على أيّ حال لم يكن يرغب إلا في أبناء، ولكن يَهْوَه عاقبه إذ أعطاه ثلاث بنات - أولاهنّ بشعة) علامات القسوة نفسها التي طبعها على قلبي". وباتباع هذا المنطق ركزت نظرها على الحجر. أن يولد الطفل بشعًا كان أغلى رغباتها. وجهه، كتلميح استعاري للجبل حيث كان أبي يرتكب آثامه، يمثّل تذكرة مستمرة، إدانة ثابتة، احتجاجًا دائمًا تجاه الخيانة، وهِجاءً للفسق في النهاية. وجرت الأمور كذلك: وُلِدْتُ فظيعة.

أيّ صدمة تلقّاها أبي حين حملني بين ذراعيه! أي صدمة، وأي رجّة!

السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا لم يقتلني؟ إذ ثمّة حكايات كثيرة،

في شعبنا، عن آباء كانوا يتخلّصون من الرّضّع بإلقائهم، من أعلى الجبل، في وهدة يحوي عمقها -فيما يُقال همسًا- من العظام الصغيرة قَدْرَ ما يحوي من الحصى. كان المولود الأوّل، إن كان من جنس الإناث، يشكّل دائمًا حائلًا، إن لم نقل أكثر. فهو لا يضمن تعاقب السلالة، ولا يساعد في العمل، بل ويكون بحاجة إلى مهر؛ كي يستطيع الزواج. ومن ثمّ فإن مولودة أولى بشعة هي أسوأ الأمور كلها، هي كارثة، لا يمكن أن يكون مصيرها غير الهوّة.

لم يقتلني أبي. لا أدري السبب. لعلّه كان هو أيضًا يشعر بالذنب، فقد كان الذنب المكوّن الأساس لتقاليدنا. في كل الحكايات التي كان القدماء يروونها، ثمّة دائمًا ربّ شديد العقاب، يتّهمنا بشيء مّا. عدا ذلك، قد يكون ساور أبي بعضُ الندم، لأن المرأة الأخرى، بخلاف أمّي، لم تكن تُبدي نحوه أيّ احترام، وكانت تشيع أنه لم يكن سوى عشيق رديء. لذلك رضي بالتهمة الخرساء التي يمثّلها وجهي، وجه مولودة جديدة.

كبرتُ، بدمامة ظلّت تزداد كل يوم. وأنا أجهل دمامتي. لغياب مرآة بطبيعة الحال، ولكنْ، كان بإمكاني أن أتدارك هذا الغياب. ثمّة عدد من الصفحات العاكسة في الطبيعة. غدير ماء مثلًا، يمكن أن يقوم مقام مرآة، ولو أن مانع تغيّر الصورة (المثير للشفقة في حالتي) سيكون نتيجة تموّج السائل. وعيون الآخرين ألم تكن لي بشكل غير مباشر مرآة؟ انطباع الذهول، وحتّى الهول، الذي لمحتُه، أو خُيّل إليّ أني لمحتُه، على وجوه أشخاص، كانوا ينظرون إليّ، ألم يكن لي علامة كافية؟ حتّى لو كنتُ عمياء (وكم تمنّيتُ العمى بعد أن رأيتُ صورتي في المرآة!)، فلا شيء

كان يمكن أن يمنعني من معرفة الحقيقة. كان يكفي أن ألمس وجهي، أن أستكشفه بأصابعي الماهرة بما فيه الكفاية، لاكتشاف تقاطيع بارزة، بشكل مضحك، وتنافرات مرعبة. ولكني لم أفعل قطّ. لي يدان جميلتان (ونهدان جميلان أيضًا، ووركان جميلان؛ أنتمي إلى تلك الفئة المفارقة التي تُعرف باسم -دميمة- ولكنْ -مقدودة- بإحكام، هاتان اليدان، وكأنهما مدفوعتان بإرادتهما الخاصّة، رفضتا أن تجوبا صقعَ وجهي المعتمَ). حاولتُ إقناعهما: "هيّا، أيّتها اليدان، استكشفا الفم والأنف، لا تخافا من المجهول، اجْرُؤا! العالم ملك للجسورين! مَنْ لا يجازف بشيء، لا يحصل على أيّ شيء!" ولكنّ اليَدَيْن كانتا أذكى من صاحبتهما. "كلّا، قالتا، نريد أن نبقى حيث نحن، الوجه ليس مجالنا، ليست لنا رغبة في التّجوّل هناك، لا توجد مطوية سياحية تُقنعنا، نُفضّل أن نبقى في هذه الناحية، نهتمّ بالمشاغل اليومية، كالطبخ والغسل والتنظيف، وفي أحسن الحالات، نداعب النّهدَيْن، تلك الاستدارات اللطيفة الجميلة، فنحن نشعر بأنّها تلائمنا". وهكذا انضمّت اليدان إلى الـ "لا أريد أن أعرفه"، والـ "دعي عنك هذا"، والـ "كل شيء على ما يرام"، والـ "ليس هناك مشكل". مؤامرة الصمت، بمعنى آخر. ماكرتان هما اليدان. عندنا، كان قطعُ اليَدَيْن عقوبة السّرّاق والمنحرفين جنسيًّا. لم ترتكب يداي مثل تلك الجرائم، بيد أن خضوعها يستحقّ الإدانة هو أيضًا.

أن أكون انتظرتُ بلوغ الثامنة عشرة، كي أستطيع أخيرًا تشخيص دمامتي يبين إلى أي حدّ يمكن للإنسان، بمساعدة الآخرين أو من دونها، أن يُضِلّ نفسه. وكذلك إلى أي حد تكون غواية الكذبِ المتقنّع بالورعِ قوية. أختي مثلاً، لم تتخلّ عن ترميم الآثار المفجعة لحادثة المرآة. جاءت إليّ من الغد تحدّثني. روت لي حكايةً سيِّئةَ النيّة بقدر ما كانت مشوّشة

- لعلها كلفتها ليلة سهد. أكّدت أنها، بعد فحص دقيق، اكتشفت في المرآة عيوبًا لم تلحظها من قبل، كان لها دون ريب آثارٌ سيِّئة على صورتي. لا ينبغي أن أهتمّ، فكل ما رأيته لم يكن سوى انطباع خاطئ سوف تتولى مرآة أقلّ عيوبًا تصويبه.

كان لا بدّ أن أقرّ: لقد فعلت المستحيل لإقناعي. ولكنها لم تُفلح. فكل ما في حوزتها من شفقة (وشعور بالذنب) كانت تنقصه المهارة في الكذب. ظلّت تتلعثم وهي تتّقي نظراتي. ولكي أخفّف عنها، كذبت أنا أيضًا. "تلك نتيجة من يستعمل مرايا رديئة القيمة!"، هتفت.

"كنتُ أعرف جيّدًا - قلتُ في نبرة أكثر إقناعًا من نبرتها -، أعرف جيّدًا أني لا يمكن أن أكون بشعة بهذا الشكل!"

شملها ارتياح، وقد كُوفِئتْ بذلك. أمّا أنا، فلا. فمصيري، بصرف النظر عن الكذب، كان مرسومًا. أصبحتُ الآن دميمة، وحياتي كلها ستكون رهينة تلك الدمامة. لن يحبّني أيّ رجل. ولن يتغنّى أيّ رجل بجمالي. ستكون حياتي العاطفية أكثر جدبًا من صحراء الجوار.

أعترف: فكّرتُ في الانتحار. كل ما يتبقّى لي هو أن أتسلّق الجبل، وأُلقي بنفسي في الهوّة. سيتفتّت جسدي على الصخور. وتلتهم الكواسر لحمي، وأحشائي، وتبيّض عظامي تحت الشمس في المكان الذي نُذرت له من زمان.

لم أقتل نفسي. لم أجد الجرأة على ذلك. ثمّ إن الانتحار، علاوة على كونه مكروهًا (غريب كيف أن الدميمات يستبطنّ قِيَم الثقافة المهيمنة)، ما كان ليحلّ مشكلتي. صحيح أنني كنتُ سأكفّ عن أن أكون دميمة

حيّة، ولكنْ، مَن أدراني أن الدمامة لم تُعْدِ جمجمتي أيضًا؟ لا شيء يمنع، مستقبلاً، أن يستخرج جمجمتي أحدُ أفراد بعثة حفريات، ويقول لأحد رفاقه وهو يتفحّصني بازدراء: "أي بشاعة كانت هذه المرأة، هذا ليس رأسًا، إنه شتيمة!" فالموضوعية العلمية لا تنفي الحسّ الجمالي.

كلّا. سأذهب برأسي إلى الحدّ الأقصى. وحيدة، هذا أمر مؤكّد -لن أحتمل نظرات التقزز والاستغراب والحزن أو الشفقة -، ولكني سأذهب، أجل، حتّى آخر المطاف.

صرتُ متنسّكة. بتوقيت جزئي لا محالة، ولكنْ، متنسّكة. كنتُ أنام مع عائلتي، لأني لا أملك إمكانية أخرى، ولكنْ، منذ طلوع الفجر، كنتُ أهرع إلى الجبل، وقد كان حتّى ذلك الوقت ملاذًا للعنز الذي يهرب من قطيع أبي - وكما أسلفتُ، منه هو في بعض الحالات. ولكنْ، بخلاف الناسكين المعتادين الذين لا يريدون إلا اعتزال بقية البشر، كنتُ أبحث عن شيء ما.

ولمّا صادفتُه، عرفتُ في الحال أن ذاك ما كنتُ أبحث عنه.

حجر. حجر صغير.

بخلاف بقية أحجار الجبل، كان هذا الحجر صقيلاً رقيقَ اللمس. كان صقيلاً بشكل عجيب. فأي تعرية غلبت خشونته المعتادة؟

لعلّها لم تكن تعرية ... لعلّه كان من عمل ساكن غريب في الجبل، عفريت أو ساحر، صقل في أناة سطحَه الهشّ وفي باله أن دميمة سوف تَؤمّ الجبل ذات يوم، فتجد في هذا الحجر عزاء.

لا أدري. الثابت أن الحجر -بحجمه، وشكله البيضوي، ولا سيّما هيئته الصقيلة- يناسب تمامًا ما أريد. هذا الحجر سوف يُعوّض العشيق الذي لن أحظى به أنا الدميمة. أولجه في فرجي، فيوفّر لي المتعة.

وذلك ما حدث. منذ ذلك اليوم، صار الحجر يمنحني لحظات عديدة من متعة مرّة ومنزوية. مخفيًّا تحت أحجار ذات مظهر خشن معتاد، كان الحجر الحبيب في انتظاري. على شوق، وهو يستبق لحظة ولوج كهفٍ نديٍّ محدّد. مرتجفًا، نعم، باللّذّة. كيف؟ تظنّون أن الحجر لا يحسّ؟ ثوبوا إلى رشدكم، يا رجال، ويا نساء، ثوبوا إلى رشدكم، يا قليلي الإيمان. الأحجار تحسّ، نعم، تحسّ أكثر من بعض البشر، أولئك المتيبّسة قلوبهم وأمثالهم. ولكنها ببساطة لا تُبدي مشاعرها. لا تصرخ، ولا تبكي، ولا تتوسّل إلى السماء. ولكنها تردّ بامتنان على اليد التي تداعبها. تستجمع الحنان، كما تستجمع بطارية الطاقة، كي تعيدها من بَعد. في حالتي، في حالة حجري العزيز، بفوائد وتعديل نقدي. أي نشوة، أيّتها السَّيِّدات، أيّها السادة! زلازل جسدية حقيقية، تنتهي بصرخة وانية، تكاد لا تُحبس.

كان يمكن أن أكون سعيدة على هذه الحال، بعد أن عدلت عن العالم ومظاهره. ولكنْ، لا، لم أكن محصّنة ضدّ الإغراءات. آل بي الأمر إلى الوقوع في الوادي المشترك. أقصد الوادي المشترك لمشاعر البشر.

أحببتُ.

كان ثمّة راع شابّ في خدمة أبي، يقود قطيعه تحديدًا إلى ذلك الموضع، عبر مسارب الجبل. كنتُ أراه كل يوم، فتى وسيمًا، طويلَ

القامة قويَّ البُنية. كان بصوته الشجيّ يشدو بأغاني حنين تتحدّث عن حبّ مستحيل. لم أنتبه إليه من قبل. وكان يشاع عنه في القرية أنه غريب الأطوار. والرعاة الآخرون يسخرون منه ويزعمون أنه ناكح عنز، ولعل ذلك صحيح. فالمتوحدون في حاجة، بشكل أو بآخر، إلى تسكين شبقهم، حجر أو معزاة، كل شيء يصلح، عندما يعوّض الخيال الواقع الحزين. خيال أم لا، كان واضحًا أن الفتى يبدو لي جافيًا. إن كنّا تبادلنا قبلها نصف دستة من الكلمات، فذلك كان الحدّ الأقصى.

ولكني صرت أراه في ديكور آخر. والحقّ أن هذا الديكور هو الذي بدأ يولّد لديّ أفكارًا محدّدة... وآمالًا محدّدة. ألا يقع في الإغراء، وليس في الجبل غيرنا؟ أجل، كنتُ دميمة، ولكنْ، ليس أكثر من العنز التي كان يقودها إلى المرعى، رغم أنّ من بينها إناثًا جذّابة من جنس، نسيتُ اسمه. ولكني كنتُ واثقة من الفوز في المنافسة. على الأقلّ، يمكن أن أتجاوب مع عناقه. يمكن أن أهمس في أذنه كلمات حبّ رقيقة، وهو أمر لن تقدر عليه أي معزاة.

تشجّعتُ مرّة، وهتفتُ إليه: تعال، سنتحدّث قليلًا". تمنّع في البداية، قائلًا إنه لا يستطيع، ثمّ قبل دعوتي. جلسنا، وبدأنا حديثًا حاميًا. فوجئتُ أنه شابّ لطيف، وفضوليّ. كان يريد أن يعرف ماذا تفعل ابنة سيّده حين تلجأ إلى الجبل. اختلقتُ على الفور حكاية، حكاية رائعة، أي نعم. حكيتُ أني رأيت في المنام ملاكًا، يحمل إليّ رسالة من المولى: سوف ألتقي برجل حياتي عند مسالك الجبل، وهو يقود عنزه للرعي. كان يستمع إليّ محتارًا. لم يفهم الغبيّ التلميح. أمعنتُ. وأنا أشير إلى الكهف، قلتُ إنه المكان الأفضل لعيش حبّ كبير.

كان ردّه مفاجئًا: "الكهف! هتف وهو يضرب جبينه بكفّه، كيف لم أفكّر في ذلك من قبل؟ يا لي من غبيّ! هي ستحبّ الفكرة! - هي، مَنْ تكون؟" سألتُ.

مَنْ تكون؟ أختي طبعًا. الحسناء. المتغنّجة. في غفلة منّي، ومن الجميع، كانا يتغازلان منذ مدّة. غزا قلبها بأداة كانت ترغب فيها من زمان، وكانت سبب شقائي: المرآة التي سرقها، فقد كان الرعاة حينما تسنح الفرصة لا يتردّدون في ترك قطعانهم، ليهاجموا القوافل التي تمرّ من هناك.

لم يقضيا وطَرهما بعد، لأنهما ببساطة لم يجدا مكانًا هادئًا، يلتقيان فيه. والكهف قد يسدّ جيّدًا هذه الثغرة. لذلك أثنى عليّ كثيرًا حين ذكرته. حكى لي الحكاية كلها، وهو يطلب منّي مساعدتهما.

قبلتُ. ماذا كنتُ أستطيع أن أفعل؟ قبلتُ. تخلّيتُ فورًا عن الوله، ولكني قبلتُ.

في الظهيرة نفسِها، كانت أختي تركض نحو الجبل. كحال محبوبها، شكرتّني كثيرًا على العون الذي قدّمتُه لهما: "سوف يجازيكِ المولى، أكّدتْ لي، سوف تلتقين أنت أيضًا بحبيبكِ في هذا الجبل!" (مَنْ؟ مَنْ يكون، يا أخيَّتي؟ مَنْ؟ الحجر الصقيل؟ كرّاز عجوز؟ ملاك المولى؟ وا أسفاه، يا أخيّتي، كان بإمكانكِ تجنيبي بشائرك الرئيفة).

طلبا منّي مراقبة المسلك تجنّبًا للإزعاج -وهي مهمّة، تجشّمتُ القيام بها على أكمل وجه. كنتُ أقيم الحراسة عند مدخل الكهف. في الداخل - كان البرد يرين على تلك المغارة - أوقد الراعي الشّابّ نارًا. كل

ما أراه، طيفاهما وقد جرّأهما اللهب، وهما يتلوّيان في رياضة الجنس. آهات، وصرخات وضحك ... بدموعي، لم يعلم أحد.

انتهت الحكاية نهاية سيِّئة. اكتشف أبي كل شيء. تملّكه غضب فائر، لمّا علم أن عامله افتضّ ابنته. وبوصفه البطرك، جمع القرية كلها لإصدار حكم ارتجالي أمام الملأ - حكم كان فيه القاضي ونائب الحقّ العامّ (لم يكن ثمّة محامي دفاع، فلن يجرؤ أحد على لعب هذا الدور). أُدين الراعي المسكين، وحُكم عليه بالعقوبة التقليدية التي تمارسها قبائل البدو: الرَّجْم. جُمعت في الحال كمّيّة كبيرة من حجارة الجبل. كان الشّابّ، وقد أُوثِق إلى وتد، هدفًا سهلًا للحجارة التي كان الرجال يرمونها باهتياج. تابعتُ ذلك في عجز، وأنا أسند أختي المسكينة التي كانت، في رعبها، لا تعرف ماذا تفعل. أخيرًا تضاءلت الحجارة. فُكّتْ قيود الشّابّ وهو شبه ميّت، ينزف دمه بغزارة، وطُرد. "اذهبْ! قال أبي، لا أريد أن أراكَ هنا أبدًا. لو تعود، فسوف تُرجَمُ حتّى الموت!" انصرف الراعي مترنّحًا.

وما أسرع ما تأسّت أختي، فقد مالت بعده إلى راع آخر. وكان أبي قد وعد هذا الشّابّ بعشرين عنزة، لو يتبنّى الطفل الذي سيُولَد. لم يندم سكّان القرية على عقاب المنتهِك، فهو يستحقّه في رأيهم. وبذلك لم يلبث أن نسي، فلم يعد يأتي على ذِكْره أحد، حتّى أهله.

الوحيدة التي كانت تتألّم - في صمت -، هي أنا. مع الراعي الشّابّ انطفأ أملي، أيًّا ما تكن عبثيّته، في أن أُحِبَّ وأُحَبّ. بقيتُ وحدي مع حجري.

ولكنْ، هل كان ذلك إذنْ هو كل ما كنتُ آتيه؟ أستمني؟

كلّا. والأحرى بلى. كان ذلك كل ما كنتُ آتيه حتّى اهتمّ بي النَّسَّاخ.

كان النَّسَّاخ هو الرجل الوحيد الذي يحترمه أبي. لسبب بسيط، وهو أنه الوحيد بيننا من يُحسن القراءة والكتابة. لم يكن إذنْ مُجرّد عامل. كان يكسب أكثر، وينتفع ببعض الحقوق. كان يحصل مثلاً على عشرة أجبان ماعز في الشهر، وهي مادّة مرغوب فيها كثيرًا. وصلاحيّاته أيضًا كانت خاصّة. كان أبي يعطي النَّسَّاخ الرسائل القادمة من الملك. وهي رسائل نادرة، ولكنها مستعجلة دومًا، كانت تتضمّن أوامر عاجلة. ويتحتّم على النَّسَّاخ الإجابة عنها، وهي مهمّة لا تشترط فقط الإلمام بالكتابة، وإنما مهارة سياسية كبرى، لأن علاقات أبي مع التاج لم تكن جيّدة. ومن مهامّ النَّسَّاخ أيضًا مَسْكُ نوع من حساب القطعان، ومختلف أملاك أبي، وكذلك الإتاوات التي يدفعها. في القرية، كان يُنظَر إلى النَّسَّاخ بعين الرهبة والاحترام. ويُرى كراهب مجوسيّ.

كان دميمًا، ذلك العجوز. إلهي، كم كان دميمًا! باستثناء السّنّ، كانت دمامتنا متساوية. ولعلّ ذلك ما ولّد حنانه نحوي. كان دائمًا ما ينفحني هدايا: رغيف خبز، قطعة من جبن الماعز. وكلّما فرغ من شغله، يحكي لي حكايات. كان يعرف كلّ شيء عن قبيلتنا.

وفي يوم، أشار إليّ من خيمته التي يتّخذها مكتبًا. "تعالي، قال في نبرة غريبة، أريد أن أتحدّث إليكِ".

أعترف أني فكّرتُ، لأوّل وهلة، في نيّة شهوانية. في شيء من الرهبة، وفي نوع من التّهيّج أيضًا - هل حان وقت تغيير الحجر، بقضيب حقيقي، ولو كان ناضجًا قليلاً؟- دخلتُ الخيمة، ولم يكن بها غير طاولة صغيرة،

وكنبة عتيقة. كنّا واقفَيْن، وكان ينظر إليّ بكيفية غريبة. "الآن سيطلب منّي خَلْعَ فستاني"، فكّرتُ. ولكنْ، لا.

– سأُعلِّمكِ الكتابة، قال بلهجة ارتسامية رغم أنها مرتجفة قليلاً.

كان هذا طبعًا أمرًا مفاجِئًا. أكبر شيء فاجأني حتّى ذلك الوقت. كانت الكتابة مقصورة على قلّة نادرة من الأصفياء، أولئك الذين يتوصّلون، بفضل آليات غامضة، إلى الإمساك بزمام فنّ، كنّا ننظر إليه باحترام يقرب من التقديس. وبذلك، قد تقدر امرأة على الكتابة؟ مستحيل. المرأة، حتّى لو كانت دميمة، إنما جُعلت لتسيير البيت، والزواج، وإنجاب الأطفال. ما يقترحه عليّ هنا ليس انتهاكًا حقًّا، بل هو شيء خارج عن المألوف. وقد يكلّفه غاليًا. ماذا سيقول أبي حين يعلم بالمقترح؟ لا أجرؤ على التفكير في ذلك. كان يحترم النَّسَّاخ، ويحتاج إليه، ولكنْ، إذا صارت سلطته في خطر، فلن يتردّد في تلقين هذا العجوز درسًا للاعتبار، من نوع الرَّجْم، وحتّى أشدّ.

بيد أن النَّسَّاخ كان يتحدّث بجدّ. يريد، نعم، أن يعلّمني الكتابة. لماذا؟ لستُ أدري. شفقةً، ربمّا، "البنت المسكينة دميمة، ولن تجد رجلاً أبدًا، هي في حاجة إلى تعويضٍ، مخرجٍ لحرمانها"، أو خضوعًا لهاجس سَبقي- المستقبل، كما سنرى، يحتفظ لي بمفاجأة، قد يكون حدَسها. وأيًّا ما تكن الدوافع، فالحاصل أن الرجل أجلسني إلى طاولته، وأراني كيف أستعمل أدوات الكتابة، القلم والحبر والرّقّ. وتفاجأتُ أني أرسم أوّل حروف الهجاء: الألف، بَدْءُ كلّ شيء.

أيّ تأثّر! إلهي، أيّ تأثّر! كنتُ أنظر إلى الخطوط المعوجّة برضًا فنّان

يتأمل رائعته. بلغتُ شيئًا، لم أحلم ببلوغه قطّ. أكثر من ذلك: خلال ذلك الوقت الوجيز، تغيّرتُ. لم أعد أحسّ بأني دميمة. وجهي هو نفسه، ولكن الإحساس الجوهري بالدمامة الذي كان يرافقني حتّى في نومي، ويتبدّى في كوابيس، أنهض على إثرها صارخة -ذلك الإحساس خفّ بقدر هامّ. صرتُ ... رديئة الخلقة. وهو وضع قابلٌ للتّحمّل، ويُمثّل مقارنةً بما كابدت حالةَ هناء غير مأمولة، وسعادة تقريبًا. أحسستُ نفسي خفيفة، محرّرة، كأنّ فعلَ كتابةِ حرفٍ، حرفٍ وحيد، خلّصني من ماضٍ مضطهِد. بدأتُ أتحدّث في استرجاع ثابت عن طفولتي، وعالمي المُتخيّل، وتطلّعاتي. كنتُ أتكلّم وأتكلّم. والنَّسَّاخ يَسمعني مبتسمًا.

وهذا ما حدث: استبدّ بي هياج شبقيّ -حكاية الكتابة تلك، لسبب غامض، أثارت فيّ الرغبة -فارتميتُ بين ذراعَيْه، وأسلمتُهُ نفسي: لِيَمْلِكْنِي، فله الحقّ في ذلك. دفعني برفق: لا، لا يمكن أن يقيم علاقة جنسية معي. لا يُعقَل في نظره أن يستغلّ اعترافي بجميله، وحتّى إن أراد ذلك، فلن يستطيع، مضى زمن لم يعد يعرف إثره ما الجنس. مساعدته لم تكن تخفي نيّة أخرى، تصرّف فقط تضامنًا، وتودّدًا، ورغبة في التعليم. كان شيخًا هرمًا، يُريد نقل معرفته بالكتابة، وبدا له أني الشخص المناسب.

كل ذلك كان نبيلاً، ولكني شككتُ في كونه مترفّعًا إلى هذا الحدّ. لمستُ أكثر من مرّة علامة حقد على وجهه حين يأمره أبي بأمر. ألم يكن يحاول قلب نظام عائلة البطرك بالتلاعب بالدميمة المولودة الأولى عن طريق نشاط مخصّص للرجال، بل بعض منهم فقط؟

ذلك لا يهمّني كثيرًا. بعد أن اكتشفتُ عالم الكلمة المكتوبة، صرتُ

سعيدة، سعيدة جدًّا. وأنا مختبئة في كهف الجبل (كفاءتي ينبغي أن تبقى سرّيّة، حسب توصيات النَّسَّاخ نفسه)، كنتُ أقضي أيّامي في الكتابة، على ضوء سهارة شاحب. أكتب ماذا؟ أي شيء. أفكار. أشعار. حكايات. حكايات خاصّة. حكايات من ابتكاري، أكون فيها دائمًا البطلة التي يتنازع ودّها الأمراء، سواء أكانوا وُسماءَ أم لا. حكايات حقيقية أيضًا، عن شعبنا، كان النَّسَّاخ يرويها لي، فأُدوّنها على الرّقّ. أتحدّث عن أبي؛ رجل وسيم وشديد، قائد يقود شعبه عبر الصحراء إلى واحة جنب الجبل: "هنا سوف نبني بيوتنا، ونشيّد مدينة كبرى". بالكتابة عن أبي، ملكتُ، في وجه من الوجوه، سلطةً عليه. كنتُ امرأةً متعلّمة وقويّة، أمّا هو، فوَلدٌ متردّد هلع. ولكن الحكاية ظلّت في بدايتها. كنتُ بحاجة إلى مساندته، كي أواصل، ولن يمنحني إيّاها أبدًا. "هذه الحكاية في رأسي، قد يقول، فائرًا، لن أرويها إلا إذا شئتُ!".

سيّان عندي. فعل الكتابة يكفيني. أن أضع على الورق حرفًا وراء آخر، وكلمة بعد أخرى، شيء يسحرني. لم يكن ما أُنتجه نصًّا فحسب؛ كان جمالًا، الجمال الذي يكون ثمرة النظام والتناسق. اكتشفتُ أن كل حرف يستدعي آخرَ، وهذا التوافق لا ينظم نصًّا فقط، بل الحياة والكون. ما أراه على الرّقّ، حين أنتهي من عملي، كان خريطة، مثل الخرائط السماوية التي تدلّ على موقع النجوم والكواكب، موقع لم يكن ثمرة الصدفةِ، بل نتيجة ترتيبِ قوى غامضة، هي نفسها التي، في سلّم أدنى، تقود يدي حين ترسم العلامات على الرّقّ. المسألة تتعلّق بسلطة، كنتُ أُمسك بزمامها شيئًا فشيئًا. تجربة مُسكِرة، لا أستطيع تقاسمها مع أحد: أمّي قد تموت خوفًا لو علمتْ، وأخواتي قد يَبريهنّ الحسد. الشخص الوحيد الذي كنتُ أرغب في أن أحكي له ما حدث لي هو

الراعي الشّابّ. سأقول له إنّ لحياتي الآن معنى، دلالة: دميمة،ورغم ذلك قادرة على خَلْق الجمال. ليس ذلك الجمال الذي تعكسه المرايا بخداع، وإنما الجمال الحقّ، الجمال الدائم لنصوص، كنتُ أكتبها يومًا بعد يوم، وأسبوعًا وراء أسبوع - وكأني في حال سُكْر لذيذ باستمرار.

أجل، كنتُ أحسّ بأنّي متعالية نحو عالم آخر، واقع آخر. كل شيء نُسي. الحجر أيضًا؟ نعم، أيّها المرتابون، الحجر أيضًا. حجر؟ لِمَ يصلح الحجر؟ لمَ يصلح؟ أهذار نزوتي، إن صارت نزوتي طوع يدي، وصرتُ قادرة على خلقها في أيّ لحظة؟

التفكير في الحجر أمرٌ نادرًا ما ينتابني، ولكنه يُولّد في نفسي الندم. نديمٌ شديدٌ، إلى درجةٍ جعلني ذات يوم عاجزة عن مقاومة رغبة الذهاب إلى المخبأ، كي أعرف ما إذا كان لا يزال هناك، في ذلك الموضع الذي تركتُه فيه. لم أجده، ففزعتُ. شخص أخذه، قلتُ في نفسي عندئذ، ولكنْ، مَنْ؟ ولماذا؟ الحجر -ذلك الشكل البيضوي، تلك الصفحة الملساء- هل يصلح أداة زينة في بيت ما، أو أن مَنْ أخذه، ذكرًا كان أم أنثى، له غايات أخرى؟ هاجمت ذهني أشياء وأشياء: الحجر وصل إلى يدي أبي، فناداني فائرًا: "أتعرفين هذا الحجر؟ وإن كان الجواب بنعم، فماذا كنتُ تفعلين به؟".

لا، لا، لا أحد اختلس الحجر. بل إني أخطأتُ الموضع. عندما عثرتُ عليه، بكيتُ من شدّة الفرح؛ قبّلتُه، وطلبتُ منه الصفح. واعترتْني في الحال رغبة معيّنة ... كنتُ أمام خيارَيْن عويصَيْن: من جهة، الحجر والعزاء، الضعيف والأكيد في آنٍ واحد، الذي يمنحني إيّاه؛ ومن جهة أخرى، وضعي الجديد كمتعلّمة، وهو وضعٌ لا يناسب في الظاهر تلك

الأعمال البدائية. ورغم ذلك، كان الإغراء قويًّا حتّى كدتُ أخضع له حين ارتفعتْ في القرية فجأةً جلبةٌ عالية. لا شكّ أن الراعي الشّابّ قد عاد، فكّرتُ في الحين، جاء يتحدّى والدي والقرية؛ كي يأخذني معه، أنا، المرأة الوحيدة التي أحبَّها. ملكتْني تلك الفكرة المجنونة، فألقيتُ بالحجر في الكهف، ونزلتُ المنحدر جرْيًا.

كلّا، لم يكن الراعي الشّابّ قد عاد. كان المَقْدَمَ الدوريّ لرسول الملك. وهو دائمًا حدث كبير. قافلة الجِمال، مخفورة بوحدة عساكر مدجّجة بالأسلحة، تدخل القرية على وَقْع الطبول والمزامير، وتُستقبَل بهُتافٍ حامٍ، لا يكاد يخفي الخشية العامّة: فالرسول يحمل دائمًا أخبارًا سيِّئة. إمّا أنه جاء يجمع الإتاوات المتأخّرة، أو أنه يعلن عن قوانين جديدة، أو يجنّد شبّانًا للحرب. ورغم ذلك، كان أبي يفرض على القبيلة معاملته كما ينبغي، بالولاء والهدايا. فهو لا يريد مشاكل مع التاج؛ لأن ذلك قد يكلّفه غاليًا.

عندما بلغتُ القرية، مقطوعةَ الأنفاس، كان الرسول -رجل سمين يتفصّد عَرَقًا- ينزل من فوق جمله. حيّا الحاضرين جميعًا، وبعد لحظة تشويق، أعلن بنبرة رسمية أنه يحمل رسالة من الملك. قدّرتُ كباقي الحاضرين أنه واحد من بلاغاته المعتادة، فقد كانت المرحلة أوان دفع الضرائب. ولكني أخطأتُ، فالرّقّ الذي سحبه الرسول من جيب حريري دقيق الطرز سوف يغيّر حياتي.

أخذ أبي الرسالة، وسلّمها كالعادة إلى النَّسَّاخ الذي فكّ لفافتها ببطء.

امتقع وجهه على الفور، ما زاد في خشيتنا. لا ريب أنه أمرٌ خطير، وخارج المخطّطات المعتادة فيما يبدو، لأنه قال، بصوت يكاد لا يُسمَع، إنه يريد أن يتحدّث مع أبي على انفراد.

لم يرُقْ ذلك الرسول. أعلن بنفاد صبر أن عليه، بأمر من الملك، العودة في الحال. "وقد أنجزتُ مهمّتي"، أردف في نبرة تهديد مبطّنة.

دلف أبي مع النَّسَّاخ إلى خيمته، وانغلقا داخلها بعض الوقت. كنتُ أستطيع سماع صيحات اندهاش مكظومة، ولكني لم أعرف بالضبط عمّا كانا يتحدّثان. أخيرًا، خرج أبي. توجّه نحوي، وهو يرمقني بنظرة غريبة، تنمّ عن أحاسيس متضاربة: الفرح، ولكنْ، التّبرّم أيضًا، وحتّى الغضب ربمّا. حاول أن يقول لي شيئًا، ولم يقدر عليه. بحركة حانقة، التفت نحو النَّسَّاخ، وطلب منه إعلامي؛ ثمّ ابتعد يتبعه كل الحاضرين. في تلك اللحظة، لم أكن مرتابة فقط، بل مرتعبة. هكذا إذنْ، كنتُ المَعنية بالرسالة؟ ولكنْ، أيّ أهمّيّة يمكن أن أمثّلها، أنا، الدميمة، التافهة، لدى العاهل الجبّار الذي يقودنا؟

"اتبعيني"، قال لي النَّسَّاخ، وأدخلَني الخيمة. "ما الأمر؟" سألتُ بصوت مرتجف. كانت إجابته أن ناولني الرّقّ الذي يحمل ختمَ الملك المتوهّجَ. "اقرئي بنفسكِ، تقدرين الآن على ذلك".

قرأتُ. ولم أصدِّق عينَيّ.

"وفق التقاليد والقانون، تقول الرسالة، أنتَ مأمور بالتنازل عن ابنتكَ الكبرى كزوجة للملك، حتّى نُوطِّد العلاقة بين البيت الملكي والقبيلة التي ترأسها". البنت الكبرى: أنا. تمّ اختياري لأُصبح زوجة

الملك. أنا التي لم تعرف أيّ رجل، أنا التي كانت قبل لحظات تتردّد بين الاستمناء والإعلاء(*) -، صرتُ على وشك الزواج من أعظم رجل في المملكة. والعالم، ربّما. لم أدرِ ما أقول، لم أدرِ هل أضحك أم أبكي؟ أقفز من شدّة الفرح أو أرتمي على الأرض وأنتحب؟ كنتُ هناك، جامدة، معطّلة الحركة.

عاد أبي إلى الخيمة، وظلّ ينظر إليّ في صمت. ففهمتُ ساعتها التباس الحواسّ الذي استولى عليه، وكان ينعكس في نظرته. من ناحية، كان يحسّ أنّ في ذلك إنعامًا وإطراءً. فالزواج، كما جاء في الرسالة، هو تحالف سياسي - والتحالف مع الملك أمرٌ يتوق إليه كلّ رئيس قبيلة، هو أكثر من سواه، لأنه كان يواجه عدّة تهديدات، خارجية وداخلية. كان يخشى منذ مدّة طويلة هجوم القبائل المجاورة التي تحسدنا على عنزنا الجيّد وشياهنا. ومن ناحية أخرى، لم يكن موقعه المهيمن داخل القبيلة من أكثر المواقع متانة؛ كانت ثمّة معارضة صامتة من عدّة أرباب عائلات، علاوة على وقاحة متعمَّدة من قِبل بعض الشباب. فَصْلُ الراعي الشّابّ كان القطرةَ التي أفاضت الكأس. صحيح أنه ولَدٌ مضطربٌ قليلًا، ولكنْ، في أوقات أخرى ما من أحد كان يجرؤ على افتضاض ابنة البطرك، لا سيّما في الكهف الذي كان هذا البطرك يستعمله، ليخفي نزواته، وهي أيضًا من علامات الفسق. كحليف للعرش إذنْ، سوف ينعم بحماية خاصّة؛ ومقامه سوف يتحسّن، دون ذِكْر ديونه التي قد تُمحى دون ريب، وفي الأقلّ، تعاد جدولتها بفوائض أدنى، من قبيل اثنَيْن أو ثلاثة في المائة في السنة، حسب الأحوال الاقتصادية، بطبيعة الحال. في القصر، سوف

(*) Sublimation: مصطلح فرويدي للدلالة على عملية تحويل طاقة الميول المكبوتة، واستنفادها في مجالات أخرى.

تعيش ابنته عيشة ترف ورفاه. صحيح أنها لن تكون سوى واحدة أخرى وسط مئات الزوجات والخليلات، وأنها ستكون حبيسة ذلك القفص الذهبي بقية أعوامها، بعيدًا عن القرية، وبعيدة عنه هو. ما لا يستطيع أن يمنع نفسه عن الأسف عليه: أني ابنتُه، ربّاني، ورغم خلافاتنا كان بيننا في الواقع حنان، وربّما، من يدري؟ - إذا استثنينا الدمامة - تواطؤ. إذا رجّحنا المسألة إذنْ، تبيّن أن أمر الملك مُجْزٍ بالنسبة إليه، وربّما بالنسبة إليّ.

ولكنْ، ثمّة مشكل ... مشكلٌ جدّيٌّ كامن ... هبْ أن الملك رفضني؟ طردني قائلًا: "لا أريد دميمات، هذه المرأة ليست زوجة، إنها استفزاز، لا أقبل امرأة قبيحة عربونَ تحالف"؟ سيكون ذلك وضعًا حرِجًا بحقّ. ملك أم لا، لا يمكن لأبي أن يقبل إرجاعًا، سوف يُعدّ إهانة، بل أدهى، استهزاء، لأني، بوصفي ابنته، من إنتاجه -إنتاج البطرك. وإبداء الاحتجاج سيكون رغم كل شيء معقَّدًا. ما العمل؟ اللجوء إلى العصيان المدني برفض دفع الضرائب؟ أو، في نطاق تمرّد مفتوح، الالتحاق بجماعات متمرّدة - ولو أنها متناثرة وقليلة العدد - تقاتل ضدّ السلطة المركزية؟

سؤال شائك. ولكن أبي تجنّب الاستباق، أوّلًا لأنه قائد، وتاليًا لأنّه صاحب مهارةٍ سياسية. الأولوية ساعتها أن يحلّ المسألة معي أنا، ابنته. من الواضح أنه كان يستطيع أن يرغمني، بوصفه أبًا، على الخضوع لإرادته، ويجعل منّي زوجة الملك. ولكنه كان يمنّي النفس بأن أوافق، وفي الأقلّ، لا أخلق صعوبات - ما قد يكون سيِّئًا للغاية، ويفرض عليه اتّخاذ قرار قويّ، وربّما عنيف، لا يناسب بحالِ الجوّ البهيج الذي ينبغي أن يَسِمَ الزواج. تطلّع إليّ إذنْ، في وضع ترقّب: كانت الكرة في مَرماي.

في تلك اللحظة، استبدّ بي الرعب. أحسستُ بنفسي من جديد طفلة تبكي في الليل خوفًا من الظلام. لو استطعتُ، لتعلّقتُ به باكية متوسّلة: "لا تتركني أُقاد، أرجوكَ، أريد أن أبقى هنا معكَ، مع أمّي وأخواتي الصغيرات!" بيد أني لا أستطيع أن أتصرّف هكذا. أردتُ تجنيبه ذلك، طبعًا -فهو أبي من قبل ومن بعد-، ولكنّها مسألة كرامة. تعلّمتُ من زمن كظم انفعالاتي. فأنا على قدر من الدمامة؛ ولئن زدتُ عليه التذمّر، لفاضت الكأس ... لذا اكتفيتُ بالردّ، بطريقة فيها جفاء ونبل، فأعلمتُه بأني أقبل قراراته.

ذلك أفضل ممّا كان يأمل، أفضل كثيرًا. عانقني أبي من شدّة التّأثّر. ليس العناق الذي كان يخصّ به نساء الكهف، ولكنه عناق، وخرجنا متخاصرَيْن؛ لنُعلن للجميع الخبر السعيد. وهو ما ترك في نفوسهم أثرًا عميقًا بطبيعة الحال. أقبلوا عليّ يقبّلونني. "كنتُ أعرف أن الأمور ستنتهي على ما يرام"، همست أختي. تظاهرَتْ بالفرح وهي تكاد لا تخفي غَيْرتها. نصيبها راع صغير مبتاع بعشرين عنزة، ونصيبي ملك بالمجّان. سيكون لي من الآن فصاعدًا كل المرايا التي أشتهي. وربّما قد أصير جميلة - فليست الإمكانات هي ما يُعْوز القصر.

تقرّر الرحيل من الغد. جمعتُ أشيائي القليلة خلال السهرة، وصعدتُ الجبل آخر مرّة، لأرى غروب الشمس على الصحراء. تسلّلتُ خفية إلى المخبأ، التقطتُ الحجر، واستأذنتُه في الرحيل. لن أحتاج إلى هذا الذَّكَر الاصطناعي الذي رافقني بوفاء في عددٍ من عمليات جنوني المتخيَّل. "وداعًا، أيّها الحجر العزيز"، تمتمتُ ببالغ التّأثّر. كتكريم أخير، وضعتُه في عمق الكهف الذي كان مسرحًا لشَغَف أبي، ثمّ للراعي الشّابّ، وشغفي أنا - بالكتابة.

لم أنم الليل تقريبًا، لشدّة ضيقي. ولمّا هدّني الإعياء، لم يكحّل النوم جفوني إلا عند الفجر، فرأيتُ حلمًا غريبًا. وجدتُ نفسي في مكان مجهول، قاعة كبيرة، لا يمكن أن تكون غير إيوان ملكي، نظرًا إلى ترفه. على جدار في عمقه مرآة ضخمة. هرعتُ نحوها، كي أرى وجهي. ما رأيتُه لم يكن صورتي، بل صورة امرأة مختلفة، فارعة القوام، حسنة الوجه، ذات سحنة كئيبة، وبسمة غامضة. أردتُ سؤالها مَنْ تكون؟ وماذا تفعل هناك؟ ولكني لم أجد الوقت، فقد أيقظني أبي بغتة. كان رسول الملك على أهبة للرحيل، وما عادت القافلة تنتظر أحدًا سواي. ارتديتُ ثيابي على عجل، وودّعتُ أهلي بسرعة، وما هي إلاّ لحظات حتّى كنّا في طريقنا إلى العاصمة. رحلة طويلة، شاقّة، لا تخلو من مخاطر. كان البؤس الذي خيّم في الأعوام الأخيرة قد زاد من عدد اعتداءات العصابات المناهضة للملكية.

كنتُ حبيسة هودج، على ظهر جمل، فلا حقّ لأحد أن يراني، بوصفي مُلكًا للعاهل. نظريًّا، لا يمكنني أن أرى شيئًا بدوري، ولكنْ، منذ انقضاء اليوم الثاني، وإذ سئمتُ هذه العزلة الرائقة، أزحتُ الستائر بما يكفي، كي أنظر دون أن أُرى. في البداية، لم أرَ غير الصحراء؛ منظر قاحل، ولو أنه أليف. فقد وُلدتُ في الصحراء، وترعرعتُ في الصحراء. كانت الصحراء أرضي، موئلي. موئلي الذي تركتُه خلفي.

شيئًا فشيئًا تغيّر الديكور. ظهرت قرى لا تني تزداد اتّساعًا باطّراد، تسكنها قبائل أخرى، وأناس لا أعرفهم، بألبسة مختلفة - كل ذلك كان مصدر اندهاش وخشية بالنسبة إليّ. إلهي، ما أوسع العالم! وما أبعد ما أكون عن أهلي! في اليوم الرابع من الرحلة، رأيتُ طيفًا أليفًا على

الطريق، طيفًا خفق لمرآه قلبي بقوّة: كان الراعي الشّابّ. كان يمشي بصعوبة وهو يعرج. والأشنع أنّ وجهه كان مشوّهًا من أثر الحجارة التي تلقّاها. مسكين أنت، أيّها الراعي الشّابّ، هذا ما أرداك إليه عقاب أبي الذي لا يرحم! رغبتُ في مناداته، ودعوتِه إلى الجلوس بجانبي في هذا اللباس الخفيف. قد تنشأ بيننا في هذا الجوّ المريح علاقة حميمة طالما رغبتُ فيها. سوف نتحادث طويلاً، ونتبادل النظرات، ومَن يدري؟! فلربّما ...

لا جدوى من التفكير في ذلك. صرتُ الآن ملكًا للملك، ولا بدّ أن أنسى الراعي العزيز. ثمّ إنه قد لا يكون في حاجة إلى مساعدتي. صحيح أنه أُهين، وعُنّف، وطُرد بخزي، ولكنه الآن حُرٌّ طليق، يمكن أن يذهب حيثما يشاء، يُغازل مَنْ يهوى من الفتيات (أو العنزات)، في حين أني سأكون حبيسة القصر إلى الأبد. افترق طريقانا. لا سيّما أن الراعي الأعرج، بما أن الجمل أسرع خطوًا، ما لبث أن ابتعد.

كانت الهواجس تستبدّ بي كلّما ازددنا قُربًا من غايتنا. كيف هو القصر؟ والحريم؟ وكيف هو خاصّة الرجل الذي سيملك جسدي، وحياتي؟ ليس لي أدنى فكرة، ولكنّ ذلك الخوف يستثيرني. هي مغامرة سوف أعيشها، مغامرة في كل لحظة. من الآن فصاعدًا، سيكون في كل شيء جِدّةٌ وتبجيل. هذا الإحساس يزداد كلّما أوغلنا في الطريق، واقتربنا من العاصمة. ورائي الصحراء والجبل المفرد وماضيّ. وأمامي مستقبلي وغد ذهبيّ. وفي يوم، أفقتُ عند الفجر، فإذا أورشليم أمام عينَيّ، بأبراجها وأسوارها.

أورشليم. منذ الطفولة، كان هذا الاسم يُلهب خيالي. خصوصًا أني لم أقصدها قطّ. أبي كان يتحدّث عن مدينة كبيرة جميلة، مكان يعيش فيه

المرء بنشاط. وكنتُ أنا وأخواتي نُنصت إليه في صمت منذهل خانع. كانت حظوظنا في القيام بذلك السفر الذي يكاد يكون أسطوريًّا ضئيلة. المدينة الملكية - مدينة الهيكل - كانت قبلة حجّ للرجال، لا للنساء. يا لحسن حظّ بنات أورشليم اللاتي وُلدنَ فيها! أمّا الأخريات، فيقنعنَ بحكايات المسافرين. وأمّا أنا، فقد حللتُ بها الآن - لا كزائرة عادية، بل كزوجة اختارها الملك. "يا بنات أورشليم! كنتُ أودّ أن أصرخ، اركعوا لي!".

أحدث وصولُ القافلة غليانًا. في الشوراع الضّيّقة التي عبرناها، كان حشد حقيقي يتابع مرورنا. وكان ذلك الاهتمام، وذلك الهياج -أعترف أن شعورًا بالفخر شملني وأنا ألحظه- سببه الخيمة التي كنتُ أجلس داخلها. الجميع كانوا يعرفون أن بداخل تلك الخيمة زوجة الملك الجديدة. ولا شكّ أنهم يتخيّلونها جميلة وفاتنة. هم مخطئون، ولكنهم لن يقفوا على خطئهم؛ لأنهم لن يرَوْني أبدًا. لن أغادر القصر أبدًا.

إلى ذلك القصر المهيب الباذخ وصلْنا. عبرنا أبوابًا، يحرسها العَسَس، ودخلنا بهوًا داخليًّا توقّفت فيه القافلة. أقبل رسول الملك، الذي لم أبادله ولو كلمة طيلة الرحلة، يساعدني على النزول، ويقدّمني إلى الرئيسة عن الحريم التي ستتولّى أمري. نظرت إليّ المرأة، وكانت طويلة سمينة ذكورية الملامح (مَنْ يدري؟ لعلّها تساهم في ملذّات السّراي) نظرة حائرة. أعرف ما كانت تفكّر: "إلهي، كم هي دميمة، إنها أشدّ ما في المزرعة من دمامة!" ولكنْ، حتّى وإن فكّرتُ فيه، فإنها لم تفصح عنه طبعًا. مستقبلاً لن يعيّرني أحد بالدمامة، صرت زوجة الملك. اكتفتْ بتحيّتي ببعض الكلمات اللطيفة المتداولة. ثمّ سألتْني هل كنتُ متعبة. أجبتُ كلّا، تمّت الرحلة على أحسن ما يرام.

"إذنْ، سنربح بعض الوقت في تعمير بعض الإجراءات الشكلية"، قالت لي.

شرحت لي أن الحريم كان من الضخامة بما يجعل منظومة تسجيلٍ دُنيا أمرًا ضروريًّا، لا سيّما أن الملك لا يعرف إلا النَّزْر الضئيل عن زوجاته المقبلات. سلّمتْني خمارًا -فوجهي لا يمكن أن يراه رجل عدا الملك أو شخصٍ يَأذن له بذلك- وقادتْني إلى مكتب نسَّاخ سليمان الخاصّ، شيخ مُقوّس الظهر (بدأتُ أفكّر أن القراءة والكتابة عمل يُحظَر على القاصرين) بادرني في نبرة عابسة وصوت أخنّ بسؤال لم أفهمه. رجوتُه أن يعيد.

"سألتُكِ هل أنتِ الجديدة؟!" قال صارخًا. ثمّ تدارك أمره، ورحّب بي، وأراد أن يعرف هل يمكن أن يُعدّ لي جذاذة -الروتين- واستمعتُ من جديد إلى حكاية الحدّ الأدنى من التنظيم الضروري لإدارة حريم بهذا الحجم، يحوي هذا العدد الوافر من الزوجات والخليلات. قلتُ نعم، أنا على استعداد لتقديم كل المعلومات التي يريد. اطمأنّ، فنشر على الطاولة الرّقّ -الجذاذة-، تناول القلم، غمّسه في الحبر، وبدأ: "الاسم واللقب".

ذكرتُ هويّتي. ثمّ سألني عن تاريخ ميلادي، ونسبي، وأسماء إخوتي وأخواتي وأقرباء آخرين، وعنوان مراسلتي - أشياء عادية، وأخرى أقلّ، كأغذيتي المفضّلة وألواني الأثيرة. أراد أيضًا أن يعرف هل كنتُ أُحسن الغناء أو الرقص، أو استظهار أشعار. طلب منّي كذلك أن أقصّ عليه آخر حُلم من أحلامي، وإن لم أتذكّر، فبعض هذياني. استجبتُ، فيما كان، وهو جالس إلى طاولته أمامي، يدوّن ذلك بصعوبة. لاحظتُ أنه أساء رسم لفظة "حُلم"، وبعد لحظة تردّد، أريتُه الخطأ.

نظر إليّ كأني قادمة من كوكب آخر.

"تُحسنين القراءة والكتابة؟" سألني مندهشًا.

أجبتُ نعم، وحكيتُ له كيف تعلّمتُ. دوّن ذلك كله في ملاحظة مسهبة، وجعل ينظر إليّ باحترام، وكذلك بنوع من البغض لم يغب عنّي. يمكن أن يواصل النظر إليّ بحنق، قلتُ في نفسي. عمّا قريب، سيتمّ زواجي مع الملك، وسأُخلِّص من هذا العجوز الكابي.

بعد تعمير الجذاذة، اقتُدْتُ إلى قاعة الراهب، عضو السّلّم الأعلى للهيكل، فأدخلني، وأمر رئيسة الحريم بأن تدعنا وحدنا.

- "لا أريد أن يُزعجني أحد"، قال بلهجة حادّة.

ثمّ التفت إليّ، وسألني هل كنتُ أعرف لماذا جيء بي إليه. أجبتُ أني أنتظر تعليمات عن الحفل الذي سيجري في اليوم نفسه حسب ظنّي، رغم أني لم أرَ استعدادات كبرى لهذا الحدث. رمقني، بنظرة استعلاء، وقال لي ليس ذلك بالضبط. كانت مهمّته عكس ذلك تمامًا. كان يريد أن يعرف ما إذا كنتُ أحمل أيّ جرح، أي أثر للدنس - والجذام، يجعل كل من تصاب به ملعونة. وكان لا بدّ أن أتعرّى بطبيعة الحال، ولكني لم أكن أخشى شيئًا، فأنا في حضرة رجل دين، كائن ترك الشهوة منذ مدّة. لم أتردّد -فالأوامر التي تأتي من فوق لا تُناقَش- فخلعتُ فستاني. فَحَصَني من رأسي إلى قَدَمَيّ. لم يقلْ شيئًا، بطبيعة الحال، ولكني كنتُ أدرك ما يجول في ذهنه: "إنها مقدودة كما ينبغي، هذه، سيكون للملك معها وقت ممتع".

تفحّصني مليًّا دون أن يعثر على شيء. ثمّ تذكّر أن من واجبه أن يخلع

عنّي خماري، الذي أبقيتُ عليه، حتّى وأنا عارية، حسب تعليمات رئيسة الحريم. عندئذ ارتجف، ارتجف بشكل ملحوظ، دون أن يُفلح في إشاحة وجهه عنّي.

تقزّزٌ وافتتان، ذانِك ما عكسا انطباعه. تقزُّز من الدمامة، وافتتان بالبقع، ذلك المشكال(*) الجلديّ الذي لم يسبق أن رآه هذا الرجل، وهو في مادّة جروح الجلد، لا ريب أنه موسوعة. جعل يتفحّصها واحدة واحدة، وهو يدوّن ملاحظاته ورسوماته على رقّ. لم أعد أعنيه: ما يهمّه هو ذلك الثؤلول الصغير الذي يذكّر شكله تقريبًا بحشرة، رآها ذات يوم على شجرة قرب بحيرة بالجليل ... كان يتكلّم ويدوّن، يدوّن ويتكلّم. وفي الختام، بعد أن تعبتُ من ذلك كله، رجوتُه أن يعذرني، فلبستُ ثيابي، وخرجتُ، ما مثّل خيبة لديه، إذ إنه لم يتمِّم تدوين ملاحظاته.

اقْتِدْتُ إلى الحريم، وهو فرع من القصر، يفصله عنه صحن ذو نخل ونوافير ماء عذبة الخرير. على غرار القصر، كان الحريم يتجاوز كل ما تخيّلتُ من جهة بذخه. جناح ضخم مزدان بطنافس من الحرير، ونباتات من البلدان البعيدة وزرابيّ طريّة. حتّى الطواويس -تلك الطيور المَزهوَّة بذاتها- من بين الديكور.

وهناك طبعًا توجد النساء. صُدمتُ حين أبصرتهنّ. كنتُ أعرف منذ زمن طويل أن سليمان يملك واحدًا من أكبر الأحرام في العالم، ولكنْ، شتّان بين علم المرء بوجود شيء ورؤيته بعينَيْه. إلهي، كم هو ضخم هذا الخدر! نساء بالجملة، نساء بغزارة، نساء لا يحصينَ عددًا - نساء

(*) Kaléidoscope: آلة أنبوبية، تحتوي على مراءٍ مركّزة، بداخلها أشياء صغيرة ملوّنة، يولّد تحرّكها رسومًا مختلفة الأشكال والألوان.

للبيع وللهبة، فيض من النساء، طوفان أنثوي. نساء قائمات، جالسات أو مستلقيات، يثرثرنَ، يضحكنَ، يبتسمنَ؛ نساء مهمومات، وحتّى (حالة واحدة) باكيات. نساء يأكلنَ، نساء ينفخنَ في الناي، نساء يتنشّقنَ أزهارًا. نساء منزويات؛ نساء مثنّى وثلاثًا أو أكثر. نساء في سَريّة، نساء في كتيبة، نساء في خطّ مستقيم، في حلقة، في شكل مثلّث (متساوي الضلعَينْ أو مختلف الأضلاع)، في شكل مستطيل. نساء مهذارات، نساء جدّيّات، نساء متوتّرات، نساء هادئات. أمّا عن الجمال (كيف لم أُلاحظ هذا المَلمح؟)، فثمّة فاتنات، فائقات الحسن، معقولات الحسن، حسناوات. ولكنْ، لا وجود لدميمات. ولا واحدة حقًّا. لعلّي يمكن أن أصف هذا الأنف أو ذاك بالنقصان، وفمًا ما بعدم الدّقّة، ولكن دمامة كدمامتي، تامّة، ونهائية، فلا أثر لها. كنتُ، لأَسفي، الوحيدة.

كان من السهل التمييز بين الزوجات والخليلات. هؤلاء يلبسنَ بكيفية بسيطة، ويتّخذنَ هيئة متواضعة (قد تكون ساخرة، ولكن التواضع هو المهيمن بصفة عامّة). الخليلات، ربّما تجاهلنَ وجودي، تحفّظًا. ولكن الزوجات تطلّعنَ إليّ باهتمام. لعلّهنّ خشينَ أن تصبح الوافدة الجديدة مَحظية الملك. غير أن نظرة واحدة -وقد خلعتُ خماري)- كانت كافية لإقناعهنّ: كلّا. لستُ عدوّة. في السباق من أجل القلب الملكي، لم أكن في وضع الانطلاق من المركز الأوّل(*) - بالعكس كنتُ بعيدة عن الكوكبة الأولى وحتّى خارج السباق. جعلنَ يضحكنَ مطمئنّات. نظرنَ إليّ، نظرنَ إلى وجهي-من أين طلعت هذه الآفة؟- واسترسلنَ في الضحك. ضحكات قصيرة في البداية، ضحكات وجيزة. ثمّ قهقهة، في شكل شلاّل، بملء الحنجرة - سخرية مهينة، وعدم احترام تامّ. من التضامن،

(*) Pole position: كذا في النّصّ الأصلي، وهي عبارة تُطلق على سباق السّيّارات والدّرّاجات النارية.

وهذا من تحصيل الحاصل(*)، لم يبدُ شيء. "انظروا إلى تلك القبيحة، إنها لم تُولَد، بل خُرِئت!" لو كنتُ رهيفة القلب، لمتُّ، من زمان.

لم أنبس بلفظ. كان يمكن أن أردّ. بل كان يمكن أن أُكسّر وجوه نصف دستة من أولئك الوقحات، لأن ما ينقصني من جمال أملكه عضلات فوق الحدّ، كثيرات ذُقْنَها في القرية. ولكنْ، لم تكن لي نيّة إحداث فضيحة. الآن على الأقلّ. كظمتُ حنقي، وانسقتُ وراء رئيسة الحريم التي حاولت مواساتي بما تقدر: "لا تهتمّي، هنّ حاسدات، لا يُحسِنَّ غير السخرية من الرفيقات". قادتْني إلى غرفة، حيث جاريات كثيرات اعتنينَ بي، وغسلنَني، وألبسنَني كحظية حقّ في الحريم. عندما انتهينَ، طلبت منّي المرأة أن أنظر في المرآة الضخمة الموجودة هناك. تردّدتُ؛ لن أحتمل خيبة جديدة أمام الصفحة الملساء. ولكنها ألحّتْ. "اقتربي، انظري كيف تغيّرتِ!".

وقفتُ أمام المرآة مغمضة العينَيْن. تنفّستُ بعمق، عددتُ حتّى ثلاثة - ونظرتُ إلى نفسي.

حقًّا، كانت مفاجأة. مفاجأة سارّة. البنات قُمن بعمل جيّد فعلاً. الملابس الحرير، وكانت نصف شفّافة، أبرزت محاسن جسدي، وهو، كما أسلفتُ، ليس من أسوأ الأجساد. ثمّ إن ثمّة الخمار، خمارًا سميكًا، يغطّي وجهي، ويصبغ عليّ هيئة محتشمة وجذّابة. لقيةٌ كبرى هذا الخمار.

سألنَني عن رأيي. الطريقة التي توجَّهنَ بها إليّ، أُقِرّ بذلك، كانت ذات احترام فائق - ألستُ إحدى زوجات الملك في نهاية الأمر؟! ...

أجبتُ بأني راضية رضاء تامًّا، وأن ذلك يتجاوز كل آمالي.

(*) Cela va sans dire: بالفرنسية في النّصّ الأصلي.

"حسنًا، قالت رئيسة الحريم، إن كان كل شيء كما ترومين، فلتتبعيني رجاءً إلى الإيوان".

آن الأوان، الأوان الأكبر. وأنا أتبع المرأة على طول الأروقة، وأقترب من قاعة العرش، كان الباقي -حياتي كلها حتّى تلك اللحظة- قد أُقصي إلى الماضي. أبي، أمّي، الراعي الشّابّ، الحجر (مسكين ذلك الحجر) - كل شيء بات الآن ذكرى. وجودٌ جديد يبدأ.

وصلنا أخيرًا. كانت الأبواب الضخمة، المحروسة بجنود مسلَّحين، موصدة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

"علينا أن ننتظر قليلاً"، قالت المرأة.

بعد برهة، كانت لا تُحتمَل بالنسبة إليّ، انفتحت الأبواب، وأطلّ رجل ذو لحية بيضاء، ولباس فاخر. كان واحدًا من الحاشية.

"هذه هي؟ سأل بجفاء".

– نعم، قالت رئيسة الحريم. وصلتْ منذ حين.

وكأن ذلك عادة هنا، تطلّع الرجل إليّ مليًّا. كان واضحًا أنه يريد أن يستشفّ وجهي تحت الخمار. ثمّ ما لبث أن عدل عنه.

"طيّب. هيّا، ادخلا".

دخلنا. كان الملك جالسًا على العرش، مرتديًا تاجًا ومعطفًا مَلكيّيْن.

حين رأيته، ألمّ بي دوار. ترنّحتُ. فاضطرّتْ رئيسة الحريم إلى إسنادي؛ كي لا أقع.

يا له من رجل وسيم، يا ربّ السّماء! لم أرَ أجمل منه قطّ. وجهه ممدود، تُلطّفه لحية سوداء (تغزوها بعض خيوط فضّيّة)، عينان غامقتان، فم ذو شفاه مليئة، أنف معقوف قليلًا -ما يكفي لإضفاء رونق مخصوص- وهيئة رفيعة ومهيبة، وملمح رجولي ... جميل، فائق الجمال.

أحببتُه لأوّل وهلة. عشق مُذلّ، نهائيّ، عشق، أنا واثقة، سوف يوجّه حياتي. تباركت اللحظة التي قرّر فيها أن يطلبني، تباركت الرسالة التي بعث بها إليّ. تبارك الفم الذي أملى كلمات تلك الرسالة، تبارك هذا الرجل، هذا الرجل الوسيم. كان يمكن أن أقضي حياتي كلها في النظر إليه، في نوع من العبادة الصامتة. أخيرًا اكتشفتُ الحُبّ. الراعي الشّابّ؟ كلّا، لم يكن سوى تمرين، تدرُّب. بعده، كان قلبي قد تهيّأ لقفزة العشق الكبرى. وهي الآن طوع اليد.

لم ينتبه سليمان لحضوري، وهو في شغل عنّي، اكتشفتُ ذلك من بعد- بأحد أنشطته المفضّلة: العدالة. أن يحكم في ما هو صحيح أو خطأ، حسن أو سيِّئ؛ أن يقرّر مَن الذي على صواب أم لا. في تلك اللحظة كنّا قبالة امرأتَيْن. قدّرتُ في الحين بأنّهما عاهرتان. لم يسبق أن رأيتُ رصيفيّات(*) في حياتي. هذا الجنس من النساء لم يكن موجودًا في قريتنا. ولو صادف أن جرؤتْ بعضهنّ على تلك الحرفة، فأبي سوف يطردهنّ غاضبًا وهو يلعن الرجس (وربّما حبسهنّ في كهف لمصلحته الخاصّة). ولكني لم أشكّ لحظة في أنّ تَيْنك المرأتَيْن محترفتا جنس. لباسهما وزينتهما المفرطة ... مومستان، أجل، مومستان دون أدنى شكّ. ودميمتان. ليستا في مثل دمامتي، ولكنْ، دميمتان على أيّة حال، ما

---

*) جمع رصيفيّة: مومس تراود الرجال على الرصيف. والكاتب يستعمل لفظة Peripatos التي تحيل على المدرسة المشّائية التي أسّسها أرسطوطاليس.

يحمل على افتراض علاقات ضعيفة وفئة وضيعة. مومستان من فئة "نجمة واحدة"(*)، في أكبر تقدير. وربمّا اثنتان، إن تسامحنا ... طيّب، نجمة للطويلة، واثنتان للقصيرة، ذات العينَيْن الجميلَتَيْن، أي نجمة ونصف في المعدّل. ولكنْ، ليس تصنيفهما هو الذي يهمّ. ما يهمّ أنّ ثمّة هنا، في حضرة ملك عظيم، ملك يملك تكليفًا ربّانيًّا، مومسَتَيْن اثنَتَيْن. تشعران براحة تامّة في القصر الملكي. وتُطلقان زعيقًا، وتتبادلان الاتّهام. بعد برهة من الصراخ، فهمتُ جلية الأمر: كلّ واحدة منهما تزعم أنها أمّ رضيع، وضعه أحد الحرّاس برعونة على ركبَتَيْه. وَلَدتا في الوقت نفسه. أحد الطفلَيْن مات، فحصل لبْس، والنتيجة أنهما جاءتا تتنازعان الرضيع.

كان كل ذلك يثير استغرابي. هكذا إذنْ، الملك الذي يتجشّم إدارة بلاد، يقضي وقته في حلّ "مشاكل خصيوية" لامرأتَيْن سيِّئتي السيرة؟ ولكن سليمان (كم هو وسيم هذا الرجل ...) لا يبدو متقبّلًا لمثل هذه الاعتراضات. وهكذا كانت مومسات وأشخاص آخرون من الطبقة الدنيا، من المعتادين على البيت المفتوح(**) الذي تتحوّل إليه قاعة العرش دوريًّا. كان باديًا أنّ سليمان يجد متعة في ما يفعل. أصغى إلى المرأتَيْن بانتباه، وسألهما ثلاثة أسئلة أو أربعة (أسئلة مبتذلة في رأيي، ولكنْ، مَنْ أكون حتّى أُبدي رأيي في الابتذال ...)، ثمّ لزم الصمت، مغرقًا في التفكير. أحسستُ ساعتها -والجميع أيضًا حسب ظنّي- أن شيئًا يحدث حقًّا. كان ثمّة تحوّل. كان الهواء كثيفًا، ثقيلًا، كأنه مُفعَمٌ ببخار لا يُرى. كانت تلك حكمته. كان يزفر الحكمة من كل مَسامّه، ويُشبعنا

---

*) إشارة إلى تصنيف الفنادق.

**) Open house بالإنكليزية في الأصل.

بها. ما يخلق إحساسًا شاذًّا، نوعًا من الدغدغة، انطباعًا غريبًا. إحدى المومسَتَيْن، ذات النجمة الواحدة، كانت تحرث فخذَيْها بأظفارها الحادّة. كل ذلك يُنبئ بما هو منتظر: الحكم الذي أصدره سليمان بصوته الجهوري المعتدل (إلهي، أي رغبة يولّد فيّ ذلك الصوت! كانت بثرتي تتموّج كلها). في البداية، دوّى القرار بشكل مفاجئ، وحتّى قاسٍ: بما أنه يستحيل حلّ المسألة لمعرفة مَن هي الأمّ الحقيقية، فسوف يُقطع الطفل نصفَيْن، وتأخذ كل امرأة نصفًا. ارتجف الجميع، وتبادلت الحاشية النظرات، وسمعتُ واحدًا منها، يهمس لجاره: "الحال ليست على ما يرام، هذا الشخص يتذكّى! لن يمرّ هذا بسهولة في الخارج!" ولكن سليمان، بكل ثقة في النفس، نادى أحد الحرّاس لتنفيذ الحكم. تقدّم الرجل، والسيف في يده. لحظة توتّر، توتّر أقصى - تجمّد الجميع، وكتموا الأنفاس، فيما رفع أحد رجال الحاشية يده أمام عينَيْه. إحدى المرأتَيْن - ذات النجمَتَيْن - تيبّستْ في صمت، كأنها تؤيّد الحكم. ولكن الأخرى قابلتْه بشكل مذهل. جرت نحو الحارس، وتشبّثت بذراعه التي ارتفعتْ للضرب، وصرختْ بصوت مخنوق: "إن كان ابني سيُقتل، فلتمنحوها إيّاه!" صدمة كبرى عبرت الحضور. نهض سليمان.

"توقّف!" صاح في الجندي الذي ثبت كأنه جامد. ثمّ اتّجه إلى المرأة التي صرخت، وقال: "أنتِ الأمّ الحقيقية. الصرخة التي سمعناها هي صرخة أمومتكِ. هذا الطفل طفلكِ، يمكنكِ أن تأخذيه".

ارتسمت ملامح الخيبة على الجندي، (فمشروعه الفوريّ بقتل رضيع في اليوم نفسه سقط في الماء)، ومدّ الطفلَ إلى أمّه، فيما كان الجميع يهتفون: تصفيق، صياح، تصفير، هذيان حقيقي. أمّا الملك، فكان

يبتسم ابتسامة ارتياح. وحقّ له أن يفخر؛ فقد قدّم للتّوّ دليلاً ملموسًا على حكمته. وهي حكمة، سوف يروج صيتها عبر العالم، وتجعل منه أسطورةً حيّةً، ملكَ الملوك.

أمام هذا الملك وقفتُ. كان واضحًا أنّ بإمكاني أن أتساءل هل ما رأيتُه هو حقًّا دليل حكمة. هب أن المرأة التي تبيّن أنها الأمّ ظلّت خرساء من شدّة الرعب، فماذا سيكون من أمر هذه الأمومة المزعومة؟ أيّ لجوء لديها حينئذ غير قبول الحكم، وترك الجندي يقسم الطفل نصفَيْن؟ ولن يحلّ هذا العمل الهمجي المشكلة. فالملك سيضطرّ إلى تخيّر أي النصفَيْن يؤول إلى كلتا المطالِبَتَيْن. حتّى وإن كان القطع طوليًّا، فلا شيء يضمن التناظر: سوف يبقى الكبد في ناحية والطّحال في الناحية الأخرى -مثلاً -، دون الحديث عن نصفَيْ المخّ اللّذَيْن لا يتساويان أبدًا.

ولكن ذلك كله ليس سوى فرضية. ما هو ثابت، أنّ سليمان نجح كُلّيًّا، وأكّد شهرته كملك حكيم وعظيم، يتمتّع بقوى خارقة، وذلك ما يقال في قريتنا، وفي قرى أخرى كثيرة. بقوّة إرادته وحدها، كان بإمكانه أن يتنقّل فورًا في أيّ جهة من العالم. كان يفهم منطق الطير، تلك الكائنات الأكثر حيويّةً وتعلّمًا من بين المخلوقات. وبفضل خاتمه -ذي الأحجار الكريمة الأربعة التي ألمحها عن بُعد- كان يوجّه قوّة الرياح واتّجاهها. أمام هذا الملك، هذا الرجل الذي يبلغ جماله الحدود الممكنة، مثَلْتُ أنا، زوجته الجديدة. عمّا قريب سأنضمّ بين هاتَيْن الذراعَيْن، عمّا قريب سأضع وجهي على ذلك الصدر، عمّا قريب سألثم هذا الوجه، وتلك الشفاه، عمّا قريب سأسمع هذا الصوت يهمس في أذني: "تعالي، يا عصفورتي، تعالي إلى عشّ الحُبّ". كنتُ هناك، أنتظر اللحظة

الحاسمة التي ستقسم حياتي شطرَيْن، شطرًا بلا أهمّيّة، خشنًا وقاسيًا كحجارة الجبل (لم يكن ثمّة غير استثناء وحيد، نُسي)، مضغة حياة، لم تكن سوى استهلال فقير ومتفجّر لسيمفونية الحُبّ، والآخر، الحقّ، الوجود المشرق الذي سيبدأ بعدَ... كم دقيقة؟ عشر دقائق، خمس، دقيقة واحدة؟

لم يزل سليمان منشغلاً. فاليوم يوم جلسة عامّة، والإيوان يعجّ بالناس، أناسٍ متواضعين في معظمهم. كان سليمان يقيم بمهارة تنازلًا أسبوعيًّا للشعبوية، فيُسوّي قضايا تافهة، خصومات عائلية، جدال حول ملكيات، فيما أنا أنتظر في ركني، متوتّرة.

انتهى أخيرًا من استشاراته. كان بادي الإعياء، ومغتاظا أيضًا، وهذا ليس غريبًا بعد هذه الأجندة المرهقة. وهو يطلق أنّة -لم يعد شابًّا، ولا ريب أنه يشكو من أوجاع في ظهره، فلا أحد يستطيع أن يقضي يومًا كاملاً دون تبعات وهو جالس، حتّى ولو كان على عرش بديع-، نهض، وهمّ بالخروج حين اقترب منه أحد جُلّاسه، وهمس في أذنه بعض كلام. كانت ردّة فعله الأولى، لاحظتُ ذلك بوخزة في القلب، تبرّمًا، فاستسلامًا، ولكنّه تبرّم على أيّ حال.

"وصلتْ؟ في هذا اليوم، رغم كل هذا الصخب؟"

وتنهّد.

"طيّب. حسنًا. أين جذاذتها؟"

الجذاذة؟ الجذاذة أوّلًا؟ وأنا الماثلة هنا تنتظر، أنا الزوجة القادمة من

بعيد، أنتظر، أمّا هو، فيودّ الاطّلاع على الجذاذة أوّلًا؟ قد يكون في هذا ضربة لكل امرأة أخرى، ضربة مدمّرة. ولكني -يا لقدرة الدميمات الكبيرة على إيهام أنفسهنّ- توصّلتُ إلى إقناع نفسي بأن تلك هي الإجراءات المعتادة. سبعمائة زوجة، وثلاثمائة خليلة: من حقّه أن يحصل على بعض المعلومات المسبَّقة بخصوص الجديدة التي ستلتحق بحريمه (الاسم، العمر، النسب، الأصل ... شيء من هذا القبيل). علامة واضحة، رغم كل شيء، على أن حياته الزوجية صارت رتابة مملّة. وعدتُ نفسي لحظتها بأنّ حياته معي ستكون مختلفة. معي، ستنتهي الرتابة، معي سيكتشف الحُبّ. فليعرف ما يخصّني، وليحفظ المعطيات المعتادة، ولكنها ستكون آخر تنازلات للمنمّط والمشفّر والمقنّن ... في وقت وجيز، سيحمله إعصارُ عشقي، وتتحوّل حياته إلى فوضى مرتجّة، وسعادة مجنونة.

"الجذاذة! صرخ جليسه. بسرعة! الملك يريد أن يرى جذاذة الجديدة!".

من وراء العرش برز، بمرونة مفاجئة، ذلك النّسّاخ العجوز الذي تحدّثت إليه من قبل. مثل عفريت سريع، قدّم الرّقّ للملك - "هي ذي الجذاذة، يا ملكي"-، فيما أنا، وضيقي مستور لحسن الحظّ تحت الخمار، أنتظر واقفة على مسافة خمسة أمتار من العرش. قرأ سليمان الوثيقة مقطّب الحاجبَيْن. المشكلة طبعًا هو أن يتذكّر. أن يتذكّر سبب حضوري، يتذكّر الصفقة التي كانت منطلقًا له. ولم يبدُ ذلك بالأمر اليسير. يبدو أن ما يملكه بوفرةٍ من جهة الحكمة، يعوزه من جهة الذاكرة. أدرك الجليس ما يجري، فدنا من الملك، وهمس له في أذنه. وإذا بوجهه يضيء:

"آه، رجل الصحراء ذاك ... صحيح، عقدتُ تحالفًا معه. متى كان ذلك؟ منذ عامَيْن أو ثلاثة ..".

كانت نبرة تعجُّب. تعجُّب متوتّر، ولكنْ، متسلٍّ.

"الآن فقط يرسل إليّ ابنته؟ بعد كل هذا الوقت؟ إلهي، يمكن أن نتّهمه بأيّ شيء، إلا بالعجلة ..".

جعل أفراد الحاشية يضحكون، كما يفرض عليهم دورهم. وبعد أن استراح سليمان إلى طرفته، وعاد للجلوس على العرش مدّ الرّقّ للنسّاخ، واستدار مبتسمًا نحو الزوجة التي تلقّاها حديثًا، يعني نحوي أنا.

كانت تلك هي اللحظة الحاسمة، أحسستُ برجلَيّ ترتخيان. بدأتُ أرتعد، وأتفصّد عَرَقًا، وإن لم يُغشَ عليّ، فلأني في الواقع قوية. لم يلاحظ شيئًا. لم يبدُ عليه اهتمام خاصّ. هي زيجة إضافية، بعد عدد من الزيجات الأخرى. اكتفى بإلقاء نظرة متسائلة نحوي:

"هي ذي، زوجتي الجديدة؟ اقتربي، كي أراكِ بصورة أفضل ..".

جمعتُ كل طاقتي، وتوصّلتُ إلى القيام بخطوة تجاهه.

"اقتربي أكثر - ألحّ متلهّيًا -، لن أعضّكِ".

ضحك في خبث:

"وبالأحرى، بلى، سأعضّكِ، ولكنْ، ليس الآن".

ضحكت الحاشية... جميلة، سيعضّ، ولكنْ، ليس الآن، جميلة،

جميلة جدًّا. أمّا أنا، فلم أكن أسمع شيئًا، أو أرى شيئًا، لم يكن لي عينان إلا لذلك الرجل الوسيم، كل ما أريده في ذلك الوقت، أن أسلّم نفسي بين ذراعَيْه، وتخور قواي بفعل عشق صاف. ولكنّه لم ينتبه لهذا العشق، فقد لاح فاتر الهمّة، بسبب بيروقراطية إجراءات زواج أشبه بنظام العمل المسلسل من أيّ شيء آخر. نظرته، وهو يتفحّصني، لم تكن نظرة عاشق أو خطيب، وحتّى واحد من قدماء الزواج. كانت نظرة خبير، نظرة مزواج(*). ما كان بصدد فعله هو تقويم. بطبيعة الحال، ليس تقويم أصحاب الضِّياع الذين يقصدون سوق الدّوابّ لشراء البقر والغنم. كلّا، كان له من رفعة الذوق ما يربأ به عن ذلك، بل كان له بعض اللطف في تلك النظرة؛ ولكنه قوّمني رغم ذلك، وتفحّصني من رأسي إلى قَدَمَيّ. الواضح أن ما رآه لم يسُؤْه. هي مقدودة جيّدًا، كذلك فكّر دون ريب. كنتُ أتمنّى أن يكتفي بذلك، أن يقصر تشخيصه على عنوان الانحناءات. وإذا هو يطلب منّي، كما لو قالها عرَضًا(**)، أن أسحب خماري.

آه، لِم يفعل هذا، لمَ؟ هكذا إذنْ، أحكَمُ الفانين، الرجلُ الذي يكلّم الطير، لا يعرف أنّ ثمّة أسرارًا لا ينبغي إشاعتها، وخُمُرًا لا يجوز سحبها؟ لا شيء يمنعه من تركي ألتحق بالحريم بخماري، بل إن ذلك قد يضفي نوعًا من السِّحْر -والرفعة- على تشكيلته النسائية: "هذه سأُسمّيها "الغامضة"، لأني لم أرَ وجهها قطّ، ولكني أحبّها كذلك، أحبّها بجنون، أحبّها أكثر من سواها، لأن الحُبّ الحقّ هكذا يكون، لا يهتمّ بالمظاهر". ولكنْ، لا، كان لا بدّ أن يخضع لإغراء التفاهة: البضاعة التي تسلّمها،

---

*) بالإنكليزية في الأصل Serial husband وتعني حرفيًّا "الزوج المتسلسل" على غرار القاتل المتسلسل Serial killer.

**) بالفرنسية في الأصل En passant وتعني في ما تعني بلا اتّفاق، ودون إلحاح.

يريد أن يتفحّصها كُلّيًّا[*]. تخلّى عن صفته الملكية، ليتصّرف كتاجر عاديّ. أثار ذلك فيّ غيظًا كبيرًا. رغبتُ في الاعتداء عليه، في الارتماء فوقه صارخة: "أفسدتَ كل شيء أيّها الأبله! تعتقد أنكَ حكيم، وأنتَ حكيمُ غائط! أنتَ أحمق وسُوقيّ!" بيد أني لا أستطيع أن أسلك سلوكًا كهذا. هو الملك وأنا الزوجة المطيعة، زوجة مطيعة أخرى. بحركة عنيفة، أزحتُ الخمار، وعرضتُ وجهي.

ارتجف. مثل الراهب الذي فحصني من قبل، ارتجف لوقع المفاجأة، المفاجأة، والاشمئزاز، وكل شيء. تعبير وجهه يعكس بوضوح ما كان يفكّر فيه، ويفكّر فيه الجميع: "إلهي، ما هذا؟ ما هذا الرأس؟ هذه المرأة لا يمكن أن تكون منذورة للحريم الملكي، لا شكّ أن ثمّة خطأ".

غير أنه تمالك. فما من أحد صار ملكًا عظيمًا دون حدّ أدنى من المهارة السياسية. كان أمام الحاشية، وكان لا بدّ أن يحافظ على صورة الحاكم المتجرّد، المتّزن، المتعالي على الاعتبارات الدنيوية. لم يصدر عنه تعجّب ولا تعليق. اكتفى بمناداة جليس حذوه. وتبادلا بضع كلمات بصوت، يكاد لا يُسمع، ولكني حدستُ ما يقولان: "هذا منافٍ للعقل! كيف يمكن لذلك الرجل أن يبعث إليّ بمثل هذا المخلوقة؟ هذه ليست امرأة، إنها شتيمة!" فيردّ الجليس مُحرَجًا: "هي البنت الكبرى، والرجل لم يفعل سوى احترام ما اتّفق عليه ..".

ظلّ برهةً صامتًا، كئيبَ الوجه زائغَ النظرات. ثمّ التفت إليّ مغيظًا في الظاهر، ودون أن ينظر إليّ، اعتذر عن عدم استطاعته استقبالي بكيفية أكثر ملاءمة - فهو مرهق. غير أني سأحلّ بالحريم، ومن الغد، أو بعد يومَيْن أو ثلاثة، فالأمر متعلّق برزنامته، سوف يجيء في طلبي.

*) وردت في النّصّ الأصلي باللاتينية in totum والفرنسية au grand complet.

"أريد أن أقول لكِ إنّكِ حللتِ أهلًا هنا، استحضر محاولًا أن يتّخذ هيئة ودّيّة، تليق بعواطفي، شأن الزوجات الأخريات على أيّة حال، أولئك اللاتي سوف تتعرّفين إليهنّ الآن. هنّ عديدات، ولكنْ، ثقي بأن لكل واحدة منهنّ مكانًا في قلبي. ومكانًا خاصًّا لكِ أنتِ، بطبيعة الحال".

بإيجاز، الخطاب المعتاد، على هذه الدرجة من التكرار، يَستحضره بشكل آليّ. لم يحضنّي بين ذراعَيْه، ولم يقبّلني - نظام التشريفات الرسمية لا يرغمه على ذلك -، غير أنه نجح في توجيه ابتسامة نحوي، نصف ابتسامة، ابتسامة رجل مُقسَّم بين الاشمئزاز والرغبة في أن يكون لطيفًا. وهذا ليس غريبًا، لأن القسمة ("أيّها الجندي، اقطعِ الطفل نصفَيْن!") كانت صيغة غالبًا ما يلجأ إليها، بتوفيق دائمًا. كان يقسم ويستولي. يقسّم نفسه، ويستحوذ.

دنا جليس، وأعلن أن المقابلة انتهت. ركع الجميع. نهض الملك سليمان، وبعد تحية تكاد لا تُدرك، خرج من الباب الجانبي الذي يقود مباشرة إلى خدره.

خيّم للحظةٍ سكون. نظرتُ إلى جلاّسه. بعضهم كان واجمًا بصدق. وبعضهم الآخر، بالعكس، كان يبدي ابتسامة تكاد تكون ساديّة. وأنا، هناك، في تلك الزينة الفاخرة بعبثية، والخمار لا يزال بيدي - ماذا أفعل؟ ماذا أنتظر؟ أخيرًا اقترب منّي أحد الجلاس، وقال لي إنّ بإمكاني الانسحاب إلى خدور الزوجات، فلا شكّ أني متعبة بعد هذه الرحلة الطويلة.

لم أكن أسمع ما يقول. ما عاد ذلك يهمّني. كنتُ أنظر إلى العرش.

تمامًا كباقي ما في القصر، كان العرش رائعًا، كلّه من العاج ومن الذهب. أقيم في أعلى مدرج (دستة درجات، واحدة لكل قبيلة من قبائل إسرائيل) مزدان بأسود منحوتة كانت رؤوسها، في غياب الملك، تتحرّك ببطء، من أعلى إلى أسفل، ومن اليمين إلى الشِّمال، كأنها تحذّر أيّ شخص يجرؤ على الاقتراب منه، دون أن يُدعى إليه: "لهذا العرش سيّد، لا تطمع فيه وإلا افترُسْتِ!" كانت تلك الأسود مشهورة. يجري الحديث عنها حتّى في قريتنا؛ "سوف تفترسكَ أسود سليمان" كان تهديدًا دارجًا، ترفعه الأمّهات في وجوه الأطفال الذين يعصون أوامرهنّ. يقال إنها مخلوقات غير عادية، وُلدت من سِحْر سليمان. إلا أني اكتشفتُ فيما بعد أنها ليست سوى آلات. لتحريكها، كان ثمّة عبد مختبئ بسرداب، يشغل مسنّنات، صنعها سليمان بنفسه. لا أدري هل كان يكلّم الطير؟ ولكن موهبته في الميكانيكا، خصوصًا ميكانيكا الإيهام، كانت حقيقيّة بالتأكيد.

تطلّعتُ إلى العرش بمرارة متنامية. وفجأةً، صعدتُ الدرجات مدفوعة بحنق مباغت، أو يأس. ولكنْ، قبل أن أصل إلى الأعلى، أمسكني واحد من الحاشية، وأنزلني بقوّة.

"يا امرأة، أنتِ مجنونة؟ صاح فيّ مهتاجًا. تريدين الجلوس على عرش الملك - هل فقدتِ عقلكِ؟".

ذلك ما أردتُ، أن أجلس على عرش سليمان. الوصول إلى سدّة الحكم محاولةٌ مشطّة، غير عدوانية ومثيرة للسخرية. لم تكن ذاتي التي أردتُ أن أُنصّبها على العرش، بل دمامتي. أردتُ أن تُتملّق وتشرَّف وتُمجَّد. أردتُ أن تُصدِرَ الدمامة الأوامر، وأن تُصدِرَ الأحكام -"اقطعوه

نصفَيْن"- وتُلقي المحاضرات، وتُطلق الريح من أعلى إستها. أردتُ أن تحكم الدمامة كما يحكم سليمان. أردتها مُعتَرَفًا بها، مُحتفى بها، معبودة. أردتُ الدمامة عظيمة إلى حدٍّ، تصبح معه جمالًا.

ولكن هذا الانقلاب الصغير لم يكن يمثّل سوى جزءٍ من غايتي. في الحقيقة، أنا أحبّ سليمان، أحبّ رجلي. وبما أني لم أستطع احتضانه بين ذراعَيّ، ولا تقبيله، أردتُ على الأقلّ أن أجلس في المكان الذي كان جالسًا فيه. أردتُ أن أحسّ بالدفء الذي تركه على المقعد. أردتُ أن ينفذ الفَوح الخفيف إليّ، أن يلقّحني، ويخصبني، ولو مجازًا. ذلك الدفء الخفيف كان سليمان. هو جزء من هالته، هالة سِحْرِيَّة تنتشر في أبعاد تبلغ الأصقاع الموغلة في البُعد. كنتُ أريد أن أدور في فلكها، في جوّها الحارّ، حتّى وإن ذبتُ. سوف أعدل عن ذاتيتي، نعم، سوف أتفكّك إلى جُزَيئات، إن كانت تلك الجزيئات، وقد كدّرتْها حرارة سليمان، ستموّج في تناسق معه.

الجليس، الذي لم يكن هنا للاستجابة لآمال بمثل هذا التعقيد، أنزلَني من المدرج، وسلّمني إلى رئيسة الحريم. دون احتفال -فقد بدا للجميع الآن أني لستُ خيرَ مؤهّلةٍ لأكون مَحظية الملك-، قبضتِ المرأة على ذراعي، وبالأحرى جرّتْني على طول الأروقة في اتّجاه مخدع الزوجات. فتح الحرّاس الأبواب.

"هو ذا مقامكِ الجديد، قالت المرأة في نوع من السخرية. هنا ستقضّين بقية حياتكِ".

قاعة واسعة مُحلاّة كلها بالستائر، والطنافس، مزدانة بمزهريات

مملوءة أزهارًا ومُضاءة بعدّة مشاعل. في صفّ مستقيم عشرات من الأَسِرّة المريحة، مرقّمة من واحد إلى سبعمائة (مرّة أخرى تنظيم محكم). كانت النساء كلهنّ هناك؛ بعضهنّ مستلقيات؛ وبعضهنّ يخضعنَ لعناية الجواري، وأخريات يثرثرنَ في مجموعات صغيرة. أخذ الصمت يسري كلّما تقدّمتُ خطوة في القاعة الفسيحة. صمت معادٍ، كاره، صمت ساخر وذاهل، ذلك الصمت الذي تعوّدتُ عليه. الحُبّ يُنْطِق، ويقتلع صيحات الإعجاب المتحمّسة. الدمامة تُخْرِس.

"ستكونين هنا"، قالت رئيسة الحريم وهي تُريني فراشًا. نظرت إليّ كأنها تنتظر اعتراضًا. غير أني اخترتُ استراتيجية أخرى: سأتصرّف كأنّ كلّ شيء سار كما كان متوقّعًا، كأني أشغل المكان الذي أستحقّ بوصفي زوجة سليمان. وهكذا جعلتُ أمتدح الفراش، والحقّ أنه كبير ومريح. وإذا بي أرى على البلاط المرمري فردتي مَداس. سألتُ لمَنْ هما.

"هما للمرأة التي كان ترقد هنا، قالت رئيسة الحريم بنبرة لامبالية. المسكينة ماتت".

وأضافت بابتسامة ساخرة، تشي بحنقها، ابتسامة مَنْ تهتمّ بترتيب الأَسِرّة، ولا تملك حقّ التّمدّد عليها:

"هنا أيضًا، نموت".

كانت تلك قطرة الماء التي أفاضت الكأس، طَفْح حرمان مرير. لِم يتوجّب عليّ أن أنال فراش ميتة؟ لِم يتوجّب عليّ أن أنام؛ حيث حلمت امرأة أخرى (وأنا أعرف بالضبط بما تحلم. جسد سليمان، قُبل سليمان)؟ لِمَ ينبغي عليّ أن أرث أوهامًا سرعان ما تزول؟ لمَ ينبغي أن

أعيش بإحساس النهاية، مع الوعي المؤلم بزمن سوف ينتهي - دون أن أبلغ ذراعي سليمان؟ لِمَ لا أُعطى في الحال تابوتًا أو أيَّ صندوق جنائزي؟ لِم لا يُقضى عليّ في الحين؟

بدأتُ أنشج في خفوت. النساء، ولا بدّ أن أعترف بأنهن كُنّ في هذا المجال لطيفات، تظاهرنَ بكونهنّ لم يلحظنَ شيئًا. كانت رئيسة الحريم ترمقني في صمت ويداها على خاصرَتَيْها. عندما هدأتُ، تظاهرتْ بالانصراف، فأمسكتُها. وهي تكظم نفاد صبرها بصعوبة، سألَتْني أما زلتُ أريد شيئًا ما. نعم، ما زلتُ أريدُ شيئًا. كنتُ أريد أن أعرف متى يتمّ الزواج. فتحتْ عينَيْها على وسعَيْهما.

مكتبة
t.me/soramnqraa

"الزواج! أيّ زواج؟

– زواجي بسليمان ... قلتُ متلعثمة. متى؟

غلبتْها ضحكة، لم تقاومْها.

"ولكنكِ تزوّجتِ، يا عزيزتي. منذ اللحظة التي دوّن فيها النّسّاخ المعلومات التي تخصّكِ على الرّقّ، صار زواجكِ أمرًا مَقضيًّا. أنتِ الآن زوجة ملك".

هكذا إذنْ: كنتُ متزوّجة. لا عرس ولا مأدبة - ولكنْ، متزوّجة. هل كان ذلك شأن كل النساء هنا؟ احتمالًا لا. أكيد أن زواج بعضهنّ، أو كثير منهنّ، رافقته احتفالات، وعلى الأقلّ حفل صغير. ولكنْ، مَنْ أكون كي أستحقّ الاحتفالات؟ الدميمة ابنة بطرك قرية بعيدة لا تبرّر بذل الجهد وإنفاق الأموال والطاقات.

"مِنَ الآن، واصلت المرأة، سيكون عيشكِ كعيش سائر الزوجات. تنهضينَ في الصباح - باكرًا، لأن الملك لا يحبّ المرأة الكسول. تقومينَ بحركات رياضية، لتحافظي على جسد شابّ ورشيق. ثمّ تأتي جارية لغسلكِ وتسريحِ شعركِ وإلباسكِ وتزيينكِ. تتناولينَ وجبة - سيكون أكلكِ مُراقَبًا بصرامة - وتنتظرينَ.

– أنتظر ماذا؟

كان في سؤالي قلق - قلق لم أستطع أو لم أشأ إخفاءه. أمّلتُ أن تُعدى المرأة به، أن تشاركني حيرتي، وتواسيني قائلة: "الملك يحبّكِ، طالما أحبَّكِ، وحلم بكِ، أنت المرأة التي تتجلّين له في رؤاه الأكثر إشراقًا؛ هو يعلم بوجودكِ قبل ولادتكِ، لأنكِ في الواقع نتاج سِحْرِه. هو الذي جاء، من ألف مكان في الأرض، من الهباءات التي تجمّعت في رحم أمكِ؛ لتهبكِ الحياة!" إن كانت حدست أن تلك هي الإجابة التي أنتظرها، فإنها لم تُبد منها أثرًا: لم تكن من النوع الرفيق المتفهّم. اكتفت بأن أردفت، في مزيج من المفاجأة والانزعاج:

"تنتظرين ماذا؟ تنتظرين حتّى يدعوكِ الملك، يا للطرفة! أنتِ الآن تعيشين للملك، ولا شيء لغير الملك. الباقي لا قيمة له".

تظاهرتْ مُجدّدًا بالانصراف، ولكني أمسكتُها في آخر محاولة يائسة:

"ومتى سيدعوني؟"

هزّت كتفَيْها.

"ومن أين لي أن أعلم؟ لا أحد يعلم، يا صغيرتي. سيدعوكِ الملك

حينما يشاء، حينما يفكّر فيكِ. قد يكون غدًا، أو الأسبوع القادم، أو بعد عشر سنوات ... أنتنّ عديدات، تعرفين ذلك ... سبعمائة زوجة، ثلاثمائة خليلة، علاوة على الإضافيات ... وهذا كثير. الملك نفسه لا يكون دائمًا على ما يرام ..". وضحكت. "هو عظيم، يكلّم الطير ... ولكنه في النهاية ليس سوى رجل، وأنتِ تعرفين كيف ... رغبته ليست رغبة لا حدود لها ..".

أرادت الانصراف من جديد، فأمسكتُها: كان السؤال حاسمًا هذه المرّة، يعبّر عن أكثر الشكوك التي انتابتْني حرجًا.

"هل يمكن -استبدّ بي جزع، صعد إلى صدري، جزع لا يُحتمل- ألاّ يدعوني البتّة؟"

أطرقتْ بضع لحظات، كانت تستطعم خلالها عذابي دون شكّ. ثمّ أجابت، وعلى وجهها بسمة خافتة، تكاد لا تُرى - بسمة ماكرة جدًّا:

"همم ... أظنّ أن هذا لم يحدث قطّ. ولكن حدوثه ليس مستحيلاً. لا لسبب إلا لأن ..".

أحجمتْ. ولكني كنتُ أعرف نهاية تلك الجملة: "لا لسبب إلا لأنكِ دميمة جدًّا، والدميمات لهنّ مصير غير مضمون". بيد أن المرأة لم تكن غبية. أنا زوجة الملك، أي أن لي نفوذًا -فُتات نفوذ، ولكنه نفوذ- وهي لا تريد أن تكون لها مشاكل. كانت قد بلغت حدًّا خطيرًا. الأفضل ألاّ تبالغ في المزح معي. إن كنتُ في لحظة جنون قد صعدت درجات العرش، فربّما، إن ملكني الجنون نفسه، أرتمي عليها. اختارت إذنْ تشجيعي. وهي منحنية فوقي، همست في لهجة، أرادتها ودّيّة ومتضامنة:

"لا توتّري أعصابك، يا عزيزتي، الملك سيدعوك".

حيّتني، وخرجتْ. وسرعان ما أقبلت جاريةٌ: كانت قد جاءت لإعدادي للّيل. حاولتُ أن أسأل، فهزّت رأسها دلالة على أنها لن تجيب. فتحتْ فمها، وأرتْني السبب: قطعوا لسانها. ربّما لأنها تكلّمت فوق اللزوم، أو كشفت بعض أسرار الحريم. ما يجري هنا لا ينبغي أن يخرج من القصر. في صمت، غسلتْني البنت، وسرّحتْ شَعْري، وخلعتْ ثيابي، وألبستْني قميص نوم، وساعدتْني على الاستلقاء، وانصرفتْ. انطفأتِ المشاعل، وغاصتِ القاعة في الظلام.

رغم أني مجهَدة، لم أستطع أن أنام، بسبب الوشوشة والضحك الخفيف والكلام المهموس. نساء يتحدّثنَ فيما بينهنّ. وهنّ جالسات على أسِرّتهنّ، كنّ يتبادلنَ الآراء والانطباعات. عمّ يتحدّثنَ؟ نعم، هه، عمّ؟ عمّ يمكن أن يتحدّثنَ سوى عن حدث اليوم: قدوم الجديدة؟ الدميمة كانت موضوع كل التعاليق المقتضبة وحتّى العدوانية: "إلهي، لا بدّ أن الملك في درك وضيع؛ كي يرضى بامرأة مماثلة! لم نرَ هذا قطّ، هذا يحطّ فعلًا من مستوى الحريم! والحال أنه كان يضمّ خير مجموعةِ نساءٍ في الشرق الأوسط!".

لم أُغمض عينَيّ كامل الليل. ثمّ طلع الفجر أخيرًا، وسمعتُ أُغنيّةً آتية من بعيد، أُغنيّةَ قرويةٍ ذاهبة لحلب أبقارها. كانت أُغنيّة بسيطة، شجية حتّى إنها انتزعت دموعًا صادقةً من عينَيّ. بكيتُ طويلًا، ورأسي في الوسائد. أحسستُ بنفسي أحسنَ حالًا، جاهزة لمواجهة قَدَري بخضوع.

كما قالت لي المرأة، لم يكن ثمّة شيء يُذكر نفعله داخل الحريم.

يمكن أن نأكل، ننام، نستحمّ، نتفسّح في الحديقة - حديقة جميلة ذات أزهار كثيرة ونوافير يُسمع لها خرير. آه، يمكن أيضًا أن نتحدّث ... ولكنْ، لا أحد يتحدّث معي: النساء كنّ ينظرنَ إليّ دائمًا بكيفية غريبة. هكذا انقضى نهاري الأوّل. لم يَدْعُني الملك.

من الغد، لم يدْعُني أيضًا. ولا في اليوم الثالث ولا الرابع. بدأتُ أتحيّر، وأتوتّر. "ما هذا الزواج الأهبل؟" تساءلتُ، لأنه كذلك في نهاية الأمر. زواج شكليّ، زواج بلا احتفال، لم يكن من ورائه غير قبول انخراطي في شركة النساء الملكية، ولكنه زواج على أيّ حال. ليس من الشطط في شيء أن أنتظر من الملك، زوجي، أن يقوم بواجبه الزوجي. صحيح أني كنتُ آمل في شيء أكثر من القيام بواجب أو أداء مشرّف في الفراش. أمّلتُ أن أعيش لحظات افتتان وسِحْر. أملٌ على قدر سذاجتي وقلّة خبرتي. ماذا أعرف عن الجنس؟ لا شيء. ماضيّ كله في هذا الشأن يتلخّص في أحلام. ومن الناحية التطبيقية في الاستعمال الوحيد للحجر، وأنا أذكره الآن في نوع من الحنين. حياتنا الجنسية، أنا والحجر، كانت مرضية قدر الإمكان. لعلّ الحُممة التي تدخل في تكوينه -هو حجر بركانيّ- تحتوي على رواسب دقيقة متحجّرة لحيوان ثديي أو زاحف، وربّما حشرة، فاجأها هيجان البركان في اللحظة التي كانت تستعدّ فيها للإخصاب. آخر اندفاع لتلك الحيوات التي أوقفت بغتة كان بكيفية أو بأخرى محفوظًا في المعدن كمصدر رهيف، ولكنه دائم لطاقة شبقية. تلك الطاقة، إذ تُجنّد وتتجمّع عن طريق حركة إيقاعية، قد تطلق نشوة جماع مباغتة ومتفجّرة، لا تزال حتّى اليوم تشكّل خبرتي الوحيدة التي لا تمّحي، في مادّة الجنس. سليمان، سليمان الوسيم، سليمان الأبيّ، قد يكون أفضل من الحجر الملغز. عند الحديث عن الحكمة، أفهم

أنها علم تامّ، يشمل كل المعارف ومراس الحياة. ما يعني بالنسبة إليّ، بلغة الجنس، أنّ له مجموعًا كاملًا من الدراسات الجامعية، مع التّخصّص، والأستاذية، والدكتوراه. لا شكّ أنه أحد المدرّبين على فنّ الحُبّ العجيب، ليس بفضل مراسه الواسع فحسب (سبعمائة زوجة وثلاثمائة خليلة، ليست أيّ شيء)، وإنما أيضًا بفضل المعلومات التي يحصل عليها - لماذا كان يتحدّث إلى الطير، أولئك المسافرين الذين لا يعرفون التعب؟ جاءتْه أنثى خُطاف، وقالت له: "عزيزي سليمان، لا تتصوّر ما يمارَس في الشرق من وضعيات! ينبغي أن نتحدّث في هذا!" دنا منه غراب، وأسرّ إليه: "سليمان، أعرف راقيًا يصنع عقّارًا مثيرًا للشهوة لا مثيل له، إنه آخر صيحة في هذا المجال! "لا أنظر إليه كملك إسرائيل فقط، بل كملك الخلوة، أكبر ناكح في العالَم المعروف، وربّما في العالم المجهول. إلا أن ساعة مشاركته فراشه لم تحنْ بعد.

لم أكن الوحيدة في هذا التّرقّب الحامي. على مضض، كنتُ أقاسمه كل النساء الأخريات. هنا في الحريم، كان الضيق يخيّم على الأرجاء، ثخينًا يكاد يُلمس، مرئيًّا في الحواجب المقطبة، والأفواه المواربة، والتكشيرات المختلفة، مسموعًا، خاصّة في الليل، في الأنّات، والآهات، ومحسوسًا حتّى في الرائحة، رائحة الأنفاس الكريهة التي تعفّن الجوّ. كانت الزوجات يحاولنَ القضاء على ذلك القلق بأكثر من طريقة. بعضهنّ كنّ يغنّينَ معًا، وبعضهنّ يرقصنَ، وأخريات يمارسنَ تعابير جسدية. ولكن الجزع يتبدّى أحيانًا بكيفية درامية. نساء ينهضنَ من نومهنّ في عزّ الليل صارخات، ويَجرينَ كالمجنونات بين الأسرّة؛ وكان لا بدّ من السيطرة عليهنّ، وحتّى إيثاقهنّ. والخصومات! ليس نادرًا أن يتشابكنَ ويتدحرجنَ على الأرض، ويتبادلنَ الضرب والعضّ، وهنّ يصرخنَ في هياج.

ألم يُدعينَ قطّ، هؤلاء النسوة؟ بلى. على حين غرّة - قد يحدث ذلك في عزّ الليل، بل غالبًا ما يحدث في عزّ الليل -، تأتي رئيسة الحريم إلى إحداهنّ، فتهمس في أذنها ببضع كلمات أو تكتفي فقط بالإشارة. وَ... هُوبْ! بعد أن تكون هُيّئت كما ينبغي - هناك دائمًا وصيفات ومزيّنات على قَدَم وساق -، تنصرف المختارة وعلى محيّاها ابتسامة مشرقة، وهي توزّع نظرات منتصرة يمنة ويسرة. ولكنْ -وهذا هو السؤال الأكبر- كيف تمّ اختيارها؟ لأيّ سبب تمّ اختيارها؟

لم تكن ثمّة إجابة محدّدة لمثل هذا السؤال. فلا وجود لترتيب يخصّ الزوجات (ولا الخليلات)، ولا نعلم ما الذي يدفع الملك إلى اختيار هذه المرأة أو تلك. وفي هذا تبدو نواياه أيضًا كنوايا يَهْوَه عصية على الفهم. وربّما كانت تلك نيّته: أن يصبح، في مثل غموضه، عظيمًا مثله. ولكنه لم يكن الرّبّ. رغباته ليست مرتبطة بالعلم بكل شيء، والقدرة على كل شيء، الرَّبَّانيَّيْن. فما هو في النهاية سوى بشر. ملك وحكيم - أي نعم ولكنْ، بشر. استنادًا إلى هذا الاستدلال، وبعد التفكير مليًّا - وليس وقت التفكير هو ما ينقصني -، وضعتُ قائمة لشروط اصطفاء ممكنة:

أ) مؤهّلات جسدية: "اليوم أريد سمراء لا طويلة ولا قصيرة، ذات نهدَيْن كبيرَيْن ووركَيْن عريضَيْن ..".

ب) مؤهّلات سيكولوجية: "أريد منكفئة. ليست محبطة، بل متحفّظة. من اللاتي يفكّرنَ كثيرًا، ويحفظنَ أسرارهنّ في صدورهنّ ..".

ج) عوامل سياسية: "حلفي مع ذلك الملك الصغير يترنّح. جيئوني بابنته. سأُشبعها إكرامًا لوالدها ..".

د) أفضلية فنّيّة: "جيئوني بتلك التي تُحسن الغناء ..".

هـ) رؤية إقليمية: "أريد واحدة من الجنوب. مرّ وقت طويل، لم أمرّ بهذه الناحية ..".

و) اختيار عشوائي: "ادخلي وجيئيني بأوّل امرأة تقع بين يَدَيْكِ".

من نافلة القول إني لا أجد مَنْ يناقشني في شروط الاختيار تلك، ولا سيّما الملك. ولكنْ، لنفرض أنه يدعوني، ويسألني: "أنتِ الجديدة، ما رأيكِ في طريقتي في تخيّر النساء للفراش؟"، حينئذ سأجد وسائل تقديم عرض رائع حول هذه الثيمة. والنتيجة لن تُحدِث أيّ تقطيب جبين: أمام استعراض كهذا للذكاء والثقافة وحتّى الحكمة، سوف يهتف: "لم أعد بحاجة إلى شروط! لتذهب الشروط إلى الجحيم! لقد وجدتُ حبيتي، امرأة في مستواي ستكون رفيقتي الأبدية!" حُلم، هذيان؟ بكل تأكيد. ولكنْ، ماذا يمكن أن آتي غير الحُلم والهذيان؟

كانت النسوة يفعلنَ كل ما في وسعهنّ، كي يُدعينَ. أغلبهنّ يعوّلنَ على المظهر، فكان مُعَدًّا بعناية على الدوام. فالحريم هو مصنع حقيقي للتجميل. والجواري يركضنَ من مكان إلى آخر بمناديل وحُويضات وأمشاط ومرايا وقناني عطور وأوعية مراهم. والنساء يستحممنَ، ويسرّحنَ شعورهنّ، ويتزوّقنَ، ويتعطّرنَ وسط الجلبة: "سرّحي من فوق بشكل أفضل، أضيفي قليلاً من أحمر الشفاه، أزيلي هذا المرهم التافه، أنا بشعة، بشعة، بشعة!" بشعة، بشعة، بشعة؟ يقلنَ ذلك؟ أجل: بشعة، بشعة، بشعة. ولكنها دوما صورة استعارية، مبالغة، يُولّدها انزعاج ما، تافه وجزئي. البشع هنا، ليس سواي؟ من البشاعة، البشاعة، البشاعة؟

لا يوجد غيري. حتّى وإن كنتُ أنا أيضًا أتزيّن وأتعطّر. ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ أن أبقى جالسة أجترّ دمامتي؟ كلّا. أحاول. على الأقلّ لتضييع الوقت، كنتُ أحاول أن أكون جميلة. بمساعدة الوصيفة الخرساء الخاضعة. أبرز نتائجها (المسكينة انفجرت باكية حينما رأت النتائج الهزيلة لشركة تجميلنا)، لأن وجهي كان سيصمد أمام أمهر أخصائي تجميل. إلا أني كنتُ أحاول. نشاط وحيد، ولكنْ، بتوقيت كامل، لأن القاعدة أن تكوني جاهزة لتلبية نداء الملك. نداء آمر مطلق: لا بدّ للمرأة المَدعوّة أن تذهب كلّفها ذلك ما كلّفها. ما من مرض يمكن أن يكون ذريعة إعفاء، كما عاينتُ: ذات يوم، كانت امرأة ممدّدة على الفراش ترتمض من الحمّى. أجهشتْ بالبكاء في يأس، لطالما انتظرتْ تلك اللحظة! ولمّا جاء دورها، كانت مريضة عاجزة عن إجابة رغبة الملك، علاوة على كونها منهزمة ومنهارة! غير أن هذا العذر أُهمِل. أقبل طبيب الحريم، ففحص البنت المسكينة، وسلّمها دواء عاديًّا، وأَعلن أنها مؤهّلة. كان في هذه الحالة بعض الإيعاز: والد البنت، مستبدّ بعيد، كان قد تحدّى الملك، فأراد سليمان أن يبين له - مجازًا - أنه فوق ...

دوري لا يأتي. تمرّ الأيّام، ودوري لا يأتي.

لتزجية الوقت، بدأتُ أستكشف القصر؛ يعني الأماكن المسموح بها، وهي لا تتجاوز مكانَيْن اثنَيْن، إذا استثنينا الحريم والحديقة. أحدهما، جناح الأبناء والبنات، يحوي مئات الأطفال والمراهقين. حسب تعليمات الملك، ينبغي فصلهم عن أمّهاتهم. يمكن للأمّ أن تعتني بأطفالها حتّى سنّ معيّنة، ثمّ تستعيد وضعها السابق، وضع امرأة جاهزة كامل الدوام، وتعهد تربية الأطفال للجواري والمعلّمين. كان جناحًا في ضخامة هذا، وأوسع من الحريم، ولكنه بسيط، بلا زخرف. حزين هو الجوّ المخيّم.

حزينة أيضًا هي العيون التي تنحطّ عليّ. أنا، على الأقلّ، كان لي أب حاضر. متفسّخ، ولكنْ، حاضر. هؤلاء التعساء، ما الذي يفيدهم أن يكونوا أبناء ملك حكيم وقويّ؟ لا شيء. الملك يكلّم الطير، ولا يكلّمهم. صحيح أن الوقت يعوزه - فالحكم مهمّة شاغلة ومرهقة - والنتيجة أنهم يشعرون باليُتم. أيتام، ولكنْ، ليسوا عُمْيًا. ذات يوم، حاولتُ مداعبة وجه طفل، فمنعني: "لا تلمسيني، يا دميمة، لا تلمسيني!" غادرتُ المكان مغتاظةً وحزينة: حتّى التعاسة تغلب الدمامة.

بمثل هذا الإحباط كانت زيارة جناح تحت اسم "التقاعد". هناك تُقادُ الزوجات والخليلات العجائز - "عجوز" يقصد بها المرأة التي تبلغ سنّ اليأس (هنا على الأقلّ ثمّة معيار). كنّ قليلات العدد، ساكنات "التقاعد". حسب ما روت لي جارية، لا يعمّرنَ طويلاً بعد نقلهنّ إلى هذا المكان؛ ندفن منهنّ واحدة كل يوم. ليس فيهنّ مَنْ كانت زوجة أو خليلة لسليمان، فهو شابّ نسبيًّا. المجموعة ورثها عن أبيه، الملك داود، ووعده بالاعتناء بها - وهو ما يقوم به في شيء من التفاني. كان لا يزور الحريم أبدًا، ولكنه يزور "التقاعد" بانتظام. ليس للجماع، بطبيعة الحال، فذلك قد يكون دلالة أوديبية غير مباشرة، بل للحديث، وسماع حكايات عن الوالد الذي كان طيفًا بعيدًا - حتّى هو لم يسلم - في شغل دائم بشؤون التاج. كانت العجائز يرحّبنَ بتلك الزيارات التي تسمح لهنّ بإثارة ذكريات مسلّية: "أبوكَ كان فحْلًا، يا ملكي. ذات يوم، وقع في هوى زوجة قائد جيشه أوريا الحثّي(*)..". - ما يضطرّ سليمان إلى سماع قصّة داود و"بثشبع" للمرّة الألف.

(*) Hittite: الحثّيّون هم شعب كان يعيش في الأناضول وشمال بلاد الشام بداية من الألفية الثالثة قبل الميلاد، وقد ورد ذِكْره في التوراة. وأوريا الحثّيّ Urie أو Ourias شخصية توراتية ورد ذِكْرها في الكتاب الثاني لصاموئيل، كزوج لبثشبع بنت أليعام التي خانتْه مع الملك داود.

إذا كان الجوّ العاطفي الطاغي على الحريم هو الضيق، فإن الكآبة هي المهيمنة على "التقاعد". "نعيش على الذكريات"، تقول المسنّات، وليس فيها دائمًا ما يسرّ. لقد مررنا كلّنا بالفراش الملكي مرّة على الأقلّ. واحدة كان لها ذلك حدثٌ مجيد؛ وأخرى، سعيد، وثالثة مجيدٌ وسعيدٌ معًا. بعضهنّ، وهنّ قليلات والحقّ يقال، يتذكّرنَ تلك اللحظة في حنق وحزن أو خيبة؛ تلك حال المرأة التي يعرفها الجميع هنا باسم "العذراء الخرفة". مشكلتها كانت تحديدًا أنها لم تُفتضّ إطلاقًا؛ والأسباب غامضة، لا سيّما أنها مع الكبر صارت تهرف -ومن هنا جاءت تسميتها. ولكنها كلّما ألمحت إلى المسألة شكت: "وها أنني بهذه البكارة التي باتت حجَرًا- مَنْ سيفعل شيئًا لأجلي؟"

بكارة من حجر، قضيب من حجر (أين هو إذنْ حَجَري؟): تطلّعات غير مفهومة، عواطف مكبوتة، رغبات غير مشبَعة. هل أنا منذورة للمصير نفسه؟ مصير العُذرة المرتبطة بالشيخوخة؟ العجوز هرمة، ولكنها ليست في دمامتي. إذنْ، لماذا لم تكن لها علاقات جنسية؟ فرضيّتي، القائمة على حكايات تُروّج بشأنها، كانت البرود الجنسي. يقال إن داود حاول، ولكنه دُفع بحدّة، وحتّى عُيّر، وهو أمر كان شديد الحساسية منه، منذ أن وصمه النبيّ ناثان بابن زانية بعدما راود (وامتلك) زوجة غيره.

تلك ليست حالي. لستُ زانية. لحسن الحظّ: غياب الرغبة الجنسية، إلى جانب غياب الجمال، كان يمكن أن يردي حظوظي مع سليمان إلى الصفر في هذا المناخ ذي التنافس المقنّع، والشرس. لحسن الحظّ أو لسوئه؟ بما أن إمكاناتي تجاه الملك ضئيلة، ألا يكون البرود الجنسي حلًا سليمًا، داءً أخفّ قد يجنّبني نزاعًا شاقًّا؟

سؤال خارج عن السياق. الحقيقة أني أعشق سليمان. لا أفكّر إلاّ فيه. كل ما أريده هو أن أنام معه. فكرة عدم الوصول إليه، والموت دون تقبيله، دون مداعبة وجهه، دون أن تلمسني يداه (تجعلني أرنّ مثل قيثار شجيّ) - تلك الفكرة تحزنني بشدّة، وتقودني إلى اليأس.

قرّرتُ أن أُمسك بزمام المبادرة. لا أستطيع أن أبقى رهينة الصدفة التي لا تميّزني على أرجح تقدير. إذا لم يأتِ سليمان إلى الجبل، فالجبل (بكهفه الداعر) سيأتي إلى سليمان.

كنتُ في حاجة إلى مساعدة؛ كي أبلغ ضالتي، مساعدة أكثر نجاعة من الجارية الخرساء التي يعادل تفانيها عدم جدواها. لا بدّ أن أصل إلى الملك. إحدى الوسائل هي استعمال قنوات الاتّصال غير المعتادة. يمكن أن يهمس جليس صديق في أذن العاهل: "اسمعْ، سليمان، حان الوقت كي تقدّم زهرة للدميمة، المسكينة لا تنام الليل لكثرة ما تفكّر فيكَ - تكرَّمْ عليها! سيجازيك يَهْوَه على صنيعكَ، سيمنحكَ ذلك نقاطًا في سيرتك الذاتية ليوم القيامة".

ولكنْ، ثمّة مشكلان. أوّلًا، أنا لا أعرف أحدًا من جلاّس الملك، وحتّى إن كنتُ أعرف واحدًا، فلستُ واثقةً من أنه سيتدخّل لصالحي. النظرات التي أرسلوها نحوي عند قدومي إلى القصر كانت ساخرة أكثر ممّا كانت وديّة. ثمّ إني لم أكن أبحث عن محاباة، بل عن حقوق. أريد أن أطالب، لا أن أتوسّل. بيد أنها مسألة لا أستطيع أن أنهض بها وحدي. مَنْ سيساعدني في هذا المسعى؟ جاءني الجواب فجأةً: نساء الحريم.

فكرة عبثية في الظاهر. إذا كنّا في تنافس، ونحن كذلك، فلماذا

ينخرطنَ في حملة لفائدتي؟ ولو فرضنا أنهنّ وافقنَ، فأيّ نوع من الحملات هي؟

فكّرتُ كثيرًا في ذلك وأنا أتجوّل في الحدائق. رغم أن التفكير كان أمرًا لا تنظر إليه رئيسة الحريم بعين الرضا، وغالبًا ما تغتاظ كلّما رأتْني هائمة، مطأطأة الرأس، عبر الممرّات. "أنتِ تبالغين في التفكير، تقول لي، لذلك أنتِ دميمة! الأفكار تُغضّن جبينكِ، وتلوي فمكِ، وتقطّب حاجبَيْكِ، فتزداد سحنتكِ آثارًا! روّحي عن نفسكِ، امرحي، اشغلي نفسكِ بأشياء تافهة، ولكنها ممتعة، وسترين كيف ستسير الأمور بشكل أفضل! على الأقلّ، نوعًا ما ... ما يكفي، ربمّا، لكي لا يخافكِ الملك مستقبلاً ..".

ولكني لا أستطيع أن أتوقّف عن التفكير، ونسج شيء ما. وما كنتُ أنسجه خطّة لحشد النساء ... كي يعملنَ لصالحي؟ كي يساعدْنَني في الوصول إلى فراش سليمان؟ أجل، ولكنْ، ليس ذلك فحسب. فجأة رُمتُ المزيد. أردتُ التضامن، تضامن المضطهَدات الحقّ. وكنتُ آمل أن أتوصّل إلى ذلك بضمّ جزَعي إلى جزعهنّ، بأكبر قدر ممكن من النزاهة والانفتاح. كنتُ أريد إقناعهنّ بأن عذريّتي هي في وجه من الوجوه عذريّتهنّ (بالإشارة إلى أن المفتَضّات أنفسهنّ يبقينَ دائمًا، من الناحية السيكولوجية والاجتماعية، عذارى)، وأنّ تهميشي يجعلهنّ هنّ أيضًا مهمَّشات، وأن دمامتي هي أيضًا دمامتهنّ - إن لم تكن خارجية، فهي داخلية، من جهة الحزن، والرّوع، إلخ). لا حقّ لنا أن نتنافس، بالعكس، الاتّحاد هو الذي سيجعلنا قويات، ويعطي لحياتنا في الحريم معنى.

ولكنْ، كيف أصل إلى ذلك؟ كانت لي خطّة. سوف ننظّم حلقات

نقاش حول وضع النساء في الحريم. كلّ حلقة لها منسقتها ومقرّرتها. سوف نعقد مؤتمرًا بكامل الهيئات، واستنادًا إلى قرارات هذا المؤتمر، سوف أحرّر - أنا المتعلّمة الوحيدة - ميثاق الحريم، قرارَ اتهامٍ ناريًّا ضدّ الظروف التي نعيش فيها، يمكن أن يُسرَّب إلى العالم خفية، حتّى يوقظَ في كل الأحرام وعي النساء الحبيسات. "انهضنَ، يا ضحايا الجنس(*)!" ستكون صرخةَ تمرّد تتردّد من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، وتدوّي في آذان كلّ الحكّام. لن تكون غايةُ الحركةِ النهائيةُ، وضعَ حدّ لمؤسّسة الحريم - فعديد النساء لا يستطعنَ العيش بحُرّيّة -، وإنما وضع قائمة في الحقوق على الأقلّ. سوف أكتب في أعلى تلك القائمة حصّةَ نكاحٍ دُنيا، يقع تحديدها علميًّا: بعد دراسة النتائج الجنسية للملوك والسلاطين، يقع احتسابُ مُعدَّلٍ يُستخدَمُ كمعيار. نقطة أخرى: وفق مفهوم حياة جنسية ديمقراطية، سيكون من حقّ كل امرأة أن تحظى بعدد الليالي نفسه في الفراش الملكي. الذرائع من نوع "أبي عاهل عظيم، أستحقّ المزيد" لن يكون لها مكان. "أنا جميلة جدًّا"، "لي شهوات أكثر" - لن يقع اعتبار أيّ ذريعة من هذه الذرائع. ولكنْ، سوف يكون هناك هامش للتفاوض. إذا أرادت امرأة أن تقضي سنة دون جماع، يمكنها ذلك. إذا فضّلت امرأةٌ امرأةً أخرى للملك - ليس هناك أيّ مشكل. فالنساء بإمكانهنّ الحصول على قروض جنسية، تُستعمَل في وقتٍ لاحق، أو تُستبدَل مزايا أخرى. عشرة اتصالات جنسية غير مستعملة تمنح صاحبتها حقّ رحلة عبر المتوسّط، في سفينة مُريحة، مدفوعة النفقات. إذا أراد الملك أن يقتصد في طاقته الجنسية، فليس أعدل من أن يكافِئ أولئك اللاتي يُتحنَ له ذلك.

---

*) بالفرنسية في النّصّ الأصلي Debout, les victimes du sexe.

مشروع جيّد في النهاية -من شأنه أن يقيم أنموذجًا جديدًا للعلاقات بين الرجال والنساء، على الأقلّ في مستوى الحريم. طيّب، ولكنْ، هل أنا صادقة في صياغته؟ أم أحاول إقناع نفسي بأني كريمة، أحمل رؤية واسعة عن العالم، قادرة على رَفْع راية المساواة والعدل؟ لا أملك إجابة عن هذا السؤال. لعلّ الحركة ليست سوى أنانية مقنّعة ... وأين المشكل؟ أكنتُ مهتمّة؟ طبعًا كنتُ مهتمّة. العالم يملكه الذين يناضلون، قلتُ في نفسي، مَنْ لا يستطيع الجري يطير، ولن أبقى هنا في انتظار أن يكون هذا الملك مهيًّأ للتّكرّم عليّ بعنايته. سواء أكان ذلك عن مثالية أو عن أيّ دافع آخر، كان لا بدّ أن أنخرط في الصراع- في انتظار اللحظة السيكولوجية المناسبة بطبيعة الحال.

وحلّت اللّحظة قبل الأوان المتوقّع. لقد مرّ أسبوعان دون أن يدعو الملك أيًّا كان، وهذا نادر. استولى القلق على الحريم. قبل أن تبدأ الإشاعات في الانتشار، روّجتُ - بمساعدة الجواري (حتّى مقطوعة اللسان دخلت الحلبة؛ كانت جيّدة جدًّا في استعمال الإشارات) - وجهة نظري: الملك أعلم الحاشية أنه سئم نساء الحريم، عديمات الكفاءة، ذوات جدول جنسي محدود جدًّا. وهو يفكّر في بعث حريم جديد، ربّما في مكان بعيد، فردوس ضريبي مثلاً، ما قد يسهّل الاستثمارات.

استرحتُ حين بلعَ الجميعُ الطّعمَ. صار كل الحريم على أهبة الحرب. "يا للعار! صاحت النسوة. هذا الرجل يؤكّد أشياء غريبة! مَنْ يحسب نفسه؟ ليس لكونه ملكًا، يسمح لنفسه باحتقارنا بهذه الكيفية! نبتدع، ونتجمّل، ونلتزم، وهذا الشخص هنا، مستغرقٌ في كرسيّه، يستخفّ بنا بسَرْد أكاذيب لجلاّسه المخنّثين!"

غنيّ عن القول إنّ رسالتي انتشرت انتشار النار في حقل جافّ، واندفع لهيب التّمرّد عاليًا وشديدًا. ترقّبتُ اللحظة المناسبة، واقترحتُ اجتماعًا. تردّدت النساء اللاّئي حدّثتُهنّ أوّل الأمر: ألا تكون هـذه ثورة؟ بيّنتُ أنّها ليست كذلك: هي مظاهرة هادئة، سِلْمِيّة، وليس ثمّة شيء نخشاه.

اجتمعنا في أصيل اليوم نفسه. حضرت النساء بأعداد كبيرة: حوالي ثمانين في المائة من الزوجات، وخمسين في المائة من الخليلات (لم يكن لهؤلاء وضعية قارّة، فكنّ يخشينَ أيّ احتجاج). رفضتُ بحكمة ترؤُّس الجلسة. كنتُ أعتزم الكلام، ولكنْ، في الوقت المناسب. توالى الجدل والمقترحات، علاوة على المسائل التنظيمية، ولكنْ، لم يتبلور أيّ شيء ملموس. حان الوقت الذي فقدتْ فيه النسوة سياق الكلام. كُنّ يتبادلنَ النظرات في ذهول، لا يعرفنَ ما يصنعنَ، ولا ما يقلنَ. "الآن" قرّرتُ. وصعدتُ، خفيفةً كعنزة جبال، مثابَ النافورة الجذّابة الهامسة التي توجد في وسطِ الحريم، وبعبارات متوهّجة (إلهي كم كنتُ ملهَمة - لا شيء يعدل شهوة شبقية قُمعت طويلًا لتنمية البيان)، دعوتهنّ إلى وضع حدٍّ لهذا التجاوز.

"كفى اعتبارنا بضاعة جنسيّة! كفى خضوعًا! كفى اضطهادًا!".

تنفّستُ نفَسًا عميقًا، وأطلقتُ الشعار:

"لأجلِ مساواةٍ كاملة في الحقوق الجنسية! من الآن فصاعدًا يجب على الملك أن يستقبل كلَّ واحدةٍ منّا!".

دوّى التصفيق. وهنا -مجازفة محسوبة، بل محسوبة بدقّة-، كشفتُ أهمّ أوراقي:

"وسأكون أنا الأولى".

خيّم السكون. سكون متوتّر. صار شكًّا ما أراه على الوجوه، ولم يعد تحمّسًا. الارتياب وليس الحماس الثوري. ثمّ انطلق من العمق، من نحيلةٍ سيِّئةِ الطّبع، السؤال الذي كنتُ أتهيّبه، وكان لا بدّ أن يُطرح:

"أنتِ؟ لماذا أنتِ؟"

وكانت إجابتي جاهزة.

"لأني الدميمة، قلتُ. إذا استقبلني الملك، فلن يكون له عذر؛ كي يستقبل كل واحدة منكنّ".

خيّم السكون من جديد. رغم كونهنّ أبعد ما يكون عن الذكاء، حاول عدد منهنّ أن يتبع استدلالي. سمراء ذات نظرة مهلوسة هبّتْ لنجدتي:

"أصبتِ! الدميمة هي المحكّ! ليستقبل الملك الدميمة!".

بدت النساء عندئذ مسرورات بالفكرة. جعلنَ يهتفنَ معًا، وهُنّ يضربنَ كفًّا بكفّ:

"الدميمة! الدميمة! لينم مع الدميمة!".

الدميمة؟ كلّا. لم أكن الدميمة. لم أكن كذلك ساعتها. في تلك اللحظة المجيدة المتسامية، في تلك اللحظة المباركة، أمكن لي، خلال جزء من الثانية، أن أرى نفسي كشخص آخر. وما رأيتُه امرأة قائمة على مثاب، والجُمع مرفوع، والشَّعْر في فوضى، والوجه - وجه جميل أي نعم، جميل جدًّا، بلا نقاش -، مشرق. ليت هذه اللحظة يُكتب لها الخلود، ليت هذا الجمال يدوم إلى الأبد ... نُعِتُّ بالدميمة، أجل،

ولكنْ، بمعنى عطوف: الدميمة العزيزة، الدميمة المحبوبة، الدميمة الشجاعة، الدميمة الكريمة. الدميمة الجميلة.

كان الانتشاء وجيزًا. ففي اللحظة التي تلتْه، دخلت رئيسة الحريم ثائرة، رفقة بعض العمال وجنديَّيْن.

"ما هذه الصيحات المجنونة؟ في أيّ مكان تحسبنَ أنفسكنّ، يا عصابة الفاجرات؟ أتظنّنّ الحريم ماخورًا، أيّتها الوثنيّات التافهات؟".

تفرّق الجميع أشتاتًا. رغم صيحاتي: "اصمدنَ، يا صديقاتي!" "لن ننهزم مُتّحدات!" - هربنَ في شتّى الاتجاهات. ولم يبقَ سواي في النهاية، وحيدة، على المثاب.

"انزلي"! أمرتِ المرأة.

"كلّا". قلتُ موهِمة، ولكنْ، كان ذلك ضروريًّا: القليل الذي كسبتُه كان محلّ رهان. إن كانوا سيستعملون القوّة، فليفعلوا. فسوف تصل الحادثة بكل تأكيد إلى علم سليمان، وقد يكون ذلك ذريعة أخلاقية لفائدتي، بشرط أن أغادر هذا المكان كاملة، مع الجنود، مَن يدري؟

"قلتُ لكِ انزلي"، أعادتْ في لهجةٍ أقلّ وثوقًا.

"لا. ينبغي إخراجي باستعمال القوّة المسلَّحة! ولكني أُحذّركم، لن يكون الأمر سهلًا، هه! لن يكون الأمر سهلًا! لن أخرج من هنا إلّا ميتة!"

بدا أنّ للتهديد صدى حقيقيًّا، لأنّها تردّدت. قتل زوجة من زوجات سليمان، حتّى وهي دميمة، ومتمرّدة، قد يُعدّ خطأً جسيمًا. غيّرتْ نبرتَها:

"كفّي عن الحماقات، يا عزيزتي! انزلي، وسوف يُنسى كل شيء".

"كفّي عن حماقاتكِ أنتِ. لن أخرج من هنا إلا لفراش الملك. ما لم يتمّ واجبه الزوجي تجاهي - فلا نزول".

كانت رئيسة الحريم وقتئذ منذعرة فعلاً. إذ ثمّة في هذا الظرف وفد من الملوك الأجانب يقيم في القصر. ماذا يحدث لو صادف أن رغبوا في معرفة الحريم؟ ماذا سيجول بخلدهم لو شاهدوا امرأة برأسٍ مجنونة، واقفة على مثاب نافورة، وقد زاد دمامتها تعبير وحشي؟ سيكون ذلك مسيئًا جدًّا لصورة الملك -صورة كان سليمان يتعهّدها بعناية. ينبغي طردي من هنا في أسرع وقت ممكن. وبما أنها لا تستطيع أن تحرّكني دون إحداث فضيحة، فالوسيلة الوحيدة هي إعلام الملك بالمشكل. إهانة - لأنها، بوصفها مسؤولة على الحريم، يتوجّب عليها تحديدًا ألا تتجنّب وصول خلافات الحريم إلى العرش-، ولكنّ الحلّ الآخر سيكون أشنع بالتأكيد، لا سيّما أن سليمان تمّ إعلامه على الأرجح بالأحداث.

"حسنًا، قالت فيما يشبه التّنهّد، سأتحدّث مع الملك. ولكنْ، كوني لطيفة معي، انزلي.

- أبدًا. اذهبي، قولي للملك، ثمّ عودي. وفق ردّه، أنزل أو لا أنزل".

نظرتْ إليّ بحنق - "هذه المرأة، علاوة على كونها دميمة، رأس بغل بحقّ!" -، ولكنها ذهبتْ. بقيتُ أنتظر، والنساء يَرقُبْنَني عن بعد، والخوف يملأ صدورهنّ.

بعد ساعَتَيْن، عادت رئيسة الحريم، وعلى محيّاها بسمة استرضاء.

"يمكنكِ النزول. الملك سيستقبلكِ الليلة".

أعترف أن ساقَيّ ارتختا. انتصرتُ، حصلتُ على ما كنتُ أريد: الملك سيستقبلني، الملك سيستقبلني أخيرًا. ولكن هذا الأفق لم يُسعدني، ولم يستثرني. بالعكس، أحسستُ بالرهبة. في تلك اللحظة بالذات لم أكن سوى بنت دميمة، بالغة الدمامة، طفلة خجول تتأهّب للافتضاض - يا إلهي. أصابني دوار. أمسكتْني رئيسة الحريم قبل أن أقع، وساعدتْني على النزول.

"اهدئي، يا صغيرتي، اهدئي. لن يكون أمرًا ذا بال. كل شيء سيجري على ما يرام، سترين. ستكونين سعيدة بعد اليوم".

سخرية طفيفة كانت لها بمثابة الانتقام.

"هيّا بنا الآن، أمامنا أشياء كثيرة: أريد أن أُغسّلكِ وأزيّنكِ. هكذا، سوف يجدكِ الملك .." .مكتبة سر من قرأ

ولم تتمِّم جملتها، ولكني أعرف البقية: "هكذا سوف يجدكِ الملك أقلّ دمامة". مرّة أخرى دوّت الثورة بداخلي. ملّصتُ يدي بعنف:

"دعيني. لا أريد أن أستحمّ، ولا أن أتزيّن. سأذهب هكذا، كما أنا.

– ولكنْ ...

– لا لكنْ، ولا كلام فارغ. دميمة أم لا، على الملك أن يستقبلني. وإلا فسأعود إلى المثاب، وأمعن في الصراخ.

– حسنًا، حسنًا، اذهبي كما أنتِ، قالت وهي تكظم غيظها. ولكنْ، لا تأتي لتقولي لي إني لم أنذركِ".

وخرجتْ متنهّدة.

لا تزال بضع ساعات لغروب الشمس. أردتُ الانتظار وقوفًا، ولكني تعبتُ، فجلستُ مستندة إلى المثاب. أنهتِ الشمسُ سباقَها فوق صحراء الجليل، وتوارت ببطء في الأفق. غمر الحريمَ نورُ الغروب الخافت الرقيق. أطلقت بعض النسوة، في لهجة غريبة أجهلها، أُغنيّة حنين. هدّتْني أحداث النهار، فنمتُ. وحلمتُ: رأيتُ فيما يرى النائم أني في قريتي، طفلة وأبي يمدّ إليّ ذراعَيْه قائلًا في ابتسام: "تعالي، يا جميلتي، تعالي". جريتُ نحوه، وهممتُ بتقبيله، حين خضّني شخص بقوّة، وحتّى بعنف: كانت رئيسة الحريم.

"هيّا بنا! حان الوقت".

أُوقِظْتُ بخشونة، فنهضتُ وأنا لا أزال طائشة اللّبّ. تطلّعتْ إليّ المرأة بتقزّز:

"أنتِ خِرقة، يا عزيزتي. خرقة بحقّ. أفظع من المعتاد. دعيني على الأقلّ أُريكِ منظركِ".

طلبتُ مرآة. مرآة جيّدة، ملساء، حتّى لا ينتابني شكّ في صورتي المنعكسة. صورة تأمّلتُها في فزع. وهي كذلك: الوجه الذي رأيتُه كان ببساطة مرعبًا. إلهي، كم أنا دميمة! الشَّعْر منفوش، والقسمات غَضّنها النوم - دمامة مضروبة على الأقلّ في اثنَيْن. وإذ لاحظتْ أني متزعزعة، قامت رئيسة الحريم بمحاولة أخرى:

"تريدين أن أدعو المزيّنة. في خمس دقائق ...".

"أبدًا. لن أتراجع الآن. هيّا بنا".

مكتبة
t.me/soramnqraa

سرنا باتّجاه مخادع الملك. كان وقع خطوات يتردّد في تناسق عبر الممرّات الخالية. أحسستُ نفسي ... كيف أحسستُ نفسي؟ كمحكوم عليها. كنتُ مخفورة كسجينة. وكنتُ ذاهبة إلى ليلة زفافي. بين ذراعَي زوجي. أمر لا يُصدَّق.

أخيرًا وصلنا. توقّفنا أمام الباب الكبير الذي يحرسه جنديّان مسلَّحان.

"انتظري هنا"، قالت لي رئيسة الحريم. تبادلت بضع كلمات همسًا مع الحارسَيْن. نظرا إليّ -والاستغراب في عيونهما كان أكثر من بادٍ- وفتحا الباب. دخلت المرأة. وعادت بعد دقائق؛ لتقول لي إن بإمكاني الدخول.

"بداية من الآن، الأمر بين يَدَيْكِ، قالت لي في بنبرة سخرية، تكاد لا تخفى. انتبهي إلى ما سوف تفعلين ..".

لم أجبْ. دخلتُ الخدر الملكي راجفة.

كان الفراش أوّل شيء رأيتُه. فسيح، بمعلّقات كبيرة من الحرير، ذكّرني، لستُ أدري لماذا، بسفينة - لم أرها قطّ، ولكني أتخيّلها دائمًا هكذا بالضبط. كنتُ إذنْ هنا، أمام سفينة سليمان. كيف سيكون مصيري؟ هل أُبحر إلى جزيرة السعادة الأبدية، محمولة بريح الحُبّ الناعمة، أم أتيهُ في أهوال ومخاطر بحر الحرمان؟ لا أملك إجابة. فالدميمات لا يُجرينَ توقّعات. بل يَقبلنَ ما يُخبّئه لهنّ القَدَر.

لم يكن سليمان هناك. وبالأحرى هو موجود، ولكنْ، ليس في الخدر ذاته. كان في شرفة فسيحة، يمكن أن نطلّ منها على المنطقة كلها، وقد أضاءها قمر عجيب. كان يدير لي ظهره، وينظر إلى الأفق. فيمَ يفكّر؟

في أحلاف جديدة مع بلدان بعيدة؟ في زوجات جديدات يدمجهنّ إلى حريمه؟ أم هو ينتظر طائر الليل المقذع؛ كي يحصل على إرشادات حول المغامرة التي سيخوضها؟

بقيتُ برهة هكذا، أنتظر، أتأمّل ذلك الجذع الأنوف، وذلك الظهر العريض، وذلك الرأس الجميل.

وشعرتُ بالرغبة.

هل هذا معقول؟ وأنا نهبٌ لهذا الجزع الرهيب، لا أعرف ما سوف يقع، أشعر بالرغبة تستفيق من أعماقي، وتكبر، وأني في أي لحظة قد أرتمي على ذلك الظهر، وأقبّل ذلك القفا ... وقبل أن يتمّ ذلك، التفتَ. نظر إليّ، وارتجفَ. مرّة أخرى يرتجف. لا شكّ أن لي رأسًا غريبًا. ولكنْ، أمر لا يُصدَّق، تلك الكيفية في الارتجاف كلّما يراني! غير أن النتيجة كانت عكسية تمامًا، فأنا الآن هامرة(*) إن صحّ التعبير، وارتجافه لا يزيدني إلا رغبة، بلغت حدًّا لا يُحتمَل.

تنهّد.

"اليوم إذنْ"، قال في خضوع أكيد. ربّما لربح الوقت، قرّر فتح نقاش. ولكنه اكتشف أنه للأسف لم يعد يتذكّر اسمي، ولا مَنْ أكون بالضبط. وكان لا بدّ أن أقدّم هويّتي. -"طبعًا، كيف أمكنني نسيانكِ؟ أنتِ شخصية بارزة بما فيه الكفاية"- وأراد أن يعرف كيف حال أبي، والعائلة، والقرية. بمعنى أنه كان يبدّد ريقه، ويقتل الوقت، ويصرف طاقته - والأنكى من ذلك أنه يعذّبني، أنا التي ما عادت تطيق. أخيرًا أشار إلى الفراش.

---

*) تُقال للحيوان المتحفّز؛ إذ يضرب الأرض بحوافره.

"اخلعي ثيابكِ، تمدّدي، وانتظري عودتي".

آن الأوان. خلعتُ ثيابي على عجل، تمدّدتُ، وتغطّيتُ باللحاف.

خطأ. خطأ فادح. لقد فوّتُّ الفرصة؛ كي أُريَه جسدي، ونهديّ الجميلَيْن - يعني أفضل ما لديّ، كي أستثيره. ظلّ متردّدًا. همّ بالاستلقاء، ثمّ عدل فجأة، وقال إنه لا يزال يحتاج إلى التّأمّل قليلاً - "مهمّتي تفرض ذلك"، قال معتذرًا، وعاد إلى الشرفة.

تأمُّل مبالغ فيه في تقديري. كنتُ آمل أن يرتمي عليّ، فنتدحرج كمجنونَيْن على الفراش - وحتّى على الأرض. ولكنْ، لا، خيّر تلك الشرفة الملعونة. أحسستُ أن هذا سيكون سيِّئ العاقبة.

وذلك ما حصل. عندما عاد أخيرًا، وتمدّد، وهو لا يزال بلباسه الحرير، كان أبعد من أن يكون رجلاً، تسكنه الرغبة. تثاءب، حكّ جلده، ملأ كأس نبيذ، كانت على طاولة صغيرة حذوه، شرب منها جرعة، تلمّظ -"هذا النبيذ حامض، لا بدّ أن أُغيّره"-، عندها فقط التفت إليّ، في هيئة طفل، له واجبات، لا يرغب في إنجازها.

"هيّا. أفرجي ساقَيْكِ".

هكذا: "هيّا. أفرجي ساقَيْكِ". لا كلمات لطيفة، لا مداعبات، لا مقدّمات رقيقة. مباشرة إلى الهدف، مثل خمّار يضاجع زوجته؛ ليخفّف من أعبائه، ثمّ ينام. ولكن ذلك -الوَهْم لا حدود له- رنّ في أذنيّ كأرقّ القصائد المؤثّرة، كدعوة رقيقة إلى ممارسة الحُبّ ... فتحت إذنْ ساقَيّ، فأتى.

أتى. ولكنْ، لم يحدث أيّ شيء. كان ينبغي أن أحتمل الحديد؟

أصرخ من شدّة الألم واللّذّة؟ أهوي إلى الجحيم، ثمّ أعلو كصاروخ إلى السماء، إلى جنان النشوة؟ لم أحسّ بأيّ حديد، ولا صرختُ بأيّ كلمة، ولا هويتُ أو علوتُ إلى أيّ مكان. لم يلجْ فرجي النّديَّ شيءٌ. الضيف المرتجَى لم يحضر.

"ثمّة شيء لا يعمل جيّدًا"، قال متذمّرًا، والعَرَق يتفصّد من جبينه. أغاظني إفساد الجوّ الحميم. أهكذا تنتهي ليلة العشق المفترضة؟ بأنين بدل صراخ الفرح؟ ماذا حدث؟ قرّرت أن أمدّ يدي؛ كي أعرف ما يجري. يا للخيبة: كان القضيب الملكي المختون هنا، كما هو متوقّع، ولكنه مرتخٍ، مترهّل. أثارت حركتي سخطَه:

"مَنْ أذنْ لكِ بمَسّ ذلك الموضع؟ مَنْ تحسبين نفسكِ في النهاية؟

- زوجتكَ، قلتُ بحدّة. زوجة إضافية، ولكنْ، زوجتكَ، على أيّة حال".

ظلّ صامتًا برهة، وعيناه إلى السقف. ثمّ التفت إليّ مجروحًا وغاضبًا في الوقت نفسه.

"حسنًا. تريدين أن تعرفي؟ ارتخى عضوي. لم يحدث لي هذا من قبل، ولكنْ، ها إن عضوي اليوم يرتخي. بعد سبعمائة زوجة وثلاثمائة خليلة وعدد من الإضافيات. فشل. فشل ذريع".

ثمّ انفجر:

"هذا صحيح، ولكن؛ ذنب مَنْ؟ ذنبكِ أنتِ! مَنْ طلب منكِ أن تكوني دميمة؟ وعلاوة على كونكِ دميمة، فأنتِ غبية. أنا أمرّ بأوقات ذات صعوبات كبرى، بل عليّ أن أواجه تهديدًا بالتّمرّد. ماذا يُنتظر من

زوجة في مثل هذه الظروف؟ التّفهّم والصبر. ولكنْ، لا. أنتِ أرغمت هذا الوضع، وبعثت جمعية ناخبين لإجباري على استقبالكِ. النتيجة: ارتخاء. ستتحمّلين العواقب: ستخرجين من هنا كما دخلتِ: عذراء. تلك هي العقوبة التي تستحقّينها!"

كانت تلك القطرةَ التي أفاضت كأس يأسي. باكية متأوّهة، قلتُ: "لا تفعلْ هذا، يا ملكي، أرجوك، لا تُذِلّني!" تشبّثتُ به، لثمتُ صدره، وبطنه، وهنا -يا لي من مجنونة- حاولتُ الجنس الشفوي، على غرار أختي والراعي الشّابّ في المغارة. وقبل أن تندّ عنه حركة، كان فمي أقرب منه إلى قضيبه.

حماقة كبرى. كنتُ أجهلها، ولكني اكتشفتُها في الحين: القضيب المترهّل لا يقبل المَصّ. كانت النتيجة ببساطة كارثية. نطّ من الفراش في اضطراب. نظر إليّ ووجهه ممتقع، وأشار إلى الباب بإصبع مرتعدة:

"اخرجي، يا كريهة! اخرجي من هنا!".

أثار الصياحُ الحارسَيْن، فدخلا جريًا ورمحاهما مصوّبان - ثمّ توقّفا مبلبَلَيْن، لا يعرفان ما يصنعان. ما جعل سليمان شديد السخط:

"مَنْ أذن لكما بالدخول، أيّها الغبيان؟ هل ناديتُكما؟".

ثمّ تدارك أمره، وهو أيقن أن في هذا الوضع خطورة: لو يروي الحارسان ما جرى، فسوف تُشوّه سمعته بقدر كبير. وضع في الحال سيناريو:

"زوجتي ليست على ما يرام. رافقاها إلى الحريم، وقولا لرئيسته بالعناية بها".

انقدتُ لهما دون مقاومة.

كانت النساء فيما يبدو يقظات. عند رؤية هيئتي أكثر تشوّشًا وانتفاشًا ممّا كانت عليه عند الذهاب -إضافة إلى البكاء-، فهمنَ ما جرى. كانت ردّة فعلهنّ مشرّفة. كان يمكن أن يسخرنَ منّي، ويستهزئنَ بي -انظرنَ قليلاً إلى الزعيمة التي عثرنا عليها، إنها طامّة كبرى!"- غير أنهنّ لم يقلنَ شيئًا، ولم يُلقينَ أيّ سؤال. اثنتان أو ثلاث نساء ساعدنَني على الاستلقاء في الفراش، وإحداهنّ جعلت تغنّي بصوت خافت - بنشاز، ولكنْ، بحنان - لكي أنام. وهو ما حصل بعد دموع غزيرة.

لم أقدر على النهوض في اليوم التالي، لشدّة ما كان بي من ألم. بقيتُ كامل النهار دون أكل ولا شرب، أذرف الدمع بغير انقطاع. كانت نساء الحريم يجلسنَ حولي، مصدومات بصدق، ويفكّرنَ في أيّ شيء، يمكن أن يصلح حالي: فاكهة ربّما؟ أزهار؟ أو ربّما أُغنيّة؛ لتُرفِّه عنّي؟

ولكنْ، لا، لا شيء يمكن أن يُرفّه عنّي. شيء وحيد كان يمكن أن ينتشلني من يأسي - نداء سليمان. لو يرسل في طلبي، لو يطلب الصفح عن الفشل - "سامحيني، لم أكن في لحظة جيّدة، ولكني أريد أن أتدارك أمري الآن، أريد أن أعيش معكِ أكبر لحظات الحُبّ - آه لو يحدث ذلك، أنا الفينيق الرائع، سوف أنهض من رمادي، وأطير نحوه!".

لم يدعُني سليمان. أنكى من ذلك: في الأيّام التالية، أرسل في طلب أخريات، أخريات كُثُر. الجميلات. الحسناوات. رأيتُ في ذلك رسالة واضحة: "الدمامة سُمّ، الدمامة قاتلة الحُبّ، أنا بحاجة إلى ترياق!".

تضخّم بداخلي غيظ عظيم باردٌ، حلّ محلّ الحزن. الوغد أساء

معاملتي، إساءة بالغة. مثلاً، ما حكاية أنه ارتخى بسببي؟ أعتقد الآن أن سليمان تحايل، كي يجد عذرًا. الرجل الحقّ، الرجل ذو الخصيتَيْن، كان يُقدّم دون أن يهتمّ بالجمال - فأيّ فرق في الظلام؟ راعٍ شابّ يمكن أن يسافد عنزة، والملك لا يستطيع أن ينكح دميمة؟ وأنا وحدي مَنْ تتحمّل وزرَ إخفاقه؟ هذا ظُلم بحقّ، وهو أقلّ ما يقال عنه.

ولكن الأمر لن يمرّ هكذا. بعد مهلة تفكير، بدأتُ أعدّ بجدّ مشروع انتقامي.

سليمان نفسه أعطاني الفكرة عند حديثه عن مشاغله بخصوص معارضة العرش. ما كان يخشاه أكثر هو المؤامرة. وذلك إذنْ ما ينبغي أن أفعله: أن أدبّر مؤامرة ضدّه. لا لقلبه -فذلك يُفقدني مكانتي كزوجة ملكية-، بل للحصول على تنازلات. لم أتأخّر عن نسج خطّة جريئة رائعة - إلى درجة أني تأثّرتُ بها أنا نفسي.

العملية لا تتعدّى حجز سليمان لا أكثر ولا أقلّ. حجزه للحصول على فدية، ليست ذهبًا أو فضّة، بل إتمام واجبه تجاه زوجته الكريهة. الجماع أو الموت. أو على الأقلّ: الجماع أو الخصيتان.

مَن الذي سيتولّى تنفيذ الخطّة؟ أبي. أبي وأهل قبيلتنا. أعرف أنهم كانوا فيما مضى محاربين بواسل. خلال عدّة عقود، تصدّوا للقوّات الملكية التي جاءت لإخضاع الجهة. كانوا يُتقنون الهجوم المباغت والانسحاب قبل أن يسترجع الخصم قواه. في تلك المناوشات، أظهر أبي أنه قائد بارز، وأنه -ولو أن ذلك مَبنيّ على الملاحظة والاختبار- خبير بالخطط الحربية. موهبة ورثتُها عنه، كما أكتشفها الآن.

ولكنْ، لأيّ مصلحة يقبل أبي المشاركة في هذه العملية؟ ببساطة لردّ الاعتبار لابنته. أن يحبّني، فذلك ما لم يفعله مطلقًا، ولكنه بطرك القرية، والبطرك لا يمكن أن يرضى لفرد -من لحمه ودمه- أن يُهان. والإهانة كلمة ضعيفة لوصف الويلات التي كابدتُها في خدر سليمان. كانت المهانة عميقة وشاملة - بشكل يهدّ عزّة نفس أيّ امرأة، وخاصّة امرأة دميمة.

ثمّة مَلمح آخر: الزواج لم يتمّ. والملك يمكن أن يلغيه في أيّ وقت، ما يعني أنه يمكن أن يسحب مساندته لأبي. وهو خطر يُجنّب الاتّحادُ الجسدي وقوعه، ويكون الحلّ المأمول للتآمر: إذا احتُجز سليمان، صار مُرغَمًا على مضاجعتي. أو يتحمّل العواقب، إن لم يفعل، ولكنْ، ليس ذلك ما كنتُ أتمنّاه، لأنه سيكون حلًّا محزنًا. لم أكن أريد الانتقام. كنتُ أريد المراهنة على النتيجة غير المتوقّعة (بالنسبة إلى سليمان، وليس بالنسبة إليّ) لهذا الهجوم السياسي الجنسي. كما تصوّرتُ المسألة، سوف يستبدّ بسليمان، في مرحلة أولى، خوف مميت: "أنقذيني، يا زوجتي، أتوسّل إليكِ! أنقذيني من هؤلاء المتطرّفين المعاتيه! – دعني أتصرّف" أقول له. وأقوده بهدوء إلى الغرفة. أدعو أبي ورجاله أن ينتظروا خارجها، أغلق الباب، وأقول: "لننسَ كل ما جرى، حبيبي سليمان، ولنبدأ من الصفر". في لحظة الفزع تلك، سوف يجد في حضني ملاذًا آمنًا. سأكون حاميته، زوجته، أمّه - أليس الرجل سوى طفل في حَيْرة، يبحث عن نجدة الأمّ؟ سيكون دفء جسدي عزاء غير مؤمّل. سيغمره عشق، يتلوه انتصاب متين - وبذلك يأتي الجماع بشكل طبيعي. ولن يكون أمرًا عابرًا. سوف يتذكّر دائمًا أني حميتُه مثل راعية، تستضيف جَدْيًا في خطر. وفي المستقبل، عندما يعيش أوقاتًا عصيبة (ولن تكون قطعًا نادرة: تهديدات قوى أجنبية، أزمات مالية متولّدة عن كثرة الإنفاق عن

الهيكل وما شابه، مشاكل صحّيّة كخطر سرطان البروستاتا) سوف يلتفتُ إليّ، أنا الرفيقة والصديقة، النجم والدليل في الظلمة، ميناء القيد الثابت للسفينة التائهة التي سوف يصبح. عندئذ، والدمع في عينَيْه، سوف يلفظ أصدق جملة في حياته: "أحبّكِ، يا حمامتي الصغيرة".

(حمامتي الصغيرة: أجل، قرّرتُ أن يناديَني كذلك. الأسود جنب العرش، والحمامة الصغيرة في قلبه، هكذا ستكون حياته. لن يكون في حاجة إلى الحديث مع طائر آخر - فقط مع حمامته الصغيرة.)

كانت كل تفاصيل العملية في ذهني. اكتشفتُ أن القصر، رغم حراسته الصارمة، لا يعدم نقاط ضعف. إحداها كانت "التقاعد" التي تبعد كثيرًا عن خدور سليمان. لم يكن يوجد أيّ جندي هناك. لا شكّ أن أمن القصر رأى أن ذلك غير ضروري. جنود لأجل ماذا؟ للدفاع عن العجائز؟ كان مبنى "التقاعد" إذنْ بلا حماية، وهو يطلّ على غابة زياتين مهملة. عند الدخول من هذه الناحية، لن تجد مجموعة من الرجال العازمين صعوبة لبلوغ الإيوان، لكي يقبضوا - بعد مقاومة ما - على الملك.

المرحلة الموالية تتمثّل في إعلام أبي. أن أحكي له الحكاية كلها، وأطلب منه العون، وأُطلعه على خطّتي. المفارقة أن هذه هي الأصعب في نظري. ليس بسبب علاقتنا السَّيِّئة فحسب، وإنما بسبب مشكل الاتّصال نفسه - وسيلة التّحدّث إليه. بوصفي زوجه، والأنكى، زوجة متمرّدة، ليس لي أيّ إمكانية للخروج من القصر. وما من زيارة مرتقبة لأحد أقربائي قبل سنة على الأقلّ.

الوسيلة الوحيدة هي أن أبعث برسالة. ولكنْ، كيف؟ لن أستطيع اللجوء إلى بريد القصر بطبيعة الحال. بدأتُ أفكّر في وسائل ذكية، رغم كونها متكلّفة، لإيصال رسالة إلى أبي. كأن أستعمل مثلاً حمام الزاجل.

الحمام ليس ما ينقص القصر. كان منه بالآلاف. والحقّ أنه كارثة حقيقية، بسبب الأوساخ التي يتركها، ولكنه كان مع ذلك يحظى بالرعاية والغذاء. كان ذلك بأمر من سليمان نفسه. وحبّه للحمام لم يكن واضح الأسباب. يبدو أنه، لقدرته على محادثة الطير، كان يقيم علاقة خاصّة مع الحمام، أكثر من خادم يؤكّد أنه رأى الملك قرب الحمام يغنّي معه. ثمّ إن تلك الطيور ترمز إلى الحُبّ، كما تشهد عدّة أغان عاطفية، وحضورها في القصر، وخاصّة في حديقة الحريم، يمثّل دعوة لطيفة إلى تجارة الحُبّ، ومكملاً للتوازن أمام طواويس متكبّرة، وُجدت للتذكير بالنفوذ الملكي، وغربان الشؤم التي كانت تندّ أحيانًا وهي تنعق.

كان حمام الحديقة طيّعًا، ولن أجد صعوبة للقبض على حمامة. ولكنْ، كيف أُروّضها؟ كيف أُحوّلها إلى رسول طائر؟ كيف أعلّمها الطريق التي ستتوخّاها؟ الفكرة التي خطرت ببالي هي تعويد حمامة على أكل ثمرة، نوع من الصّبّار لا توجد إلا قرب قريتنا. إذا ألفت ذلك الطعام فسوف تطير بحثًا عنه، وبذلك توصل الرسالة. ولكنْ، كيف الحصول على ثمرة الصّبّار تلك؟ يمكن أن أطلبها من أهلي، ولكنْ، كيف؟ عن طريق الحمام الزاجل؟

ثمّة عقبات أخرى، ينبغي وضعها في الحسبان. الرسالة ينبغي أن تُكتَب على رقّ. وهو ما يمثّل حملاً ثقيلاً، بالنسبة إلى طائر ذي زِنة صغيرة، لأن الرّقّ كثيف ومتين. يلزم على الأقلّ أربع حمائم، تتولّى كل

واحدة حمل ركن من الرّقّ، ما يضطرّني إلى تعليمها الطيران في سرب. وجدتُني إذنْ أمام مشكل، لا حلّ له فيما يبدو، حين جدّ أمر عجيب.

بينما كنتُ في حديقة الحريم، سمعتُ شخصًا يعزف على الناي من الجهة الأخرى للجدار العالي. نغم معروف لديّ، سارع في دقات قلبي: كنتُ سمعتُه من قبل في القرية. قلّبتُ النظر حولي: لا أحد في الأنحاء. تسلّقتُ الجدار، ورأيتُ أني لم أكن مخطئة: إنه الراعي الشّابّ. كان المسكين بوجه ملآن بالندوب، يعزف على الناي، لعل أحدًا يعطيه صدقة. أعترف أني أشفقتُ عليه حين رأيتُه. أحسستُ بعقدة في حَنْجَرَتي، وبضغط في صدري - أهي عودة الشعلة القديمة؟ ربّما، ولكني لم أشأ التفكير فيها. رجلي، الرجل الذي أريد الفوز به هو سليمان.

ناديتُ الراعي. انتابه خوف في البداية، ورام الفرار. ثمّ عرفني؛ حيّاني عندئذ بفيض من المودّة: "كم أنا فرحان بالتّحدّث إليكِ! كنتُ أعرف أنكِ في الحريم، ولكني ما كنتُ أتصوّر أني يمكن أن أراكِ! يقال إن ما من رجل يستطيع أن يراكِ الآن ..". تردّد: أليس الآن بصدد ارتكاب انتهاك وهو يتحدّث إلى زوجة الملك؟ أجبتُ بأن مودّتنا فوق تلك القواعد الغبية. فنحن صديقان قبل كل شيء، وأننا سنبقى كذلك دائمًا. شكرني بحرارة: "أنتِ طيّبة، ذات قلب كبير". ثمّ تنهّد:

"أنا المختلّ، أنا لا أصلح لشيء.

– انسَ ذلك، أجبتُ، ارتكبتُ خطأ، وهذا يحصل".

وقبل أن يغمره الحزن، غيّرتُ الموضوع، وسألتُه عمّا فعل بعد مغادرته القرية. هزّ منكبَيْه:

"لا شيء يُذكَر".

حكى أنه بعد أن تاه طويلاً، بلغ أورشليم، وقرّر البقاء فيها. في الأيّام الأولى، وبفضل بعض الاتّصالات (لم يشأ الدخول في التفاصيل، ولم أسمح لنفسي بسؤاله عنها) سارت الأمور على ما يرام، فقد كسب قدرًا من المال، لا يُستهان به. ولكنه الآن بلا عمل؛ ينام في العراء، ويعيش على الصدقات.

"عُسر، قال بصوت تخنقه الغصّة، عُسر شديد".

تردّد قليلاً قبل أن يسألَني هل أستطيع أن أجيئَه بشيء من الطعام - لم يذقْ شيئًا منذ ثلاثة أيّام. كان ذلك محزنًا، ولكني أدركتُ الفرصة الكبرى التي تُتاح لي.

"أستطيع أن أفعل خيرًا من هذا، أجبت. أستطيع أن أُكسِبَك مالًا".

تريّثتُ قبل أن أضيف:

"إن أدّيتَ لي خدمة".

"أيّ خدمة؟ سأل في أمل كبير".

"أريد أن تحمل رسالة إلى أبي. سيدفع لكَ مبلغًا، يرضيكَ".

"أبوكِ؟" نظر إليّ بادي الرعب. وهذا مفهوم، لأنه لا يزال يحمل آثار رجمه. "ولكن أباكِ يريد قتلي ... بسبب ذلك الخطأ مع أختكِ - عليها اللعنة".

كانت تلك الملاحظة الأخيرة مفاجئة، ولكنها مقبولة. فلا شكّ أنه

أحسّ أن أختي خذلتْه. فهي لم تحمل وزر ما ناله فحسب، بل استبدلتْه. ليس هذا وقت الحديث عن ذلك الموضوع. لا بدّ أن أُقنعه بإبلاغ الرسالة. ألححتُ: "عندما يعلم والدي بفحوى الرسالة، فسوف يعترف بجميلكَ. بل قد يقبل عودتكَ إلى القرية".

التمعتْ عيناه: واضح أن تلك هي أُمنيّته الأغلى. وافق في الحال.

"حسنًا. يمكنكِ الاعتماد عليّ. أين الرسالة؟

شرحتُ له أني لم أكتبها بعد. كان يجهل قدرتي، إذ وسّع عينَيْه من شدّة الدهشة: امرأة، تكتب؟ كبرتُ فورًا في تقديره. لم أكن الدميمة بنت البطرك، كنتُ المتعلّمة - وزوجة ملك فوق ذلك. كان إعجابه عزاء لي، ولكني لا يمكن أن أضيع مزيدًا من الوقت في المسائل العاطفية، قد يراني أحدٌ ما، فأكون في مأزق. قلتُ له أن يعود هنا بعد ثلاثة أيّام. "وكيف سنلتقي؟" سألني.

– ستفعل ما فعلتَهُ اليوم، تعزف على الناي. النغم نفسه. وسوف أرمي لكَ بالرسالة. اتّفقنا؟

– "اتّفقنا". تردّد قليلًا، ثمّ أضاف بنبرة، لا يُشَكّ في نزاهتها: "أودّ أن تعرفي أني أحبّكِ حبًّا جمًّا".

هل كان ذلك بوح عشق؟ ولو كان كذلك، فهل نشأ الحُبّ؟ ولو صحّ، فهل ينبغي تشجيعه؟ لماذا؟ وكيف؟

لا يمكن الإجابة عن هذه الأسئلة. لا سيّما أن مغازلة من هذا النوع، عاجلة وعلى جدار، تخدش كبريائي. ثمّ إن لي زوجًا، زوجًا غريبًا، ولكنْ،

زوج على أيّة حال، وهو الذي أريد الفوز به، وليس الراعي الشّابّ. اكتفيتُ إذنْ بأن قلتُ له إني أكنّ له الودّ أنا أيضًا، وإني أفكّر فيه بحنان، وهبطتُ إلى الأرض. في الوقت المناسب. كانت رئيسة الحريم قد أقبلت في نطاق تفقّدها المعتاد.

"ماذا تفعلين هنا؟" سألتْ في نبرة، لا تخلو من ظنّ، وقد غدوتُ شخصًا ينبغي مراقبته، عن كثب.

غيّرتُ مجرى الحديث، وقلتُ كلامًا عن التّجوّل في الحديقة. نظرتْ لي من جديد نظرة شكّ - ما الذي تعدّه الدميمة مرّة أخرى؟ لقد تسبّبتْ في ارتخاء عضو الملك، هيّجت النساء، وكأن ذلك لا يكفي، ها هي لا تزال تبحث عن مشاكل أخرى -، ولكنها ابتعدت دون أن تقول شيئًا.

حسنًا. مسألة الرسول حُلّت. عليّ الآن أن أكتب الرسالة. أين أجد العُدّة اللازمة؟ لن يكون ذلك سهلاً. النّسّاخون وحدهم يملكونها. هم لا يُرَون إلا لمامًا. كانوا يعملون في عزلة، داخل قاعة مغلقة، لا يدخلها إلا الملك. حتّى لو استطعتُ الحديث إليهم، فلن أعرف كيف أطلب منهم رقًّا. قد يبدو الأمر غريبًا، ويجلب الانتباه. وجلب الانتباه هو آخر ما أريد.

لم يبق إلا اللجوء للرشوة. بالقطعة النفيسة الوحيدة التي أملكها، سوار صغير من العاج والذهب (هدية من أمّي، لا من سليمان الذي لم يكن يهدي أيّ شيء لزوجاته وعشيقاته: لا أريد أن أظهر انحيازي"، كان يقول؛ حكمة أو بخلًا، تلك هي القاعدة)، رشوتُ حارسًا، جاءني

برقّ وقلم ودواة. وفي ليلة، على ضوء القمر، كتبتُ رسالة إلى أبي حين كان الجميع نائمين.

ويا لها من رسالة كانت! يا لها من رسالة! كنتُ مُلهَمَة. لم أقتصر على الأحداث الأخيرة. عدتُ إلى الماضي: النفور الذي لقيتُه من سليمان لم يكن حادثة معزولة. بالعكس هو يندرج بشكل طبيعي في تاريخي كمخلوق دميم ومنبوذ. كانت تلك نتيجة متوقّعة من علاقة إشكالية بين أب مستبدّ جافٍ، وبنت حسّاسة ومريرة. تحدّثتُ عن مخاوف هذه البنت وتطلّعاتها، عن الأمل الذي عقدتْه على حنان رجل، آلت إليه. وصفتُ في عبارات نارية الإذلال الذي لقيتُه والذي يصيب كل الأسرة، وشجرة العائلة بتمامها وكمالها - حتّى أصغرِ برعم في أصغر غصن. وختمتُ بدعوة أبي إلى مساعدتي، باسم كل الأجداد. بعد هذه المقدّمة الطويلة المبينة، دخلتُ في التفاصيل العملية بشرح دقيق لما يمكن فعله لاقتحام القصر واحتجاز الملك.

وختمتُ الرسالة في اليوم الذي سيقترب فيه الراعي الشّابّ من القصر. كان عند وعده. سمعتُ صوت الناي في الساعة الموعودة. هرعتُ إلى الحديقة، ورميت الرّقّ من فوق الجدار. قُضي أمره. لأوّل مرّة منذ زمن طويل، سألتُ يَهْوَه العون، وإيصال الرسالة إلى متلقّيها. فأحسستُ ساعتها بهدوء وسلوى. لقد قمتُ بما ينبغي القيام به، ولم يبقَ إلا التّحلّي بالصبر.

وها إن مفاجأة كانت في انتظاري.

في أوّل الليل، جاءتْني رئيسة الحريم.

"الملك يطلبكِ".

لم أصدِّق أذنيّ. الملك يطلبني؟ الملك الذي طردني من خدره قبل بضعة أيّام؟ الملك الذي صدّني بكيفية فظّة وجذرية؟ ماذا يريد منّي؟ مذهولة، لم أعرف في ما أفكّر. هل قرّر سليمان أخيرًا أن يلبّي التزاماته؟ لعلّ سُمعته كعاهل، والمعاهدات المستقبلية التي سيوقّعها مرهونة في جانب كبير منها بقيامه بواجباته الزوجية. مَنْ يدري؟ لعلّه احتاط ضدّ خطر إخفاق جديد، مادّة مهيّجة للشهوة الجنسية مثلاً ... أو هي حصّة قصف ولهو صاخب، تستثيره خلالها نساء أخريات، فيستغلّ فرصة حميته، ليضاجعني بكيفية أو بأخرى.

ثمّة فرضيّة أخرى، ولكنها بصراحة من باب المعجزات: أدرك بغتة أن شعوره نحوي في الواقع هو الحُبّ، وهو يطلبني ليقول لي إن ذكرى يَدَيّ أو جسدي (وليس وجهي) أثّرت فيه مثل شراب الحُبّ - ولو بمفعول لاحق ...

ثمّة احتمال ثالث، معتم لا محالة، ولكنْ، لا يتعارض مع ماكيافيلية الملكية: سليمان أوكل افتضاض بكارتي إلى شخص آخر، وعهد إليه بمهمّة، لا بدّ أن يؤدّيها كَسِرٌّ من أسرار الدولة. فرضيّة مهينة، ولو أني أقبل بزوج بديل، مؤقّت، بشرط أن يعوّض في الوقت المناسب بحبيبي سليمان. التضحية تستحقّ ذلك.

في كل الحالات، ثمّة شيء أكيد: أني تعجّلتُ في إرسال المكتوب إلى والدي مثلما تعجّلتُ في طلب المساعدة البريدية للراعي الشّابّ. الأنكى أن الفتى مضى في سبيله، يتحرّق إلى إنجاز مهمّة، يمكن، حسب ظنّه، أن تصالحه مع والدي. كان لا بدّ أن أُوقفَه، ولكنْ، كيف؟ بالركض

وراءه؟ لا أستطيع، وعلى أيّ حال، لن يجدي ذلك نفعًا، فلن ألحق به. أفضّل أن أذهب حالًا إلى الملك. كل شيء يمكن أن يُحلّ بأحسن الكيفيات (أي بمضاجعة حامية معه هو أو مع شخص آخر يُعيّنه)، وسوف أحكي له ما جرى، وأطلب منه الصفح، ومساعدتي على منع الهجوم المشؤوم الذي يشنّه أبي. وبما أن سليمان حكيم، فسوف يتفهّمني، ويرسل فرسانه السريعي العَدْو في أثر الراعي الشّابّ، فتُحتجز الرسالة، ويتلقّى الراعي في المقابل عددًا وافرًا من العنز. سيتمّ كل شيء على أحسن وجه، وسنعيش في سعادة دائمة.

في إطار هذه الآفاق الرائعة، لبستُ ثيابي على عجل، وطلبتُ المزيّنة فورًا.

"لا داعي لذلك، استوقفتْني رئيسة الحريم. اليوم لا داعي لذلك.

– كيف، لا داعي؟ قلتُ مذهولة. ولكن الملك ...

– الملك قال لا داعي. هيّا بنا، هو ينتظركِ".

مرّة أخرى، السير على طول الممرّات المعتمة التي لا تنتهي، ولكنْ - مفاجأة - ليس باتّجاه خدر الملك. توجّهنا بدل ذلك نحو الإيوان، وهو ما حيّرني - وأخافني. "لماذا نسير في هذه الناحية؟" سألت رئيسة الحريم. "سترينَ"، أجابت. تركتْني عند باب القاعة، وتولّتْ.

أدخلَني شخصان من الحاشية. كان الملك جالسًا على العرش. كادت قواي تخور، إذ رأيتُه: كان بيده رقّ. رقّي! الرسالة التي بعثتُ بها إلى والدي.

لم أدرِ ماذا أصنع. هل أركع وأطلب العفو؟ هل أحاول تفسيرًا: "ليس ذلك ما أفكّر فيه، يا مولاي، هي مُجرّد مزحة، لعب بين أب وابنته"؟ لم يقرّ قراري، فبقيتُ واقفة جنب الجليسَيْن. أمّا الملك، فاكتفى بأن نظر إليّ بتركيز، نظرة تفتيش. كان السكون في القاعة لا يُحتمَل. كان مهدِّدًا.

"اعترضتُ رسالتكِ منذ قليل، قال أخيرًا، في لهجة حيادية واضحة. قلّة كياسة من جهتي، أقرّ بذلك، ولكنْ، بما إنكِ لم تستعملي بريد القصر، أحسستُ أن ذلك من حقّي. زيدي على ذلك، ينبغي الإقرار بأن القضية تخصّ أمن المملكة. وجدتُ نفسي إذنْ مجبرًا".

رغم الفزع، لم يكن من الصعب أن أُعيد تجميع ما جرى. عندما ألقيتُ الرسالة من فوق الجدار، كان حرّاس القصر قد أوقفوا الراعي الشّابّ. وهم يستنطقونه وقع من السماء، إن جاز القول، هذا الشيء الفريد - رقّ مربوط بوشاح. سلّمه الحرّاس إلى قائدهم، الذي رأى فيه قضية خطيرة، فحمله إلى الملك نفسه.

"تآمر ضدّ العرش، واصل سليمان. قضية خطيرة. هل تعرفين أني يمكن أن أحكم عليكِ بالإعدام؟".

طبعًا أعرف. لأمرٍ دونه أمر أبي برجم الراعي. القانون متصلّب في هذه البلاد: العين بالعين، والسّنّ بالسّنّ. لكنْ، لو يظنّ أني سأرتمي على الأرض باكية، وأطلب العفو، فهو مخطئ. لي قدْر ناجز من الإهانات. ليأمر بقتلي، فذاك من حقّه. ولكني سأموت في صمت، بكرامة.

ولكنْ، لم يبدُ عليه أنه يفكّر في إعدام. لا أثر لتهديد في نظراته. بالعكس، كأن الوضع يسلّيه. ويعطيه أفكارًا، كما اكتشفتُ لاحقًا.

طلب من الحَرَس والحاشية أن يتركونا وحيدَيْن. نهض، نزل درجات العرش، فقادني إلى كنبة، ودعاني إلى الجلوس بجانبه. تطلّع إلى الرّقّ من جديد.

"إنه مكتوب كتابة جيّدة. هذا عمل يجعل أيّ كاتب يغار".

نظر إليّ مليًّا.

"شخص كتبه لأجلكِ؟".

وضعني السؤال في موضع دفاعي. هل يبحث عن دلائل تآمر على القصر؟ لن أكذب على أيّة حال. قلتُ كلّا، وإني من زمن أُحسن القراءة والكتابة.

"رائع. أنتِ أوّل امرأة متعلّمة صادفتُها"، أكّد بإعجاب، دغدغ بملذّة ذاتي والحقّ يقال. تعويض بائس عن – الإيروسيات - المداعبات، ولكني في هذا الحالة لم أكن في وضع مَنْ يشترط المزيد.

"إضافة إلى ذلك، أنتِ تكتبين بجودة عالية. لا أستطيع التّوقّف عن القراءة، رغم أني لستُ قارئًا مواظبًا. حكمتي متأتّية من التّأمّل، لا من الكُتُب. وممّا يعلّمني الطير".

مديح مفاجئ، شكرتُه عليه، وأنا محتاطة نوعًا ما: صدقة كبرى لقدّيسة خاشعة. هل ثمّة شيء وراء هذا؟ نعم.

"سأقدّم لكِ اقتراحًا، قال. ولكنْ، دعيني أسألكِ أوّلًا: هل تعرفين الهيكل الذي بنيتُه؟ هيكل أورشليم؟".

نعم، أعرف الهيكل - من الخارج، لأنه يمنع على النساء دخوله. ذلك البناء الضخم الفاخر لا يروقني كثيرًا. ولكن سليمان يعدّه أهمّ إنجاز في عهده. بدأ يحدّثني عن الهيكل. كان حُلمًا قديمًا، ليس حُلمه وحده، بل حُلم كل الأجيال التي سبقتْه. وقد عاد إليه هو أمر تحقيقه. لم يألُ جهدًا في هذا الغرض. كانت سفنه تعبر البحار بحثًا عن الذهب والخشب الثمين، وتبلغ أصقاعًا نائية، يسكنها رجال سمر البشرة، يعيشون عراة، ويتحلّون بريش الطيور، ويتكلّمون لغة مجهولة. جُنّد آلاف العمّال، ورُصدت مبالغ ضخمة، ولم تمضِ ثلاث عشرة سنة حتّى كان جاهزًا عمليًّا - كدليل على حضور الرّبّ، ورمز للوحدة الدينية. كان الحجيج يأتونه من كل البلاد للعبادة، وإقامة الأضاحي. وعلاوة على كونها عاصمة سياسية، صارت أورشليم مدينة مقدّسة. وهو ما يعدّه نجاحًا خاصًّا، تتويجًا له. صحيح أن نصف الطريق قُطع بفضل فكرة ربّ وحيد. ساعده في ذلك حظر الأصنام، لأن كل صنم كان تعبيرًا عن مجموعة، وكل مجموعة لها مصالحها الخاصّة. الهيكل يمثّل تجاوزًا لفكر العشيرة. ويعبّر عن الوحدة الوطنية.

"ولكنْ، قال معدِّلًا قوله بحزن، يكاد لا يخفى، هو أثر ملموس، شيء مادّيّ. أرجو أن يصمد لعدّة قرون، ولكنْ، مَنْ يضمن ذلك؟ مَنْ يضمن أنه لن يُهدَم؟ لا أريد أن أُذكَر عن سبيل آثار. أريد أن أُذكَر بشيء خالد. تعرفين ماذا؟".

تريّث قليلًا، رمقني بنظرة، ثمّ أضاف بلهجة رسمية:

"كتاب. كتاب يحكي قصّة البشرية، قصّة شعبنا. كتاب يكون قاعدة الحضارة. الكتاب، طبعًا، بما هو أداة، قابل للتلف هو أيضًا. ولكنْ،

ليس محتواه. هو رسالة تُنقَل من جيل إلى جيل، ويبقى في أذهان البشر. وينتشر في العالم. الكتاب ديناميّ. الكتاب يُنثر كالحبوب التي تحملها الريح".

أمسك بيدي. إلهي، لقد أمسك يدي، حبيبي أمسك يدي، أخيرًا، حدث هذا، إلهي، دعه يقل لي الآن - الآن! - إنه يحبّني، دعه، يا إلهي، أرجوكَ!

لا:

"أريدكِ أن تكتبي هذا الكتاب. أريدكِ أن تصفي مسيرة شعبنا. أريدكِ أن تتحدّثي عن بطاركنا، وأنبيائنا، وملوكنا، ونسائنا. أريده سردية جميلة، في جودة هذه الرسالة التي أرسلتِها إلى أبيكِ. أريد كتابًا تقرؤه الأجيال باحترام، وافتتان أيضًا".

وجدتُ نفسي منذعرة، وهذا أقلّ ما يمكن قوله.

كتاب؟ ذلك إذنْ ما يريده منّي؟ كتاب؟ لم يكن يريد حملي إلى الفراش، وممارسة الجنس معي - كان يريد كتابًا؟ أيقظ الاقتراح فيّ أحاسيس متناقضة. من ناحية، كانت خيبة - واحدة أخرى: بدل إعلان حبّ، مقترح كتابة. إلا أني، من ناحية ثانية، أحسستُ بالثناء في اختياره - وهو دليل على اعترافه بشيمة فيّ. ليست الشيمة التي أعدّها الأفضل. أردتُ أن يعترف بي كامرأة، كعشيقة. هذا لم أحصل عليه - لحدّ الآن. صبرًا. على أيّة حال، هو تغيّر، تغيّر خارق: من منبوذة - أدهى من ذلك، من محكوم عليها تقريبًا -، انتقلت إلى متعاونة. ما يضعني في وضعية شديدة الخصوصية. من الآن فصاعدًا، سأكون في وجه من الوجوه، إلى جانبه - الملك الحكيم وزوجته المثقّفة.

ولكنه عمل جبّار أن أكتب الكتاب الذي يطلبه. ليس لي أدنى فكرة في ما ينبغي فعله، لا أدري حتّى كيف أبدأ. فجأة، استبدّ بي الإحباط - إن لم أقل الرعب. أدركتُ أن مخاطر الفشل كبيرة. والفشل - فشل آخر - لن أقدر على تحمّله في هذه المرحلة. فشل بوصفي كاتبة، وفشل بوصفي زوجة، وفشل بوصفي امرأة - أهذا كل ما تخبّئه لي الحياة؟ لمَ لا تتركني في أمان، هذه الحياة؟ كنتُ هناك، مطمئنّة، لائذة بالجبل، أنا ودمامتي، أنا وحجري. انتُزعت من كل ذلك - لأجل ماذا؟ للعذاب، والخيبة، ومواجهة تحدٍّ أكبر من قواي المتواضعة؟

دون أن يلحظ قلقي، واصل:

"لا تظنّي أنها تمجيد لشخصي. أرغب في أكثر من فصل وحيد يخصّني، ويمكن أن يكون قصيرًا. شيء بسيط، تأليفي. بطبيعة الحال، سيكون من ضمنه بناء الهيكل، بصورة مفصّلة. ولكنْ، ليس من المفيد أن تذكري أني أتكلّم مع الطير. هذا ستتكفّل التقاليد بحفظه. حسبكِ أن تتحدّثي عن إنجازاتي وولعي بالحكمة".

رازني بنظرة:

"أتصغين إليّ؟ هل تصغين إلى ما أقول لكِ؟"

أجبتُ أن نعم، أني أصغي إليه، وأنتبه لما يقول.

"كأنكِ سارحة، لاحظَ غاضبًا. أريد تذكيركِ بأننا نتحدّث عن مهمّة. وأريد تذكيركِ أيضًا بأن ثمّة تهمة مسلّطة عليكِ".

أدرك في الحين أنه ارتكب خطأ. إن كان يرغب في مساعدتي، فلن يحصل عليها بالتهديد والعتاب.

"قد تتساءلين"، أردف قائلاً، لأيّ سبب أطلب تعاونكِ. قد تقولين في نفسكِ إن من المستحيل ألا يكون لملك بهذه العظمة شخص يكتب له الكتاب الذي يرغب فيه. أجيبكِ: حاولتُ كثيرًا. لا تتصوّرين الجهد ...

توقّف عن الكلام فجأة:

"تعالي معي. أريد أن أريكِ شيئًا".

عبرنا قاعة العرش، وبلغنا بابًا صغيرًا مَخفيًّا بستار، يفتح على قاعة شاسعة عفنة الرائحة. من البلاطة إلى السقف، رفوف ملآنة مخطوطات، وحول طاولة كبيرة يجلس ستّة شيوخ ناشفين بلحى بيضاء كلهم. ما إن دخلنا حتّى قاموا وهم ينظرون إليّ نظرةَ فُجاءة مستاءة: لا حقّ للنساء في ارتياد ما يُعدّ على أغلب الظّنّ عرين المعرفة في القصر. ولكن الملك كان حاضرًا، وهذا هو الأهمّ. أحاطوا به متجاهلين وجودي، وبدؤوا الحديث معًا، في الوقت نفسه، في خليط غير مفهوم ولا محتمل. ظلّ سليمان هادئًا.

"جميل، سادتي، جميل. سوف نتحدّث عن هذه المسائل لاحقًا".

خرجنا، وأغلق الباب خلفه. التفتَ نحوي ببسمة كئيبة.

"أرأيتِ؟ أولئك هم الرجال الذين عهدتُ إليهم بالمهمّة. منذ عشر سنوات وهم يشتغلون عليها: يتحدّثون، يتحدّثون، يتحدّثون، ويكتبون، يكتبون، يكتبون - ولا شيء يظهر. هم يعرفون ما ينبغي معرفته، ولكنهم يتخاصمون، بشكل يجعلهم لا يتّفقون على النّصّ النهائي. لذلك دعوتُكِ. أوّلًا لأنكِ لا علاقة لكِ بهم: أنتِ امرأة، امرأة ذكية وحيوية.

ثانيًا، أنتِ تكتبين أفضل من أيّ واحد منهم، أو منهم كلهم مجتمعين. رسالتكِ هي الدليل. قرأتُها ثلاث مرّات على الأقلّ".

تذكّر شيئًا سلاّه:

"تلك الفقرة التي تصفينني فيها كزوج عديم الإحساس ... جميلة جدًّا. كدتُ أقتنع بدناءتي. أرجو أن تعيدي إليّ اعتباري بالمهمّة التي أكلّفك بها ..".

إلهي، قد أكون مُرخية أعضاء، ولكنْ، نبيهة، كنتُ أيضًا. أذابني الإطراء غير أني حافظتُ على برودة دمي، وإذا تركنا التواضع جانبًا، فإني ماكرة أيضًا، على قدر مكره. كان يمكن أن أقول له: "أُنجز الكتاب، إن أنتَ نكحتَني". ولكنْ، لم يكن الوقت مناسبًا لمثل هذا الشرط وبذاءته الفجّة. كلاّ. عندما أنتهي من العمل، عندما أحمل إليه الأعمال الكاملة قائلة: "هذا هيكلكَ الأدبي، يا سليمان"، عندئذ لن يصمد، وسوف يقع في حبّي. لن أكون عندها زوجته المتعلّمة فقط، بل الملكة، قانونيًّا وعمليًّا.

مفتونةً بنباهتي، داخلني رغم ذلك شكّ. مَنْ منّا، نحن الاثنين، يخدع الآخر؟ سؤال أكثر من وجيه. لأني كنتُ بصدد التعامل مع أحكم الفانين، الرجل الذي يعرف كل شيء عن خُلْد الماء، ويتكلّم لغة الطير ...

بيد أني كنتُ على استعداد أن أخوض دورة حيلة: كان الاقتراح يفتنني مثلما تفتنني عيناه السوداوان العميقتان. صياغة هذا الكتاب لن تكون إنجازًا لصالحه، بل لصالحي. لن يكون لي أبدًا هيكل أبنيه، ولكنْ،

الأثر الذي يفكّر فيه، أجل، كان طوع يدي، ولو أفنيتُ عمري كله في كتابته. في هذه المهمّة، سنكون اثنَيْن، أنا وهو. إن لم نتقاسم الفراش، فسوف نتقاسم الغاية نفسها. سيكون النّصّ ملاذًا نسكنه، أنا وهو، بعيدًا عن الزوجات السبعمائة والعشيقات الثلاثمائة، بعيدًا عن العرش والأسود، بعيدًا عن الحمام الذي يذرق في كل مكان، بعيدًا عن المكائد السياسية، والجلسات العامّة. والحقّ أن فكرة تأليف كتاب بدت لي الآن مثيرة إلى حدّ جعلني أحسّ بأني جُوزيتُ لمُجرّد أني سأغوص فيه، وأتبع خطّ السردية كسائرٍ في متاهة. تلك المنطقة المجهولة التي سأقتحمها عمّا قريب، لعلّي سأجوبها بالسهولة نفسها التي كنتُ، وحيدة، أجوب بها الجبل من قبل. افرض أني سأصادف كهفًا في طريقي ... افرض أن الأستاذ سليمان سوف يقبل الدخول إليه بصحبتي ...

كانت الأوراق على الطاولة إذنْ (في الكَمّ طبعًا عدّة أوراق في عدّة أكمام، ولكنها سوف تُلعَب في وقت لاحق). كنتُ قد اتّخذتُ قراري، فلمّا سألني بلباقته المعهودة هل أقبل المساهمة في هذه المهمّة، لم أتردّد: "اتّفقنا!" أجبتُ. وأضفتُ، في نوع من الجرأة: "يمكن أن أبدأ الآن، إن لزم الأمر!".

تبسّم - في تلك اللحظة، أيقنتُ أنه لم يعد يراني دميمة، وأنه اكتشف فيّ جمالًا خافيًا، جمال الذكاء والثقافة.

"كنتُ أعرف أني يمكنني الاعتماد عليكِ. سأُعلِمُ الشيوخ بأنكِ من الآن المحرّرة الرسمية. يمكنكِ أن تبدئي العمل من الغد".

ليس من عادة الملك أن يمزح مع الخادمات. نُقلت من الغد إلى شقّة، هُيِّئت لي خصّيصًا. هناك سوف أُقيم حتّى انتهاءِ العمل. وكما

قال لي بنفسه، لا يريد أن تلهيني خلافات الحريم. ثمّ إن العمل ينبغي أن يظلّ سرِّيًّا حتّى غايتِه. لأسباب عديدة، أهمّها أنه كان يخشى المنتحلين وما يمكن أن يفعلوه بالنّصّ. قد يقدّم قائد من المعارضة نفسه للجماهير كمؤلّف مصنّف كبير، لتاريخ شعبنا، فيحوز فورًا آيات تقدير وإجلال، تجعله منافسًا خطرًا. بفضل حكمته، كان سليمان يخشى الأفكار قدر خشيته الأسلحة.

كان المكان شاسعًا. علاوة على الفراش والخزائن، ثمّة طاولة ضخمة، وكراسيّ ورفوف ملآنة بمخطوطات، نُقلت في صباح ذلك اليوم من قاعة القدماء. كان هذا الإجراء رسالة واضحة من سليمان إلى فريقه: "ثمّة شخص جديد على الخطّ، أيّها الأصدقاء، تأقلموا أو انسحبوا".

على الطاولة أدوات كتابة، بما فيها رقّ جديد. شممتُه: جلد عنزة. المسكينة كانت تضحية لأحرف، لا تزال تتموّج في رأسي، وتتحوّل إلى علامات غير مفهومة، وإلى كلمات. تلك الأحرف حين تُوضَع على طول الأسطر سوف تُحدِّد الطريق التي تقودني إلى النصر- وإلى قلب الملك. رقٌّ مبارَك. كان مستقبلي الذي أراه على تلك الصفحة العذراء، مستقبلاً مجيدًا وسعيدًا.

قضيت عدّة أيّام في قراءة المادّة التي جمّعها القدماء. كان الملك على حقّ: هي سَلطة حقيقية، خليط مُلتبس من الأساطير، والأحداث التاريخية، والتعاليم الدينية، حُرّر كله بشكل رديء، وبأخطاء إملائية. كوسيلة دَخْل، فذلك جيّد، ولكنْ، ككتاب يرغب سليمان في إعداده، عليّ أن أستأنف من البداية. عندما أدركتُ ذلك، تخلّتْ عنّي شجاعتي من جديد. فجأة، انهرستُ تحت عظمة المهمّة. فجأة، لم أعد المرأة المطمئنّة، الواثقة من نفسها، بل طفلة مروّعة؛ كل ما أريده أن تضعني

أمّي على ركبتَيْها كما كنتُ طفلة ترتمض من الحمّى. طرحتُ الرقوق جانبًا، ونمتُ، مهدودة.

ولكنْ، لا - لا يمكن أن أنساق إلى اليأس. لا بدّ أن أتغلّب على هذا الخمول، هذه الكآبة الرصاصية التي تهدّد بالاستيلاء عليّ، وربّما حبسي إلى الأبد. عندي حكاية أحكيها - عندي حكاية كبرى أحكيها - وسوف أفعل. قفزتُ من الفراش مدفوعة بلولب، عدتُ إلى الطاولة، ومسكتُ القلم. إلا أني تردّدتُ. كيف أبدأ؟ أغمضتُ عينَيّ - وفي تلك اللحظة، أبصرتُ أمامي كتلة عظيمة، غير واضحة، حضورًا شفّافًا ثابتًا على محيط معتم لا نهائي. ذلك كل ما رأيتُ، ولكنه كان كافيًا. في جزء الثانية التي استغرقتْها تلك الرؤية، انتابني من الكتلة البعيدة نوع من التّوتّر المحبوس للأزل كله: توتّر الكون في مخاضه، ولم يكن قد خُلق بعد، توتّر الزمن المتوقّف، على أهبة إطلاق مَدّه. بكيفية ما، كسرٌ متناهي الصغر لتلك الطاقة التي لا يمكن حسبانها انتقل إليّ. كان ذلك كافيًا. غمستُ القلم في الحبر، وكتبتُ: "في البدء".

وهنا توقّفتُ. لم أدرِ كيف أُواصل. بين التّوتّر والفعل، سقط الظّلّ، اللغز. في البدء - ما الذي حدث في البدء؟ كان رأسي أجوفَ، فارغًا. لم أعد أذكر ماذا قرأتُ في أكداس المخطوطات. الكلمات التي اخترتُها بنفسي، بدت لي لغزًا أكثر من شيء آخر. أشحتُ بوجهي، ولم أعد أركّز على الكلمات بل على الرّقّ، وصفحته الحثراء.

الرّقّ. منه هو ينبغي أن أعود إلى الأصول؛ من جلد الحيوان المضحّى به؛ كي أكتب ذات يوم عليه. الجلد قبل الجلد، العنزة؛ قبل العنزة، الأوراق التي مضغتها؛ قبل الأوراق، الشجرة، الأرض، الكون. ينبغي إعادة

قراءة هذا التاريخ، ما يعني أن أتقهقر زمنيًّا قرونًا وألفيّات، وأُلقي بنفسي في الحساء النجمي الذي سيقودني ... إلى أين؟ اللعنة، لم أكن أدري؛ هذا سيقودني، بسرعة مذهلة، إلى الجنون، ليس الجنون العادي، كلّا، بل جنونٌ وجوديّ، شيء بالغ الجدّيّة، شيء يصلح لفيلسوف، وليس لبنت دميمة. ما العمل؟ لننطلق من الرّبّ نفسه، فكّرتُ بعد يأس، فشملني ارتياح كبير. الرّبّ: هي ذي فكرة يمكن أن أستريح لها. كلّا. هي فكرة يمكن أن أتحلّل فيها، أكثر من الملح في الماء. العنزة التي كانت تثغو في الماضي، يتّهمني جلدها في الحاضر. انطلقتُ من الرّبّ. لِم الرّبّ لا الرّبّة؟ لمَ يَهْوَه لا عشتارت، الإلهة التي كانت تعبدها شعوب أخرى في المنطقة؟ لمَ لحية، وليس وجهًا أمرد، به بضع بقع على الأكثر، وربّما كثير؟ لسبب وحيد وبسيط: لا أريد أن أبدأ كتابًا عظيما بخلق مشكل، ولا سيّما مع الشريك الموصي. سليمان يتحدّث عن الرّبّ، الشيوخ يتحدّثون عن الرّبّ، أبي يتحدّث عن الرّبّ. يا ربّ! تصرخ صخور الجبل. يا ربّ! تصيح الطيور والمغنّون والبُكم. الرّبّ إذنْ. الرّبّ في ذهني، هو الطاقة الخلاقة، وليس صورة تشبيهية تجسيمية(*) تهيمن على الكون. أن يتمثّله سليمان والآخرون إنسانًا لا يهمّني. سوف أُعرب عن شكّي واحتجاجي، عن طريق الامتناع عن وصف الإله. أن يتخيّلوه شيخًا بلحية بيضاء، وعين صارمة، لا يهمّني كثيرًا.

"في البدء، خلق الرّبّ السماوات والأرض". ها قد كتبتُ. وإذ كتبتُ الجملة، غمرتْني غبطة مباغتة. جعلتُ أضحك. أمعنتُ في الضحك حتّى إن أحد القدماء -كانوا في القاعة المجاورة- جاء يستطلع الأمر. دخل دون

(*) Anthropomorphique: تلك التي تقوم على خلع الصفات البشرية على الله وتشبيهه بالإنسان.

أن يطرق الباب و - عقابًا مستحقًّا - وجدني أمام الرّقّ والقلم في يدي. في نظره، حصل المكروه: كنتُ بصدد كتابة التاريخ الذي كان ملكًا حصريًّا لهم - هم القدماء. لم يملك زمام نفسه: أطلق صرخة مقتٍ، وفرّ.

لن يضيرني ذلك. بما أني بدأتُ مهمّتي، فسوف أواصل. "وقال الرّبّ: ليكن نور، فكان نور". رائع، لدينا النور بعد - والظلمات أيضًا، فلا ضوء من دون ظلام، ولا ضياء بلا ظلّ. في الفقرات الموالية خلق النبت والنجوم والسمك والطيور. كل ذلك بشكل سريع، وهو ما كان جيّدًا من ناحية - إذ كنتُ أتقدّم بسرعة ملحوظة -، ولكنْ، من ناحية أخرى، لم يكن ذلك يُعجبني كثيرًا. خيّرت لو كانت ثمّة تفاصيل أكثر. كيف خلق الرّبّ الخَسّ؟ وسمك لمباري(*)؟ وددتُ وصف الرّبّ وهو يصنع سمكًا عاديًّا، ويتخيّر الحراشف والزعانف، قائلًا: "همم، لا أُحبّ كثيرًا شكل هذا الرأس، الذنب يمكن أن يكون أكبر قليلًا". والحقّ أن ذلك قد يكون من مشمولات مكتب الطّرف والنوادر، وليس نصًّا مقدّسًا. الجمع بين الطريحة والنقيضة مسألة أساسية لفرض الاحترام. ثمّ إني ليس لي وقت لا يُحدّ. نظرًا لشُسوع المهمّة، لا بدّ أن أسرع. حصرتُ عملية الخلق في ستّة أيّام، ثمّ يوم سابع للراحة، مع التلميح بأن السرعة في هذه الحالة ليست عدوًّا للإتقان: "ورأى الرّبّ كل ما عمله فإذا هو حسن جدًّا". لم أشأ وضع لفظة "تامّ" أو "ممتاز" أو "رائع"، لأن الخالق من واجبه أن يكون متواضعًا قليلًا. لنقل إنه في سلّم من صفر إلى عشرة، كان يسند إلى نفسه ثمانية، باعتبار النقص الكائن في الزواحف والدميمات.

كانت هذه المقدّمة سهلة. لكني توقّعتُ صعوبات بعدها. أي

(*) Lambari: سمك برازيلي، لا يتعدّى طوله العشرة سنتمترات، يعيش في السباخ المالحة، ويحتمل الحرارة المرتفعة.

ما يتعلّق بخلق أوّل إنسان وأوّل امرأة. القدماء كتبوا أكداس رقوق في هذا الموضوع - قراءة قاحلة ورتيبة سرعان ما تخلّيتُ عنها. حول ثيمة الرجل-المرأة، المذكّر- المؤنّث، سأُسلّم الأمر لغريزتي. وكان من السهل أن أترك غريزتي تتكلّم.

حسب الشيوخ، خلق الرّبُّ الإنسانَ من طين. لا اعتراض لديّ على هذه المادّة الأوّليّة المتواضعة. ولكنْ، لماذا الرجل أوّلًا، وليس المرأة؟ ولماذا خُلقت المرأة بطريقة مختلفة؟ حكاية الضلع تبدو لي في أبسط الأحوال ساذجة، حتّى لا أقول مهينة، إذا عددْنا تواضع ذلك الجزء الجسدي.

قرّرتُ إذنْ أن أُصوّب مثل تلك الهنات بالاستناد إلى مخيّلتي. بعد خلقهما، فُتن الرجل الأوّل والمرأة الأولى ببعضهما بعضًا، وجعلا جنّات عدن مسرحًا لعشقهما. كانا يمارسان الجنس في كل مكان، على العشب، على الرمل، تحت فيء الشجر، قرب الأنهار. يمارسان الجنس بغير انقطاع، كأن الأزلية التي سبقت خلقهما لم يكن لها غير عشقهما في شكل طاقة مركّزة على أشدّها. لقاؤهما كان إذنْ بمثابة بيغ بانغ(*) الجنس، كثير من البيغ وكثير من البانغ. كل الوضعيات مُورسَتْ، كل المنوَّعات جُرّبَتْ، تحت الأنظار الفضولية للعنز وخلدان الماء، حتّى تحت النظر الحليم للرّبّ.

ففي روايتي، لا يطردهما الرّبّ من الجنة. بالعكس، كان يشجّعهما: "الآن وقد اكتشفتُما الحُبّ، يمكنكما مواجهة الحياة كما هي، ملآنة بالصخب والعنف".

(*) Big Bang: الانفجار العظيم حسب النظرية السائدة حول نشأة الكون، التي تُقدّر حدوث ذلك الانفجار قبل 13.8 مليار سنة.

أنهيتُ الفصل، وأعدتُ قراءته. كان جيّدًا جدًّا، مكتملاً حتّى إن الشّكّ راودني: أهو حقًّا نصّ تاريخي؟ ألا أكون في الواقع بصدد توجيه رسالة إلى سليمان؟ شيء من قبيل: "انظر، يا مرتخي العضو، هو ذا المثال الذي عليكَ الاقتداء به، ولتعلم أن ما هو حامٍ في النّصّ حامٍ في الفراش"؟ ألم أكن أبحث عن إثارته؟ حاولتُ إقناع نفسي أنْ لا، وأني انسقتُ مع قصّة العاشقين في الجنّة - ولكني حملتُ الرّقّ إلى الملك بشيء من الرهبة.

قرأه سليمان في صمت. ثمّ وضع الرّقّ، وأغرق في التفكير برهة، وعيناه شاردتان. ومثلما خشيتُ، كانت روايتي في العمق، تطرح عليه مشكلة، لذلك أرجأ دراستها:

"لستُ أدري، قال أخيرًا. لا بدّ أن أفكّر قليلاً في ما كتبتِ".

سكت برهة، ثمّ أردف:

"أريد أن أعرف أيضًا رأي القدماء. فهم المؤتمَنون في النهاية على علم الماضي".

مكتبة
t.me/soramnqraa

صعد الدم إلى رأسي.

"اسمعْ، يا سليمان، قلتُ وأنا أحاول أن أحافظ على هدوئي، إن كنتَ ستستمع إلى القدماء في موضوع الجنس، فسوف نضيّع الوقت. هؤلاء الناس لن يقبلوا به أبدًا. هم ..".

كنتُ سأقول: "هم ليسوا سوى عصابة عنّينين"، ولكني تداركتُ: "لا ينبغي الحديث عن الحبل في بيتِ مشنوق".

مرّة أخرى، حاول التوفيق:

"أعرف، أعرف. ولكننا سنرى إن كان باستطاعتنا أن نجد صيغة وسطى، تُرضي الجميع. على الأقلّ لكون أولئك الشيوخ يملكون نوعًا من النفوذ. كلهم عيّنهم الكاهن الأكبر للهيكل، وأنتِ تعرفين أنه لا يمكن المزح مع الكَهَنَة".

لم يعد ثمّة ما يقال. انسحبتُ، وطلبتُ منه أن يدعوَني حالما ينتهي القدماء من دراسة هذا الجزء.

عدتُ إلى سَكَني، واستلقيتُ. كنتُ قلقة، فجفاني النوم. وفي اللحظة التي أقبل فيها النعاس، طُرق الباب. لم تكن تلك الطَّرْقات القوية للحرّاس أو رئيسة الحريم. كلّا، كانت طرقات حَيِيَّة خفيفة موجزة، أثارت شكيّ أكثر ممّا أفزعتْني. مَن الطارق يا ترى في هذه الساعة من الليل؟ سليمان، بعد أن اكتشف أخيرًا حبّه إيّاي، قد أتاني إلى الفراش لأجل ليلة العرس التي طال انتظارها؟ هذا قليل الاحتمال، لأن سليمان لا يحتاج إلى طَرْق الباب، فهو السَّيِّد، سيِّد القصر، والمرأة، وكل شيء. وإن لم يكن سليمان، فما هو سوى مزعج تافه. قمتُ منزعجة والسهارة في يدي، وفتحتُ الباب.

ألفيتُ نفسي أمام شيخ، واحد من أولئك الأقزام السّتّة المكلّفين بتوجيهي في تحرير النصوص. لم أكن أعرف اسمه. بل إني لم أكن أعرف اسم أيّ واحد منهم. بالنسبة إليّ، كلهم متماثلون، مستنسخات متغضّنة. لماذا انفصل هذا عن الجماعة. لماذا جاء إلى بابي، يغمغم باعتذار، وابتسامة ساذجة على وجهه الأبله، عن مجيئه في وقت غير مناسب.

"جئتُ لمسألة شغل"، قال وهو يريني رقّا: رقّي، رقّي الذي اشتغلتُ عليه. "العمل الذي كلّفنا به الملك، تعرفين ..".

"كلّفنا". صرنا الآن شركاء في هذا العمل. وهو ما يمثّل تطوّرًا مؤكّدًا. هكذا، نابت عن الحذر - ولو في وقت غريب - شراكة.

"قرأتُ نصّكِ حتّى الآن، قال. هو جيّد، جيّد جدًّا. ولكني أعتقد أن بعض التفاصيل ينبغي أن، كيف أقول، تُناقَش ... هل يمكن أن أدخل؟ أعرف أن الوقت متأخّر، ولكنها مسألة هامّة ..".

هنا بدت المسألة حقًّا غريبة. مناقشة النّصّ، في هذا الوقت من الليل؟ تزايدت ظنوني. فضّلتُ أن أحسم.

"ألا يمكن انتظار الغد؟ بصراحة، أنا مُجهَدة.

– من فضلكِ". صارت النبرة الآن متوسّلة. "ذلك أني ... أخاف أن أنسى. وهذا يحدث لي، لو تدرين ..".

إذا كان يخاف أن ينسى، فلماذا لا يُدوّن ملاحظات؟ ليس الرّقّ هو ما ينقص، فالمخزون الذي وضعه سليمان على ذمّتنا يكاد يكون لانهائيًّا. هذه الحكاية لا تستقيم. ولكنْ؛ كان باديًا أن المسكين مروّع، فأشفقتُ عليه:

"هيّا، ادخل".

اجتاز العتبة في لمح البصر. ولمّا صار في الداخل، بدا أحسن حالًا. أرسل نظرة تفتيش حوله.

"لا مجال للشّك، أنتِ في إقامة جيّدة... أحسن منا، أحسن كثيرًا. هذا فضل التّمتّع ببعض مزايا الملك، أليس كذلك؟".

وضحك ضحكة مقتضبة، أرادها تواطؤًا، لم يَلقَه منّي. واصلتُ النظر إليه بتركيز. أحسّ بالحرج، فغيّر الموضوع، وحاول أن يستغلّ مجال العلاقات الودّيّة. قال متشدّقًا:

"أتدرين أني أعرف أباكِ؟"

"صحيح؟".

"صحيح". وبنبرة ظفر. "بل كنّا صديقَيْن ودودَيْن ... لعلّه لا يتذكّرني، ولكني كنتُ شديد الإعجاب بطاقته ... قدرته على القيادة. شخصية بارزة، والدكِ. زير نساء، ولكنْ، شخصية بارزة". تفطّن لزلّته، فأردف مستدركًا: "اعذريني، لم أقصد جَرحكِ. وإنما كنّا في شبابنا معًا أنا ووالدكِ. فرّقت بيننا الحياة، ولكني أسمع عن أخباره بين الفينة والأخرى: تزوّج، وله بنت ذكية، موهوبة ..".

جميلة، لا. لن يذهب إلى ذلك الحدّ من التّملّق. يمكن أن يصفني بالذكية، والموهوبة، ولكنه يُغفل عمدًا عن ذكر أي إحالة على المظهر الجسماني، وهو ما لا يعدم تسلية. مسلّيًا أم لا، هذا الهذر بدأ يوتّر أعصابي.

"معذرة، النقاش طريف، ولكني، كما قلتُ لك، مجهَدة، ولي غدًا عمل كثير. هل لكَ أن تمضي إلى الصميم ...".

– "إلى الصميم ..". كأنه يُشهد شخصًا غريبًا: "تريدني أن أمضي

إلى الصميم ... حسنًا، فلنمضِ إلى الصميم، وهل لدينا سواه؟ لنمضِ إلى الصميم. الملك، كما تعلمين، سلّمنا نصّكِ؛ كي نُحكّمَ رأينا فيه، ونعطيه موافقتنا ..".

همم. هذا يمكن أن يكون أمرًا هامًّا. لا شكّ أن سليمان يضع في حسبانه رأي القدماء. كان من المفروض أن أعرف ذلك مسبّقًا. ولكني لم أشأ أن أبدي للرجل القصير أني مهتمّة. سألتُ بأكبر نبرة طبيعية ممكنة، ماذا كان تقريرهم. ابتسم ابتسامة ظفر ("آه، أوقعتكِ، يا امرأة، وجدتُ نقطة ضعفكِ!"):

"لم نصُغْه بعد. لهذا جئتُ. كما قلتُ لكِ، أريد أن أناقشكِ في تفاصيل بدت لي، أنا بصفة خاصّة، - كيف أقول - محيّرة نوعًا ما".

"محيّرة؟ ما المحيّر في هذا النّصّ الشديد الوضوح - رغم نَفَسه الشِّعْري؟" لا ريب أنه لاحظ حاجبَيّ المقطّبَيْن، إذ سارع بالقول:

"محيّرة بالنسبة إليّ أنا، بطبيعة الحال. محيّرة، ولكنْ ..."، كشف عن أسنانه في بسمة، "مذهلة. لم أقرأ مثلها قطّ".

تريّث وهو يركّز نظرة عليّ؛ كي يدرس ردّة فعلي، ثمّ واصل:

"بالنسبة إلى امرأة شابّة، أنتِ تُبدين معرفة كبرى بالحياة!" وغمز بعينه. "هي خبرة ذاتية، هذه المعرفة؟"

هكذا. ها قد صرنا الآن في ميدان السفاهة ... لم يشغلني ذلك في حينه؛ فالشيخ له الحقّ في نصيب من الفجور. ليقل طرفَتَيْن أو ثلاثًا، وليذهب، ليس في ذلك مشكلة. لا أريد أن أتخاصم مع الأقزام. أجبتُ مبتسمة أنا أيضًا:

"ليست سوى غريزة الأنثى".

– آه. نظرة جانبية، خليعة. "غريزة الأنثى. فهمتُ ..".

ظلّ كذلك يرمقني، ثابتًا، في نظرة بادية السماجة. الآن، نعم، صار ذلك يزعجني. هذا الحوار البليد لا يمكن أن يستمرّ. ثمّ إن مثانتي ملآنة، كنتُ أريد أن أتبوّل، وليس من سبيل للتّخلّص من هذا القزم. قرّرتُ استعجال الأمر:

"ولكنْ، في النهاية ما هو الشيء المميّز في ما كتبتُ؟".

لم يجبْ على الفور. نكس رأسه برهة، وظلّ كذلك، وصلعته تلمع على ضوء المشعل. ثمّ رفع جفونه، فإذا شعلة نظرته غريبة، غريبة جدًّا

"أربكني نصّكِ. أربكني كثيرًا. تلك الفقرة التي تصفين فيها آدم وحواء وهما يمارسان الجنس على العشب النديّ ... اللعنة! تلك الفقرة حامية ... تلك الفقرة ..".

توقّف، وبحركة مباغتة فتح رداءه.

شيء عجيب: كان منتصبًا. أيرٌ كبير، يجعل عدم تناسبه مع قامته القصيرة مثيرًا للسخرية، قضيب ضخم، يكاد يُفقده توازنه. ولّد ذلك لديّ رغبة في الضحك، في الضحك عاليا، والتّلوّي من شدّة الضحك أمام ذلك المشهد الكوميدي. ولكنْ، لم يكن وقتًا للضحك، كان وقتًا لوضع حدّ لكل هذا - فقد تجاوز كل الحدود.

"ولكنْ، ماذا، أيّها الرجل العجوز؟ صحتُ فيه. فيمَ تفكّر؟ ألأن الملك

يثق فيكَ تظنّ أنكَ يمكن أن تفعل ما تشاء؟ أنا زوجة سليمان، يا قذر! لو أحكي هذا لزوجي، سيقطعكَ شطرَيْن! سلوككَ رجس! رجس! ... أنا .."

قاطعني، موتورًا، مضطربًا.

"من فضلكِ، تمتم فيما يشبه البكاء. من فضلكِ! نعم، هو جنون، يمكن أن أدفع حياتي ثمنه، ولكنْ ... هل تعرفين منذ متى لم أنتصب؟ منذ متى؟ منذ سنين. عقود من السنين. وليست مشكلة سنّ، كلاّ، لأن الرجال في عائلتي ينكحون حتّى سنّ المائة. صرتُ عنّينًا بسبب زوجتي، تلك الأفعى. لم تشأ أن تعلم شيئًا عن مسألة الجنس. كانت تدفعني بعنف كلّما هممتُ بها. "اذهبْ، وادرسِ النصوص المقدّسة!" كانت تقول لي. فأدرس، وأدرس. ماذا أفعل غير ذلك؟! كنتُ أدرس، وأدرس. علمتُ كل شيء عن الرذيلة والخطيئة، والفضيلة والرجس - ولا سيّما الرجس. أي نعم، عرفتُ كل شيء عن الرجس! إن شئتِ، أضع لكِ قائمة مفصّلة عن كل أشكال الرجس الممكنة والمتخيَّلة! ماذا أفادتْني الدراسة؟ كنتُ شقيًّا، ألهث وأنا أحلم بالجماع. مَنْ يعطيني قليلاً من الرجس؟ كنتُ أفكّر. ولكنْ، لا شيء. كان ذلك فقط في الكُتُب. في الحياة العملية، لا شيء سوى الكآبة، وهذا الحرمان. وها أنكِ تظهرين، وببضعة أسطر توقظين فيّ رغبة، خلتُ أنها ماتت، انتهتْ ... هذا عجيب! إنها معجزة!".

لم أدرِ ما أقول. من ناحية، هذا الاعتراف يُطْريني. إن لم أتوصّل كامرأة، فعلى الأقلّ ككاتبة حقّقتُ نصرًا عظيمًا بإيقاظ شغف مباغت ويائس. شغف جنّيّ، أقعدتْه الشيخوخة، متهدّم ونصف عنّين، ولكنْ،

أليس نصري أعظم؟ لا سيّما إذا عَدَدْنا دمامتي إعاقة هامّة؟ المشكل أني لستُ مستعدّة. أن يفتضّني هذا الوجه الحقير، فهو فعلًا رجس. بيد أن الأهمّ أني لا أحبّه هو، بل سليمان. آه، لو دخل الملك في تلك اللحظة، لتأكّد بأني، وإن كنتُ دميمة، أستطيع أن أستثير رجلًا، حتّى ولو كان شيخًا، بل وهو شيخ! فربمّا ألهمه المنظر. وربمّا طرد الشيخ مستنكرًا، وهو يقول: "لا أحد يلمس زوجتي الصغرى، تعالي، يا حبيبتي، تعالي، انسي هذا المسخ! تعالي، ننمْ، ونمارسِ الحُبّ". أمل كاذب. لن يظهر سليمان. أحد الحرّاس، ربمّا، إن صرختُ عاليًا. ولكني لا أريد أن أصرخ، لا أريد أن أخدش الرجل الذي كان يُكرمني في وجه من الوجوه. قلتُ له إن بوحه يمسّ إحساسي، وإني لن أتردّد في دعوته إلى فراشي في ظروف مغايرة، ولكن ذلك مستحيل الآن، لأن انتباهي كله مركّز في العمل، ولا شيء غير العمل.

لم يسمعني. كان يقترب ببطء، وعيناه تلتمعان بالرغبة. وها أنه، في خفّة عجيبة، يحاول إمساكي. دفعتُهُ عنّي، بلطف، ولكنْ، بحزم. أعاد الكرّة، فدفعتُه هذه المرّة دفعًا عنيفًا، أوقعه، فتدحرج على الأرض. أراد القيام، فاشتبكت رجلاه بردائه، فوقع مرّة أخرى. كان ذلك مضحِكًا، فلم أملك نفسي، وضحكتُ بملء فمي. ما أثار حفيظته، فنهض وهو لا يزال يترنّح، وصوّب نحوي إصبعًا مهدّدة:

"هذا يُضحككِ؟ هذا يضحككِ، أنتِ؟ تضحكين منّي، يا كلبة الصحراء؟ تضحكين: لأني أردتُ نكاحكِ، وهو شيء لن يُقدم عليه أحد أبدًا، لا سيّما سليمان؟ انظري إلى نفسكِ، يا امرأة. أنتِ بشعة! أنتِ وحش من الدمامة! ورغم ذلك، وإشفاقًا منّي، عرضتُ عليكِ اقتراحًا! وترفضين، يا غبية! ولكنكِ لن تخسري شيئًا بالانتظار!"

نظر إليّ، ظافرًا في حقد:

"هل تدرين مَن الذي حمّله القدماء مهمّة الموافقة النهائية على النّصّ؟ أتدرين مَنْ؟ أنا. أنا نفسي. أنا مكلَّف بإعطاء رأيي في الخراء الذي كتبتِهِ! واحزري ماذا سيكون الرأي! احزري! إنه قذارة، يا شقية! إنه رجس!"

حاول تمزيق الرّقّ -ربمّا ليُلقي مزقه على رأسي-، ولكن الجلد كان متينًا، فلم يفلح. حاول وحاول، دون جدوى. في النهاية، رماه أرضًا، وانصرف يغمغم بالشتائم.

غمرني إحساس بالنصر. بكيفية ما، صنتُ كرامتي. بكيفية ما، انتقمتُ من المرآة. انتقام غريب، انتقام كئيب، ولكنْ، انتقام على أيّة حال.

كان لي سبب ارتياح آخر. لقد تمّ فحص نصّي، ولو بطريقة مضحكة. العجوز كان نوعًا من فأر تجارب. إن نجحتُ في إلهابه، فسليمان لن يصمد أمامي. ما يتبقّى لي هو أن أواصل الأوصاف الداعرة، إلى أن يَقدم سليمان إلى غرفتي باندفاع، وهو يصرخ: "ما عدتُ أطيق! أريدكِ الآن! أريدكِ كلَّكِ!" فأقول له: "لن تملك النّصّ وحده، بل المؤلّفة أيضًا ... ونعيش سعيدَيْن على الدوام. بهذه القناعة نمتُ، مرتاحة البال".

غير أن الحادث مع العجوز سوف تكون له عواقب جادّة، لم أتأخّر في اكتشافها. استيقظتُ على صوت حارس، يطرق الباب - وكان طَرْقًا قويًّا ملحاحًا هذه المرّة. كان سليمان يأمر أن أحضر إلى قاعة العرش. ذهبتُ وأنا أستشعر أخبارًا لا تسرّ.

كان الملك هناك، جالسًا على العرش. وقربه الميكروبات السّتّة، كلهم برؤوس بطول ستّة أقدام: لا شكّ أن الشيخ لم يقل لهم أشياء طيّبة. تهيّأتُ لعقوبة صارمة، فكانت أسوأ.

قال سليمان، وهو يتخيّر ألفاظه كالعادة، إنه يملك رأيًا عن السردية التي كتبتُها. رأي يعترف بخصالي الأسلوبية، ولكنْ، لا يمكن أن يقول الشيء نفسه عن المحتوى، الذي يمثّل بعض انحرافات. نظرًا لأهمّيّة الكتاب الذي نحن بصدده، ينبغي اتّخاذ إجراءات لتجنّب ما أسماه، من باب التورية، "أحداث مسار". مستقبلاً، سوف أكتفي بالتحرير. أمّا المحتوى، فيقدّمه القدماء، الذين سوف يكون لهم حقّ الفيتو على كل ما أكتب. نظرتُ إلى الشبقي العجوز حينما كان سليمان يتكلّم. حاول أن يحتفظ بهيئة محايدة، جافية، ولكنه كان سعيدًا بطبيعة الحال بكلمات الملك.

كانت تلك هزيمة، هزيمة نكراء. آمالي في فتنة سليمان عبر النّصّ سقطت نهائيًّا. والأدهى أن الشيوخ يمسكون بالزمام، فليس لي مَنْ يدافع عنّي. وكما قال الملك نفسه، فالقدماء، بصيتهم كخبراء نصوص قديمة، ذلك الصيت الذي اكتسبوه طوال عقود من السنين (كلهم خدموا داود، والد سليمان)، وبفضل علاقاتهم القوية، كانوا شخصيات هامّة. ورغم كونهم لا يشغلون مناصب في الحكومة، فهم يشكّلون نوعًا من المجلس الأعلى، مجلس شكلي، يمنح الملكية جزءًا من شرعيّتها. استمعتُ إلى الحكم في صمت. لم يكن أمامي غير الخضوع.

وهكذا ألفيتُ نفسي من الغد أكتب الحكاية كما يريدونها. المرأة التي صُنعت من ضلع آدم. المرأة التي تُنصت للحَيّة. المرأة التي تأكل ثمرة

من شجرة علم الخير والشّرّ. باختصار: المرأة التي أفسدت كل شيء. ثمّ تلك الحكاية عن هابيل وقابيل، ابنَي الزوجَيْن (ولدان، من غير بنت، أي أنهما لا حظّ لهما في التكاثر، حتّى عن طريق زنا المحارم). هابيل الراعي (للغنم، وليس للعنز)، وقابيل الفلاح. تخاصم الاثنان، وبدل أن يختارا شركة زراعية رعوية، ما قد يكون أكثر منطقية ووفرة. رفض الرّبّ قربان قابيل، لسبب لا يعلمه إلا هو والشيوخ. غيرة - وجريمة. دُشّن إهراق الدم، وهو ما يُمتّع الشيخ اللئيم. والنّصّ ينشر حنقه وضغينته المكتومة.

لم يتوقّف ضناي عند هذا الحدّ. في اليوم الذي حرّرتُ فيه حكاية تلك الجريمة، علمتُ، عن طريق أحد خَدَم القصر، ما حلّ بالراعي الشّابّ. كنتُ أظنّ أنه مضى في سبيله بعد أن سلّم الجنودَ الرّقّ. كلّا. هو لم يرفض تسليم رسالتي فحسب، وقد أبدى استعداده لبذل حياته ثمنًا لها، بل صمد أمام الجنود، وتشاجر معهم. ففقد ذراعًا، قُطعت بضربة سيف، وفرّ.

كما يمكن أن يُتصوّر، هزّتني تلك الحادثة بعمق. لقد دفع المسكين غاليًا لمساعدتي. والأنكى أن تلك التضحية كانت بلا جدوى، وهو ما يثير حزني وإحباطي. لن أطلب من والدي أن يحتجز الملك، لإرغامه على مضاجعتي. بصراحة، لم أعد أفكّر في ذلك. صار الجنس الآن في المرتبة الثالثة، وحتّى الرابعة.

استأنفتُ العمل، وقد بات أعسر. صار القدماء يهلّلون وهم يرون نفوذهم يتعزّز. كانوا يُرغمونني على إعادة ما أكتب عدّة مرّات. وما كنتُ أكتبه، كما في حلقة هابيل وقابيل، لم يكن يوحي إليّ بغير الاشمئزاز.

حاولتُ الصمود. أردتُ على الأقلّ أن يُدركوا عدم تماسك الحكاية الغامضة لذلك الاغتيال الأوّل. حسب القدماء، كان قابيل، بعد أن لُعن، قد احتجّ أمام المولى: "[...] وأكون تائهًا وهاربًا في الأرض، فيكون كل مَنْ وجدني يقتلني!" ولكنْ، مَنْ يكون هذا القاتل المحتمل، إن لم يكن، حسب تلك القصّة، حتّى تلك الساعة، سوى آدم وحواء وقابيل نفسه، إضافة إلى الراحل هابيل؟ كان ذلك هو السؤال الذي طرحتُهُ على القدماء بلهجة التوقير التي يحرّضون عليها، ولكنْ، بانتشاء داخلي كبير، وأنا أستشعر الذهول الذي سوف يُغرقهم فيه هذا السؤال.

غير أنهم لم ينذهلوا البتّة. ترامقوا، أجل، ولكنْ، كأنهم يقولون: "هي ليست دميمة فقط، بل غبية أيضًا"، وأجاب أحدهم بغلظة:

"اكتبي دون إلقاء أسئلة".

تتواصل القصّة إذنْ، محفوفة بالكوارث على الدوام. منطقي: في رأيهم، الشّرّ والرجس -لا يشغل تفكيرهم في الظاهر سوى ذاك- متأصّلان لدى بني آدم، وبسبب من ذلك، لا بدّ أن يعاقَبوا بانتظام. شأن آدم وحواء، شأن قابيل. إلا أنها عقوبات محدودة، فردية. أمّا سيناريو الشيوخ، فينصّ على عقاب شامل، مشهود، إنتاج ضخم حقيقي كبليّة على الإنسانية. في الفصل الموالي، أعلنوا أن المطر سيهطل لمدّة أربعين يومًا وأربعين ليلة، وهو أمر، بالنسبة إليّ أنا أصيلة منطقة صحراوية، لا يمكن تصديقه ... عندما أتذكّر أن الرّبّ لم يلبّ قطّ دعوات الاستسقاء التي كنتُ أرفعها، وأن غاية ما حصلنا عليه بتضرّعاتنا رذاذ قليل بائس ... ولكن الشيوخ لا يهتمّون لمزايا الفلاحة. مع مطر مدرار سوف يغمر طوفان عظيم وجه الأرض. "كل المخلوقات سوف تُباد!" صرّحوا ظافرين.

كل ذلك زاد من إحباطي. عدتُ إلى مخدعي، وبكيتُ طيلة ساعات. كنتُ قد فقدتُ الأمل في أسْر قلب سليمان، وفقدتُ الرغبة في الاشتغال على النّصّ، فقدتُ كل شيء. بقيتُ وحدي مع دمامتي الآسية والأزلية. ما عدتُ أرى أيّ معنى لحياتي.

قرّرتُ أن أخلص من ذلك نهائيًّا. كنتُ أبحث عن حلّ لعذاباتي في الموت. أوّلًا، سوف أكتب رسالة إلى سليمان، كي أشرح له قراري، وأؤكّد له حبّي. ثمّ أقطع أوداجي بسكّين، وأترك دمي يسيل على الرّقّ - الذي قد يصبح غير مقروء، ولكنْ، لا يهمّني.

أنقذتْني فوضاي من الموت. كان بشقّتي مطبخ صغير بمواعين، غير أني لم أعثر على السّكّين اللعينة. تذكّرتُ أني استعملتُها البارحة لتقشير تفّاحة، ولكنْ، أين هي؟ اختفت بأعجوبة. رحتُ أبحث عنها في انفعال.

وفي تلك اللحظة، طُرق الباب: أحد حرّاس الملك مرّة أخرى. سليمان يريد مقابلتي. كان يمكن أن أقول للرجل: " أستطيع الآن، أنا على وشك الانتحار، بلّغ الملك أن الدميمة ستغادر هذا العالم"، غير أني رأيتُ في ذلك علامة من القَدَر. أو، وهو الأهمّ بالنسبة إليّ، دليل حكمة من الملك. لا شكّ أنه لمس ما أُلاقي "الصغيرة المسكينة قد ترتكب حماقة، لقد غادرت المكان في يأس كبير..." فدعاني. تردّدت رغم كل شيء. هل يستحقّ الرّدّ على هذه الدعوة؟ ماذا سيقول لي سليمان أكثر ممّا أعرف؟ ولكني لن أخسر شيئًا. وكما يقول قدماء قريتي، أمامنا دائمًا متّسع من الوقت، كي ننتحر. لبستُ ثيابي، وتبعتُ الحارس. وجدتُ الملك وحيدًا، لم يكن جالسًا على العرش، بل على كنبة. بدا أنه نسي الأحداث الأخيرة؛ لاح بشوشًا، باسمًا. نهض وجاء

لاستقبالي، فأمسك يدي، ليقودني، وأجلسني حذوه. أكّد لي أنه، برغم كل شيء، راضٍ عن عملي، الذي جاوز آماله. احتضنني بذراعَيْه، داعب وجهي. وعندما أجهشتُ بالبكاء، قال لي: "ابكي، زوجتي العزيزة، حرِّري دموعكِ، تستريحي".

استرحتُ فعلاً. خرجتُ وأنا مقتنعة بأن له نحوي، إن لم يكن يحبّني، عطفًا كبيرًا، عطفًا قد يتحوّل مع الأيّام إلى حبّ. يلزمني كثير من الصبر، وكثير من المواظبة. تمامًا كفلّاحي جهتنا حين يحاولون غرس نباتاتهم الهشّة في الأرض القاحلة. في يوم ما، سوف تتفتّح زهرة العشق.

اتّجهتُ إلى قاعة القدماء بهيئة أخرى. لم أنلْ تشجيعًا، كلّا، بل توطيدًا. ومن حسن الحظّ أن القصّة التي سأكتبها لم تكن سيِّئة. أجل، طوفان يهلك البشرية وكل ما هو حيّ (أي ذنب اقترف الكرنب؟) ويعفو فيما يبدو عن الأسماك، التي لا يمكن إلا أن تهلّل بهذا الحجم الهائل من المياه. ولكن الرّبّ تكرّم على بعض البشر، إذ سمح لنوح بإنقاذهم في سفينته. تسلّيتُ كثيرًا وأنا أتخيّل صعود الحيوانات إلى تلك السفينة، وحياتها اليومية داخلها ... هي على الأقلّ حكاية، تحوز الاهتمام.

ولكنْ، كان أكثر من ذلك. وتلك دلالة كاشفة. فجأة رأيتُ نفسي في مكان نوح، في مقدّمة سفينة كبيرة وغريبة، أتأمّل ضخامة المياه، ذلك المحيط الشاسع الخالي من الجزر، والشطآن، تلك الصفحة السائلة التي تعكس وجه الرّبّ الذي لا يُدرَك. مثل نوح، كنتُ ناجية، ناجية من شدّتي. لن أغرق في بحر دموعي. سيكون العمل سفينتي، سفينتي الصغرى. بعد أن أُقصيتُ من نصّ، ما عدتُ أجد نفسي فيه، سألوذ لا بالسطور، بل بما بين السطور. سوف أترك رسالة صامته مشفّرة، رسالة

مثل القارورة الملقاة في البحر، قد تصل إلى شخص ما في مستقبل قريب أو بعيد. وسوف أجد نفسي فيها، وأنا أحتفي بحبّ آدم وحواء، وحب رجال ونساء لا توجد أسماؤهم في كُتُب القدماء العتيقة، ولكنها لا تقلّ قيمة بوصفهم بشرًا. سأكون أنا نفسي مغفَلة، إلا أن آثار عشقي ستكون بادية، بوجه ما، في المخطوط.

في ذلك المساء، تأمّلتُ وجهي في المرآة. مرّة أخرى، ألفيتُ أني تغيّرتُ: قسماتي كانت أقلّ خشونة، وتعبير عينَيّ كان أرقّ قليلاً. كنتُ على قناعة بأني في الطريق السّويّة - في الحياة كما في النّصّ. يلزم عدّة أجيال، على مستوى القصص التي تُكتب، كي أبلغ ضالتي - وسوف أبلغها، أنا واثقة.

وتعاقبت الأجيال في سردية القدماء الذين تركوا الآن الإنسانية في عمومها، ليركّزوا على العبريّيْن، بدءًا بالبطاركة. أرضية يتحرّكون عليها بسهولة. يتّفقون بجلاء حولها، بوصفها بطريركية، ويبينون بوضوح أنها النموذج الأمثل، أبو النماذج كلها. خطر ببالي أنها ربّما مناورة سياسية: في البدء، كان البطاركة، ثمّ القضاة، ثمّ الملوك - هم يوحون بوجود تواصل في السلطة متجذّر منذ غابر الأزمنة، بلغ ذروته مع قائدهم، سليمان. وهو أمر لا أستطيع -ولا أريد- أن أضعه موضع شكّ. فإزاء ماكفياليّتهم المفضوحة، كان عليّ أن أعترض بأخرى، أكثر دقّة: ماكيافيلية الإحساس المتستّر. تراجعتْ، كي أقفز فيما بعد بطريقة أفضل كغزال فوق العقبات، وأركض بحُرّيّة في مروج الحُبّ.

اكتفيتُ إذنْ بكتابة حكاية البطاركة، شخصيات بدت لي متردّدة، ما يفسّر قلقهم في إرضاء المولى. يَهْوَه يأمر، وإبراهيم يطيع - حتّى

ولو كان في ذلك تضحية بابنه. وفي أقصى الحالات، يجرؤ على طلب اتّفاق صغير، يحصل بفضله من الرّبّ على تخفيض مطرد في نصيب العادلين لإنقاذ سدوم.

وإحقاقًا للنّسّاخين، كان ثمّة نساء لهنّ أهمّيّة وشرف منزلة. صحيح أنهنّ لسنَ خلوات من الضعف البشري. فسارة ضايقتْ كثيرًا المسكينة هاجر التي أنجبت لإبراهيم ابنًا، ولكن ذلك يدخل في لعبة النفوذ القبليّ. غير أن فحش العجوز الشبقي الوغد الذي ارتمى عليّ كان أنكى. هو يعوّض نفسه تعويضًا مجزيًا -مع الفوائض واحتساب التضخم- عن الإهانة المزعومة التي ألحقتها به. ولا يفوّت فرصة لإهانتي:

"اكتبي: "رفقة، زوجة إسحاق، كانت فائقة الجمال". سمعتِ؟ كانت فائقة الجمال. إسحاق ما كان يمكن أن يختار امرأة دميمة! ولا يعقوب. هو وقع في حبّ راحيل، لأنها كانت جميلة. الدمامة في السردية المقدّسة لا مكان لها! الدمامة رجس!".

إذا طرحنا الشتائم جانبًا، فإن الكتابة عن البطاركة كان لها أثر عليّ غير متوقّع: ساعدتْني على فهم أبي. واضح أنه يعدّ نفسه من سلالة إبراهيم، وإسحاق ويعقوب. إذا نظرنا إلى غطرسته من هذه الزاوية، صارت أقرب إلى الفهم. الصورة التي كنتُ أحملها عن أبي تغيّرت. كنتُ أفكّر فيه بحنين، وحتّى بحنان. فالبُعد يقلّص العيوب. مع الوقت يمكن أن أغفر له. وها إنه يظهر في القصر.

كانت مفاجأة. حلّ دون سابق إنذار. لم يأتِ لأجلي. السبب الرسمي لقدومه كان زيارة دورية، يؤدّيها لإتمام واجباته الدينية. في الواقع، جاء

ليدعّم علاقاته السياسية مع سليمان، وسوف يغتنم الفرصة بطبيعة الحال، كي يراني؛ فأنا مهما كان ابنته، وزوجة ملك كذلك.

قاده سليمان بنفسه إلى مسكني. فتح الباب، وأعلن مبتسمًا:

"عندي لكِ مفاجأة. زيارة".

دخل أبي في الحال صاخبًا ومُحرِجًا كعادته.

"انظروا ابنتي! ابنتي العزيزة التي حملتُها بين ذراعيّ! وها هي الآن ملكة!".

واحتضنني بفيض حنان، ثمّ تفحّصني من رأسي إلى قَدَمّي: "ماذا أرى، يا عزيزتي! الخَدَم يعاملونكِ جيّدًا! أنت أنيقة!" لم يقلْ طبعًا إني جميلة، ولكنْ، لا ينبغي أن نفرط في الطلب. كان سليمان يتابع المشهد بابتسام مرح، ثمّ تعلّل بأعمال كثيرة، تنتظره، واعتذر لكونه لا بدّ أن ينصرف.

"رجل لطيف، هذا الملك"، علّق أبي. نظر حوله مرتاحًا. "أنتِ في أحسن حال! غرفتكِ أكبر من بيتنا كله!".

سألني عن حياتي في القصر، وفيمَ أقضي أيّامي. أجبتُ بكلام عامّ. فجأة لاحظ الرفوف الملآنة بالرقوق، فتجهّم:

"أنتِ تواصلين إذنْ هذه العادة المستهجنة؟ كنتُ أظنّ أنكِ انتهيتِ من هذه التفاهات!"

نفد صبري من هذه الكوميديا. "نعم، أكتب، قلتُ، ذلك ما أفعله كامل اليوم". وأضفتُ بجفاء:

"إنه عمل للملك.

– عمل؟ قال بادي الصدمة. العمل للعبيد، وليس لزوجة ملكية! ما هذه الحكاية؟ ابنتي تعمل لصالح الملك مثل عاملة؟ ليس لهذا أعطيتُكَ لسليمان! أنا أعطيتُه إيّاك، ليكون لكِ منزلة شرف وسط الحريم! بدل ذلك أنتِ تكتبين! اللعنة إذنْ!"

وسكت، مغتاظًا. وما أسرع ما عاد إلى هجومه، باحثًا هذه المرّة عن كبش الفداء، عن عنزة الفداء.

"الذنب ذنبكِ! مَنْ طلب منكِ أن تتعلّمي القراءة والكتابة؟ كنتُ أعرف أن هذه الحكاية لن يأتي من ورائها خير. قلتُ لأمّكِ: "ليس للمرأة أن تهتمّ بهذا! المرأة ينبغي أن تهتمّ بالفراش!" أنا القائد، لا أعرف القراءة ولا الكتابة ... ما الذي دفعكِ إلى تصنُّع الحيلة؟ ألا تكفيكِ الدمامة، كي تتقمّصي دور الذكية؟ وها هي النتيجة: النساء السبعمائة الأخريات هنّ في الحريم، يقضينَ أوقاتًا ممتعة، يأكلنَ أشهى الطعام، ويستحممْنَ، ويتعطّرنَ، وأنتِ هنا تهرئينَ مؤخّرتكِ على كرسي، كي تشتغلي على هذه الرقوق التافهة! هل تدركين العار الذي تُلحقينه بي؟ ماذا أقول حينما أذهب إلى الهيكل، وألتقي بزعماء القبائل الآخرين؟ هه؟ ماذا أقول؟ إن ابنتي تعمل أكثر من جارية؟ لا أكاد أفهم ما يجري! بصراحة، هذا يتجاوزني!".

ما كاد ينطق بذلك حتّى خطرتْ بباله فكرة، وإذا ملامح وجهه تتغيّر بغتة.

"أريد أن أعلم شيئًا، قال بصوت خفيض، هل افتضّكِ؟".

اللعنة! لم أجد الشجاعة، كي أصمد في وجهه. صرتُ فجأة الطفلة الخائفة التي كان يصرخ في وجهها، ويضربها كل حين: لأني أوقعتُ كوبًا من لبن الماعز، لأني لم أكنس البيت ... كنتُ دائمًا بصدد ارتكاب هفوات - علاوة على كوني دميمة، وهو أيضًا ذنبي، ذنب بشع. إن صارحتُه بالحقيقة، فلن يغفرَ لي. ستكون نهاية كل شيء. لعلّي أشفقتُ أيضًا على هذا الرجل، فما هو سوى قرويّ جاهل، تتويجه الأكبر هو أن يرى ابنته زوجة مَحظية لدى الملك. فضّلتُ إذنْ أن أكذب.

"أجل، أبي. لقد افتضّني. أتمّ واجبه.

– على الأقلّ". كان لا يزال يتبرّم، وإن استراح قليلاً. ثمّة شيء وقع إنقاذه في هذه الكارثة: الزواج تمّ، والشرف مصون. سعيدًا بتغيير الموضوع، بدأ يتحدّث عن الهيكل، وكان قد زاره في صبيحة اليوم نفسه لأداء فروضه الدينية. شيء رائع ذلك الهيكل! من المرمر كله ومن السنديان، ومغطّى بالذهب - إنه بذخ! يرغّبك في تقديم قربان! في حميّا تحمّسه ذبح ثلاث شياه تكفي واحدة منها فقط لتسديد دَينه مع السلطات العليا. كان يعدّ نفسه رجلاً مستقيمًا، حتّى وإن كان أعداؤه، وهم قلّة، يفكّرون العكس، ويروّجون عنه ...

سكت ولزم الصمت برهة، وعلى وجهه -وجه معذَّب- تعبير معتم. سأل وهو يخفي ارتيابه:

"ستتحدّثين عنّي؟

– ماذا؟" لم أفهم قصده.

"في هذا الكتاب. ستتحدّثين عنّي؟".

بدا لي السؤال عبثيًا حتّى إني جعلتُ أضحك. ضحكتُ، ضحكتُ دون أن أستطيع التّوقّف، فيما كان هو ينظر إليّ ذاهلاً ومغتاظًا دون أن يفهم. ثمّ هدأتُ أخيرًا.

"كلاّ، قلتُ وأنا أُكفكف دمعي، لن أكتب عنكَ.

– بجدّ. لا أريد أن يُكتَب عنّي. عندما أحكي قصّة حياتي، سوف أحكيها على طريقتي. والذي سيكتبها سيكون نسّاخًا، أثق به. أمّا أنتِ، فيمكنكِ أن تتحدّثي عن الملوك، والأنبياء، ولكنْ، ليس عنّي أنا. لستُ في حاجة إلى ذلك!".

كان التعالي لا يكاد يخفي خيبته. في الحقيقة، كان يغذّي الأمل - ولو بإيجاز - في أن يكون في السردية جنب سليمان، الملك العظيم، باني الهيكل - على الأقلّ، لكونه زوّج العاهلَ ابنتَه.

كان مبلبل الذهن بشكل جعلني أُغيّر مجرى الحديث. سألتُهُ عن أخبار أمّي وأخواتي. هزّ يده في حركة مبهمة، كأنه يقول: "كالعادة دومًا، لا جديد مع أولئك النسوة". ثمّ خطر ببالي أمر آخر: لعلّ عنده أخبارًا عن الراعي الشّابّ؟ تشجّعتُ، وسألتُه عنه.

"ناكح العنزات؟" ضحك في ازدراء. "نال ما يستحقّ من عقاب. بعد أن ترك القرية، جاء إلى هنا، أورشليم، لارتكاب حماقة ما دون ريب ... ولكنْ، دارت عليه الدوائر: تشاجر مع جنود سليمان، فقطعوا ذراعه. شُفي، لأنهم كووا الجَدَعة بالزيت المغليّ. ثمّ عاد إلى القرية".

قطّبَ جبينه.

"حكى حكاية غريبة. قال إن الجنود اعتدوا عليه، لأنه رفض تسليمهم رسالة - رسالة كتبتِها إليّ. هل كتبتِ إليّ رسالة؟

– رسالة؟" لم أكن أتصوّر أني قادرة على مثل هذا النفاق. تصنّعتُ الاستغراب كأحسن ما يكون التّصنّع: واضح أني تعلّمتُ الكذب في أسرع وقت. "كلّا. لم أكتب رسالة".

– كنتُ أعرف، قال ظافرًا. كنتُ أعرف أن ذلك الوغد يكذب. لم يكن يصلح لشيء، ذلك الشخص. رغم أني بالغتُ في اللطف به. كان يمكن أن آمر برجمه حتّى الموت. ولكنْ، لا. أشفقتُ عليه - وها هي ذي النتيجة!

– "وماذا جرى له بعدئذ؟" سألتُ بالنبرة الفضفاضة السابقة نفسها.

هزّ يده باستهانة.

"طردتُه. ليحكِ حكاياتِه في مكان آخر!

– ذهب في حاله إذنْ؟

– نعم. وهل تدرين ماذا يفعل الآن؟ لقد انضمّ إلى عصابة من المتشدّدين دينيًّا، يقودها شيخ مجنون. يزعمون أنهم يدافعون عن الدين، ولكنهم في رأيي ليسوا سوى قطّاع طُرُق. إنهم يهاجمون جنود سليمان! يا للجنون! يا للعار! يحتجّون على سلطة سليمان، أين رأينا هذا؟ لم نرَ ملكًا مثل سليمان! إطلاقًا! حسبنا أن نرى الهيكل. القصر. وصورته! لم يحدث أن حظي ملك من ملوك إسرائيل بصورة أفضل في الخارج. صيت مستحقّ، على أيّة حال. رجل في مثل ذكائه، وحكمته ..".

بدأ يسرد حكاية المرأتَيْن المتنازعَتَيْن حول رضيع، ولكني ما عدتُ أُصغي إليه: كنتُ أفكّر في الراعي، الذي ضحّى بنفسه لأجلي. لا بدّ أن أفعل شيئًا لفائدة هذا الشّابّ المسكين. ولكنْ، كيف أساعده وهو هارب، عديم الملاذ؟ فات الأوان الآن. سوف أحمل على كاهلي هذا الذنب.

قال أبي إنه ذاهب إلى قاعة العرش، حيث سليمان في انتظاره. سألتُه ما إذا كان يريد أن أرافقه. كلّا، لا يريد. المسائل التي سيخوض فيها مع الملك مسائل مهمّة، لا تعنيني. سيدوم اللقاء ساعة، ثمّ يمضي أبي في طريقه؛ والمسافة إلى القرية طويلة. عندئذ ودّع أحدنا الآخر. أوصاني بالعناية بنفسي، والتفكير جيّدًا في ما سوف أخطّ في الكتاب. وباندفاع، احتضنني. ثمّ، وهو ينظر إليّ بعيون نديّة، أسرّ إليّ بأن حلمه الأكبر أن يكون له أحفاد ذكور، يواصلون نسله، ويُستحسَن أن يكون ممزوجًا بدم ملكي - وأنا الوحيدة التي تقدر عليه. سألني متى أُنجب ولدًا. أجبتُ بأني لا أدري، لا يمكن أن أتوقّع؛ الملك وحده في هذا المضمار هو الذي يقرّر.

"سألمّح له.."، قال في ابتسامة، أرادها متواطئة، ولكنها لم تكن سوى مثيرة للسخرية.

قبّلني، وانصرف. ومن الغد، عدتُ إلى العمل.

دخلنا في الرتابة في وقت سريع.

كل يوم كنتُ أتلقّى توصيات القدماء في اجتماع تمهيدي. بعد أن اطّلعتُ على جبال من الرقوق، وتناقشتُ طويلاً معهم، صاروا يُقرّرون ما يصلح للكتاب. كان العجوز الشبقي - وهو لا يزال في هيئة المولّه -

يتولّى دور المقرّر. كان من مهمّته أيضًا أن ينقل الاحترازات على عملي، احترازات لا تني تتضاءل كلّما تماهيتُ مع اللعبة. كانت الفكرة القارّة ألا أبتكر. عند دخولي النّصّ، عليّ أن أتخلّى عن أيّ رؤية ذاتية، وأيّ نيّة احتجاج. عليّ أن أكون محايدة، غير ذاتية. ولا أيّ تعليق جانبي. ينبغي ترك ذلك لعلماء الأجيال القادمة، يقول القدماء. وأُذعن. بطبيعة الحال، كنتُ أجد بعض الفصول غريبة. لماذا لم يضاجع يوسف زوجة بوتيفار(*)، وهو ما كان سيرضي كل الأطراف، بمَنْ فيها بوتيفار نفسه؟ سؤال احتفظتُ به لنفسي. كان الشيوخ سيُصدَمون لو أثرتُ المسألة. على أيّة حال، ما عدتُ أرغب في النقاش. لأني ببساطة فقدتُ طعمه. في أشدّ اللحظات إحباطًا، فكّرتُ في الانسحاب من هنا، والفرار من الحريم، والذهاب إلى أيّ مكان شرط ألا أكتب ولا أفكّر ولا أختلف. ولكنْ، تحضرني صورة سليمان فيكون لحُبّه أثر قويّ عليّ ... فأستعيد طاقتي فجأة، وأعود إلى العمل، أيًّا ما يكن مُضجِرًا. وما كنتُ أعلم أن القَدَر لا يزال يُخبّئ لي محنة شاقّة.

حدث ذلك ذات ليلة. منذ أن غصّت في رتابة العمل، صار نومي - الذي كان في ما مضى مضطربًا، - خامًا، ثقيلًا - نومًا بلا أحلام. لا وجود لبقرات عجاف، وبقرات سِمان. معي، سيُضيّع يوسف وقته. بيد أن ذلك تغيّر في تلك الليلة. صحوتُ منتفضة على صوت ضحكات خفيفة، وتمتمات وآهات لذّة - ماذا يحدث؟ هل جُننتُ؟

كلّا، لم أجنّ. كانت الأصوات قادمة من الشّقّة المجاورة -إحدى غرف سليمان. فله منها كثير مبثوثة في القصر. يقال إنه كان يتنقّل من غرفة

---

*) بوتيفار أو قوطفير أو قوطيفار: هو عزيز مصر (الوزير الأوّل) في أثناء فترة قدوم النبي يوسف حسب الروايات التوراتية. وزوجته تُدعى راعيل بنت رمايل، ولقبها زليخة.

إلى أخرى، ليعتني بالنساء اللاتي يوجدنَ فيها- وهو ما بدا نوعًا من الترويج الإشهاري لفحولته ... والأرجح أن الأمر يتعلّق بمسألة الأمن. وأيًّا ما يكن الأمر، فالملك كان هنا -عرفتُه في الحال من صوته، ومن ضحكته المميّزة-، يستقبل امرأة من الحريم. كان واضحًا أنه يجد متعته. حسبما سمعتُ، كان كل شيء مسموحًا به: "والآن مُصّي، والآن انبطحي ..".

أن ينكح، طيّب، ذلك حقّه. أن يتصفّح، من البداية إلى النهاية كتالوغ الويلات، أوكي، أوكي ... ولكنْ، لماذا في هذه الغرفة بالذات؟ ألا يعرف أني في الطرف الآخر من الحاجز، جالسة على السرير، مفتوحة العينَيْن، مكوّرة القبضَتَيْن، وأنا أسمع، وأسمع، وأسمع؟

كان يعرف، أجل. كان يعرف كل شيء. أليس هو أكثر البشر حكمة في العالم، الرجل الذي يُحسن التّحدّث مع الطيور؟ كان يعرف، بالطبع يعرف. وإذا كان يعرف، فثمّة أمران: إمّا أنه يستهين بحضوري، كما يستهين بشؤم، وإمّا أنه لا يستهين.

إن كان يستهين، فعليّ أن أتخلّى نهائيًّا عن كل أوهامي: "دعي عنكِ كل آمالكِ، أنتِ، يا دميمة، لا تُحسن غير الكتابة، خبّئي مندولينتكِ، واذهبي للغناء في بلاطات أخرى، انسي سليمان الذي تحلمين به، والذي أيقظكِ من نومكِ في عزّ الليل، ليبين لكِ، بآهاته الشبقية، لا جدوى عذابكِ في هواه ..".

نهاية قاسية. تضعني حتمًا في مواجهة الواقع. عليّ أن أقرّر ما إذا كنتُ راغبة في مواصلة المهزلة أم لا. لا يفيدني في شيء أن أتظاهر بأني زوجة الملك. إمّا أن أقبل حكاية تحرير كتاب دون أيّ آفاق أخرى، أو أن

أذهب نهائيًّا، في مكان بعيد على الأفضل، الصحراء مثلاً. سأعيش في كهف، وحيدة، بألمي ومرارتي. وحجري.

ولكنْ، ثمّة الاحتمال الآخر: لعلّه يتذكّر، نعم، إني في الغرفة المجاورة. وإن كان يتذكّر، فلماذا يقوم بكل هذا الضجيج الفاحش؟ سادية؟ ليس من طبعه. افتخار بالفحولة؟ لأيّ غاية؟ أن يغزو قلبي؟ أنا، التي وهبتْ له نفسها دون فلاح؟

لم يكن ثمّة غير إجابة ممكنة. ليس الجنس هو الذي كان سليمان يفكّر فيه، بل الكتاب. فالجنس لا يعوزه. فالعرض في حالته يفوق الطلب بكثير. كان له نساء من الكثرة ما لا يستطيع إرضاءهنّ جميعًا، حتّى لو استعان بطاقاته السِّحْرِيَّة الأسطورية. أغلب الظّنّ أن ممارسة الجنس بالنسبة إليه تضحية، فرض يمليه عليه مركزه. أمّا الكتاب، فلا. الكتاب يُشبع حاجته إلى المعرفة، والتمكين. الكتاب، كما يقول هو نفسه، يُخلّده. والكتاب هو أنا. وهو أمر يزداد تأكّدًا كل يوم. ولكن المؤكّد أيضًا أنه من النباهة ما يجعله ينتبه إلى ذلك، وأن صبري على هذا العمل ليس ذي آماد، لا تحدّ. هكذا هو يلوّح لي بوعود، يصوغها بطريقة غير مباشرة. ولو حوّلناها إلى أصوات، لكانت: "حرّري نصّكِ جيّدًا، وسوف يكون لكِ في فراشي مكان - كل النشوة التي توحي بها هذه الآهات والتّنهّدات والضحكات الوانية أدّخرها لكَ. إنها استثمار، تودعينه في بنك اللّذّة. وفي يوم، يمكنكِ أن تسحبي كل شيء مع الأرباح التي تستحقّين. عندها سترين ما يقدر عليه سليمان. دميمة أم لا، سوف تعيشين ليالي تهتّك!".

ما حصل أن تلك التِّقْنِيَّة الصوتية أيقظتْ شهوتي. يا لها من شهوة!

(ويا له من حنين إلى الحجر! هو على الأقلّ، لم يُهنّي، ولم يخذلْني!) على أيّة حال، ينبغي أن أقرّ أنها حيلة، هذا الملك - القادر حتّى على مخاطبة الطيور - نجح كثيرًا. لقد وقعتُ في فخّه. صرتُ، في وجه من الوجوه، أمَةَ مشروعه. تمامًا كالعبريّيْن في مصر، إذ جُنّدوا لبناء الأهرام، كنتُ أضع كل يوم حجري في مَعلَمه الأدبي. في حالتي، كنتُ خاضعة لفرعون ودود، يعاملني بلطف. ولكنه استعباد على أيّة حال، ومن هذا الاستعباد لن يخلّصني أيّ موسى. مياه البحر (ونحن بعيدون عنها هنا في أورشليم) لن تنشقّ لقيادتي إلى الأرض الموعودة. إلا إذا جاء الراعي الشّابّ - مسكين ذلك الراعي الصغير - بثوّاره لتخليصي. مستبعد. ثمّ إنها ستكون محاول يائسة: سوف يسحقهم جنود سليمان في لمح البصر.

تعوّدتُ في النهاية على عمليات الغرفة المجاورة، ونسق العمل الرتيب. ليس ثمّة شيء آخر أفعله. كنتُ لا أغادر القصر. الشيء الوحيد الذي يسمح لي به هو زيارة الحريم. صارت النسوة ينظرنَ إليّ بشكل مختلف - بإعجاب وحتّى بنوع من الاحترام. كنتُ الدميمة دومًا، ولكنْ، دميمة محترمة، الدميمة التي عهد إليها سليمان بمهمّة سامية. أنا أيضًا تغيّرتُ من ناحيتهنّ. الاحتقار الذي انتابني تجاه الخدر، بعد فشل حركة الاحتجاج التي حاولتُ تنظيمها، ناب عنه الآن تسامح مستسلم، وحتّى نوع من التعاطف. مثلي، كنّ قادمات من أماكن بعيدة. مثلي، كنّ هنا لإضفاء الشرعية على تحالفات. مثلي، كنّ يحلمنَ بفراش الملك - ومثلي كانت كثيرات منهنّ يعشقنه. وبعكسي أنا، كنّ في معظمهنّ جميلات. ولكنْ، بعكسي أنا، لم يَكُنّ يُحسِنّ القراءة والكتابة؛ لم يكن لهنّ في حياتهنّ غير انتظار نداء الملك. ولكنْ، في نهاية النهايات، كلنا نساء، وأتساءل حينما أراهنّ في الحريم أو في

صحن المبنى يثرثرنَ، يتسلّينَ أو يغنّينَ: ألا أستطيع أن أجد من بينهنّ صديقة، واحدة يمكن أن تؤدّي في حياتي الدور الذي لم تستطع أخواتي أن يؤدّينَه، وهنّ اللاتي نبذنَني بوحشية؟

عندما تستبدّ بي هذه الشكوك، يُصاب النّصّ، مصادفة، باثناء، وحتّى تغيُّر، غير محسوب. تركْنا خلْفَنا موسى وجروحَ مصر، عبور البحر الأحمر والرحلة الشّاقّة عبر سيناء. كان يشوع(*) قد حطّم أسوار أريحا، وتمّ الاستيلاء على قانا الجليل بعد معارك ضارية. كلها على نسق واحد: معارك ودماء.

ولكنْ، ها إن راعوث وناومي(**) تظهران. كانت صدمة حقيقية، شيئًا له مفعول سِحْرِيّ، أخرجني من خمولي المعتاد، وأيقظ أحاسيسي. حكاية الصداقة بين هاتَيْن المرأتَيْن، حماة وكنّة، يهودية وموآبية(***)، عجوز وشابّة، أثرت فيّ حدّ البكاء. قضيتُ ساعات أفكّر فيهما، وفي عهد الوفاء الذي قَطَعَتَاه. ثمّ جلستُ إلى طاولتي، واشتغلتُ بهمّة. كتبتُ ثلاث صيغ، إلى أن انتهيتُ إلى أن النّصّ لم يعد يحتمل التطوير. عندما قرأتُ للقدماء الصيغة الختامية، أجهشتُ بالبكاء. في العادة، كانوا يردّون بانفعال -"هذه نتيجة تكليف امرأة بتحرير نصّ مقدّس، فهنّ لا يملكنَ أيّ موضوعية، ولا يتحكّمنَ في أعصابهنّ"- ولكنْ، هذه المرّة لزموا صمتًا، فيه احترام، بل وأقول فيه تضامن أيضًا. هم يعرفون أن تأثّري ناجم عن تطابق عميق مع المرأتَيْن.

---

*) Josué: يَشوع بن نون (عند المسيحيّيْن) أو يُوشَع بن نون (عند المسلمين).

**) Ruth: راعوث هي امرأة موآبية، سُمّي السفر الثامن باسمها، وهي زوجة بوعز جدّ الملك داود. وناومي Naomi هي حماتها.

***) نسبة إلى مملكة موآب Moab، التي كانت تقع شرقيّ البحر الميّت.

فكّرتُ كثيرًا في حكاية راعوث وناومي خلال الأيّام التي تلتْ. كانت بمثابة رسالة كتبتُها، ليس لسليمان، كما في حال آدم وحواء، بل لي أنا. فجأة فكّرتُ أني ينبغي أن أتخلّى عن وحدتي. صحيح أن زوجي الملكي يتجاهلني، وأهلي بعيدة (حتّى وإن كانت قريبة، فلن يتغيّر من الأمر شيء)، ولكني يمكن أن أجد السند لدى صديقة. عبارة صارت جديدة في مسمعي. في القرية مثلاً، لم أتوصّل إلى ربط علاقة مع أحد. كنتُ الدميمة، المهمّشة، ثمّ تكرّر الوضع في الحريم. غير أن شيئًا ما ينبئني بأن من بين كل تلك النساء مَنْ تستطيع فهمي، وتكون لي الصديقة الوفية. الرفيقة التي ينبغي أن ألتقي بها.

ولقيتُها. كان ذلك في ليلة حامية من ذلك الصيف الحارق. كانت قد مرّت ساعات، وأنا أحاول الاشتغال على المخطوط. عبثًا. بعد حكاية راعوث وناومي، بدت لي السردية بلا أهمّيّة، خالية من أيّ إحساس. تركتُ الرّقّ جانبًا، وذهبتُ للنوم. ولكنْ، بما أن النوم جفاني، قرّرتُ الخروج لشمّ الهواء. سرتُ بغير غاية في أروقة القصر، تحت أنظار الحَرَس المرتابة، حتّى بلغتُ حديقة الحريم.

كان ثمّة قمر عريض ينير المكان، وكان خاليًا في تلك الساعة - منتصف الليل تقريبًا. غير أن امرأة كانت جالسة هناك. أعرفها معرفة سطحية. أعرف أنها خليلة، وليست زوجة. ابتسمتْ حين رأتني:

"أراكِ لا تستطيعين النوم". تريّثتُ، ثمّ أردفتُ: "مثلي أنا. لقد هجرني النوم من مدّة. لذلك آتي هنا، أفكّر قليلاً في الحياة، وأسترجع الماضي".

– وهذا جيّد؟ سألتُ.

ابتسمتْ من جديد.

"لستُ أدري. أفضل من لا شيء ... تعالي، اجلسي".

جلستُ، وبدأنا نتحادث. عن أشياء لا قيمة لها في البداية، ثمّ عن أشياء أهمّ - تحدّثنا، تحدّثنا. كأننا صديقتان منذ وقت طويل.

كان اسمها ميكول. لا تزال جميلة، مثيرة، رغم أنها لم تعد شابّة. كانت في الواقع من بين الخليلات الأوّليّات اللاتي ابتاعهنّ سليمان، في وقت كانت فيه سوق الزوجات مشبعة.

"الملك اشتراني بثمن بخس. كنتُ خليلة قبله. وكان سيّدي الأوّل فظًّا، يعنّفني كل ليلة. ورغم ذلك شعرتُ بالخوف حينما أعلمني بأني سأنتقل إلى القصر الملكي، وأنه باعني لسليمان. ألا أكون بصدد تغيير مستبدّ بمستبدّ آخر قد يكون أفظع؟ ولكنْ، عندما رأيتُ ملكنا، رجلنا، عشقتُه في الحال. مثلكِ أنتِ. وأقول الحقّ إنه كان عشقًا متبادلًا. كان لا يزال شابًّا وقتئذ، أكثر اندفاعًا، وأقلّ خبرة أيضًا. رجل حزين. حكيم، ولكنْ، حزين - الحكمة لا تجعل أيّ أحد مرحًا. زيدي على ذلك أن المشاكل مع أبيه أثّرتْ فيه. إذ كان زير نساء، الملك داوود. ابنه كان يعلم، وذلك يعذّبه كثيرًا. المسكين لم يكن يُحسن الجماع. ذات يوم، اعترف لي بأنه اشترى خليلة لأجل هذا تحديدًا. طلب منّي أن أعلّمه الجنس، وهو ما لا يمكن أن يطلبه من زوجاته، وهنّ في مثل قلّة خبرته. مهمّة قبلتُها بغاية السرور. سرعان ما أدركتُ أن عليّ أن أتقدّم ببطء، أن أقودَه خطوة خطوة، وهو ما لم يكن سهلًا، بسبب قلقه، وخوفه من

الفشل. أحيانا، ونحن في الفراش، وهو فوقي، يقول فجأة: "لا أقدر، لا أقدر". فأُهدِّئ روعه، ثمّ أستثيره من جديد، فيغدو بركانًا ..".

سكتت، ونظرتها شاردة، تتذكّر تلك اللحظات.

"كانت أسابيع من العشق، واصلتْ. ثمّ تمّ شراء خليلات أخريات لاحقًا. فيما استمرّ قدوم الزوجات بأعداد غفيرة ... فلم يعد لسليمان ما يكفي من الأيادي ..".

وضحكتْ.

"الأيادي وما يتبعها ... وُضِعْتُ في المقام الثاني، تفهمين قصدي؟ ولكنْ، سيّان عندي، كنتُ أعرف أن ذلك سيحصل في يوم من الأيّام. كنتُ نوعًا من المستشارة في المسائل الجنسية. كان يدعوني: "اسمعي، يا ميكول، تلك الزوجة القادمة من الشمال باردة جنسيًا، ماذا أفعل؟" فأقول له كيف يتصرّف. "ميكول، السمراء شديدة الغَيْرة، كيف أحلّ هذه المشكلة؟" فأقدّم له مقترحات. عندما تضخّم عدد النساء، عاد يلتمس رأيي. كيف ينظّم نفسه؟ كيف يلبّي رغباتهنّ جميعًا؟ أوّل ما تبادر إلى ذهنه أن يدعو إلى فراشه امرأة في اليوم الذي يصادف عيدَ ميلادها. فبيّنتُ له أن عدّة نساء قد يكون عيد ميلادهنّ في اليوم نفسه، وهو ما يعقّد الأمور. "استعملْ معاييركَ الذاتية، قلتُ له، ولا تكشف عنها لأحد، فالحُبّ يحتاج إلى الغموض". ظلّ فاغرًا فاه. قال لي إني حكيمة، أكثر حكمة منه. لم يكن ينساني كامرأة. عندما يرغب حقًّا في مضاجعة جيّدة، يدعوني أنا".

– "وكيف كان في الفراش؟" قلتُ وأنا أستغرب منّي هذا السؤال ...

لو حدّثتْني أيّ واحدة عن علاقاتها الجنسية بسليمان لمتُّ غَيْرة وحسدًا. ولكنْ، مع ميكول، شعرتُ أني يمكن أن أتحدّث عن هذا الموضوع الشديد الحساسية بالنسبة إليّ ... أهي الصداقة؟ أجل، هي صداقة ناشئة - لاحظتُ بكثير من السرور. لا أدري هل كانت تستشعر الشيء نفسه؟ فقد أجابتْني بتلقائية:

"في الحقيقة، لم يكن استثنائيًّا، ولكنه جيّد. بفضل تماريني - إذا طرحنا التواضع جانبًا ، تطوّر كثيرًا. من صفر إلى عشرة، سوف أمنحه سبعة. وحتّى ثمانية، بحسب الأيّام ... ثمّة أيّام، يكون فيها مُلهَمًا، وأخرى لا يستطيع خلالها التركيز. بالنسبة إلى ملك مثقل بالعمل والرأس مملوء بالمشاكل، فذلك معقول وزيادة. ما ينقصه من جهة طاقة التّحمّل، يُعوّضه بالحنان. ثمّ إنها متعة أن نتحدّث إليه ... عقل ... كان يكلّم الطير ... ويعرف أكثر الأوضاع العجيبة ... وكان تعلَّمها من ملوك الشرق".

ولكي لا تجرحني، ربّما - ولو أن هذه الحيطة ليست ضرورية -، كانت ميكول توحي لي بأن ما ترويه صار في عداد الماضي. في تاريخ عشق سليمان، كانت صفحة مَطوية.

"كنتُ مهمّة، ولم أعد كذلك. ولكنْ، كل شيء على ما يرام، ما بقيت لي ذكريات. وكذلك لأن ثمّة شخصًا آخر بعده ..".

شخص آخر؟ كيف؟ بأيّ طريقة استطاعت ربط علاقة مع رجل آخر؟ غمزتْ بعينها.

"أنا أعيش في الحريم، يا عزيزتي، ولستُ سجينته ... صحيح أن

الخروج منه ليس سهلاً، ولكنْ، توجد دائمًا وسيلة. خارج الحريم يوجد كثير من الرجال الوسام. قابلتُ، وما بالعهد من قدم، شابًّا رائعًا في الفراش. هو متعهَّد(*) قليلاً، ولكنْ .."‏.

قطعتْ كلامها فجأة، ولزمتِ الصمت برهة، وعيناها شاردتان. تنهّدت:

"مغامراتي ليست جديرة بالاهتمام. لنتحدّث عنكِ أنتِ، فأنتِ أهمّ .."‏.

أرادت أن تعرف من أين جئتُ، وكيف كانت حياتي، وما هي علاقتي بسليمان. حدّثتُها عن فشله الذريع. فاجأني أن ترى ذلك مسلِّيًا، وتقول لي ألا أُشغل به بالي، وإن دوري قادم آجلاً أم عاجلاً. مثلما فاجأني اهتمامها الصادق بالكتاب الذي كنتُ أعدّه. مهتمّة، لا، بل مذهولة.

"كتابة مثل هذا التاريخ مَجد، يا صديقتي، مجد! لكم أودّ أن أكون فيه! جنب سليمان مثلاً... ولكنْ، حوله خلق كثير. سبعمائة زوجة وثلاثمائة خليلة ... مستحيل. لا مكان لي. اللّهمّ في نقاط التتابع .."‏.

لم تكن تُحسن القراءة والكتابة، ولكنها كانت تعرف كلّ العلامات الخطوطية، النقطة، الفاصلة -التي تجعلها دائمًا شاردة الذهن-، علامتا الاستفهام والتّعجّب - اللتان تصيبانها بنوبات ضحك. ولكنّ ما يسرُّها حقًّا هي نقاط التتابع. تعرف أنها تصلح للتفكير، والنظرة شاردة، في العالم، في الحياة ...

"أجل، قد يكون ثمّة مكان لي في نقاط التتابع ... مَنْ يرى تلك

(*) Gigolo: عشيق تتعهّده امرأة ماديًّا.

النقاط الثلاث الصغيرة يقول: "همم، حكاية سليمان ليست تلك التي تصفها الكلمات فقط. ثمّة أشياء أخرى ..". ويتساءل ماذا يمكن أن تكون تلك الأشياء الأخرى ... وبتصفّح قائمة الممكنات، قد يخطر بباله حُبّ مع خليلة ما ... حصّة كبرى ..". وعدتُ أن أضع في حكاية سليمان نقاط تتابع. ولو أن تلك الإمكانية يستبعد أن تتوافر لي في الواقع. فبقدر ما كانت ميكول تعشق العلامات الخطوطية، كان القدماء يكرهونها: "لمَ علامات الاستفهام والتّعجّب، ما دام الرّبّ لا يتساءل ولا يتعجّب؟ لمَ نقاط التتابع، ما دام الرّبّ لا يتردّد أبدًا؟".

كانت تلك هي المرّة الوحيدة التي كذبتُ فيها على ميكول. خلال الأشهر القليلة التي التقيْنا فيها -كنّا نلتقي في الحديقة كل ليلة تقريبًا-، كانت علاقتنا قائمة على الصراحة. كنتُ أحبّها. كانت ميكول كل شيء بالنسبة إليّ: الأم التي تهرب من مسؤوليّتها، الأب الذي لا يعنّف، الأخت التي لا تكذب، الزوج الذي لا ينبذني. كنتُ سعيدة معها. ليس تمامًا في الحقيقة. بسبب سليمان بطبيعة الحال. كانت تحاول تسليتي. "سوف يدعوكِ، كانت تقول، إنها مسألة وقت". كم، وددتُ أن أعرف. وقت طويل، غير طويل؟ أسابيع، أيّام، سنوات؟ وفي يوم، وقد نفد صبري، حاولتُ أن أستلّ منها جوابًا، فردّت بكآبة - أعتقد أنها كانت شكوى غير مباشرة، الوحيدة التي أطلقتْها طوال علاقتنا:

"أمامكِ الوقت. أنا التي ما عاد لها وقت".

لم أفهم. لماذا لم يعد لها وقت؟ لم تكن امرأة صغيرة السّنّ، ولكنها ليست عجوزًا. لماذا لا يكون أمامها وقت؟

أمسكتْ يدي، بمثابة إجابة، ووضعتْها على بطنها. كان ثمّة شيء، شيء كبير وصلب - صلب كالحجر. حَمْل، ذلك ما خطر ببالي، فاستبدّت بي غَيْرة مفاجِئة، عنيفة بقدر ما هي عبثية. رغم ما روت لي عن غياب علاقات جنسية في حياتها، اعتقدتُ أنها تنتظر مولودًا - من سليمان. ولا بدّ حينئذ أن تعتني بالرضيع - ابن الملك - وليس ابني.

فهمت أفكاري بسهولة، وتبسّمت في أسى:

"كلاّ، لستُ حاملاً. صعب في سنّي، أليس كذلك؟ ثمّ إني لا يمكن أن أنجب ولدًا، فلستُ جديرة به. كلاّ، هذا ليس حملاً. إنه ورمٌ بداخلي، ورمٌ ينمو بلا انقطاع. وهذا معناه أني مريضة جدًّا. وأني سأموت عمّا قريب".

لم أستطع تصديق ما قالت، لا سيّما بسبب استسلامها الهادئ. في جسمها ورم؟ وسوف تموت؟ ولكنْ، لماذا؟ لماذا ترضى بهذا المصير الظالم، البشع؟ فجأة، غمرني إحساس عظيم بالذنب. كنتُ أشكو دمامتي، وكأنها أعظم مأساة في الكون، فيما المسكينة ميكول تموت. أنا الأنانية، لم ألاحظ حتّى خطورة وضعها الصّحّيّ. أيقنتُ الآن إلى أيّ درجة انحدرتْ ونحلتْ خلال الأسابيع الأخيرة. كانت شاحبة، هزيلة. ظننتُ أنها تتبع حمية غذائية. وتلك من عاداتها، إذ كانت تقضي أيّامًا، لا تتناول فيها أكثر من بعض حبّات برتقال أو رمان. ولكني كنتُ مخطئة، لم تكن حمية، كان مرضًا، مرضًا خطيرًا، قاتلاً.

ينبغي القيام بإجراء ما! قلتُ وأنا أجهد في كتمان دموعي. سأُخبر طبيب القصر، إنه طبيب ماهر، هو ...

– "طبيب القصر قال قُضي الأمر"، قاطعتْني بهدوء.

لم أحتمل فوق ذلك. انفجرتُ باكية. بكيتُ لأجلها، بكيتُ لأجلي. لقد وجدتُ صديقة، شخصًا أثق فيه، وهذه الصديقة ستتركني. "أريد أن أموت! قلتُ. أريد أن أموت معكِ! سأذهب حيثما تذهبين! وإن تواريتِ، فسوف أتوارى معكِ!" وبابتسامة (لا تخلو من مسحة ارتياب كئيبة - إذ بدا لها صراخي مبالغًا فيه قليلًا)، حاولتْ عزائي: "لن أتخلّى عنكِ أبدًا، سأكون دائمًا قريبة منكِ بذهني" - كل تلك الأشياء التي يقولها المنازعون المثيرون للشفقة لطفل أو صديق.

تطوّر المرض سريعًا. وفي وقت وجيز، لم يبقَ لها غير الجلد على العظام. كان الورم يتضخّم بشكل مرعب، ولم تعد ميكول من شدّة الضعف تقوى على القيام من فراشها. جلستُ بجانبها، أنظر مرتعبة إلى جسدها المتلَف، وقد صار مُجرّد زائدة للكتلة المشؤومة، التي باتت في بشاعتها تُرى بسهولة. يمكن أن نرى عبر فتحة قميص نومها نهدَيْها اللذَيْن كانا منذ بضعة أسابيع، يثيران إعجابي. ذانك النهدان، ماذا أصبحا؟ أحدهما، الأيمن أو الأيسر ما عدتُ أذكر، كان لا يزال ناهضًا، كأنه يقاوم بشجاعة، ولكن الآخر، الأيمن أو الأيسر، فكان ذابلًا، مُحبَطًا، مُجهَدًا. هذا النهد كان قد تخلّى عن الصمود، وبدأ يرتاد وادي أطياف الموت، ملوّحًا يمنة ويسرة: "هالو، يا أطياف الموت، أنا قادم! ماذا باستطاعتي أن أفعل غير ذلك، هه، يا أطياف الموت؟ كان بودّي أن أتجنّب هذه الرحلة، وعلى الأقلّ، أؤخّرها مع رفيقي، ولكنْ، ما حيلتي، يا أطياف الموت؟ كنتُ دائمًا على عجلة، كنتُ دائمًا أريد أن أُنهي بسرعة؛ عندما كان سليمان يرضعني، كنتُ أوّل مَن يكبر ويتصلّب، وها أني الآن ثمرة جافّة، ماذا أقول؟ الثمر الجاف لذيذ ومُغذّ، أمّا أنا، فلستُ سوى ذكرى، ذكرى مُرّة". بذلك حدّثني هذا النهد - أيمنَ كان أم أيسرَ.

كذلك حدّثني ذلك الجسد المتلَف. بسبب الرائحة العفنة التي كان يزفرها، سُحبتْ ميكول من جناح الخليلات، ووُضعتْ في غرفة معزولة، كنتُ أزورها فيها كل يوم. كان ذلك يُحدث لي مشاجرات دائمة مع القدماء. كانوا يتذمّرون من تأخّر العمل، ويشترطون مزيدًا من الجهد. لم يكن لي أدنى رغبة في الكتابة، ولكن ميكول كانت تحثّني عليها. فأجلس حينئذ إلى طاولتي، وأعمل، أعمل. كانت السردية قد بدأت تقترب من مرحلتنا. وصلنا إلى سِفْر صاموئيل. كان شاول[*] قد نُصّب ملكًا، وكانت الملكية ستبلغ أوجها مع سليمان. ولكن حكايات الصراع والمؤامرات لم تكن تعنيني كثيرًا. لم أكن أفكّر سوى في ميكول، ميكول التي تموت في خلوتها الضّيّقة. كنتُ غالبًا ما أُعيد رقّي مغسولًا بدموعي.

وفي ليلة، جاءني أحد القدماء. كان يريد أن يعرف ما يجري. كنتُ لا أزال أُعادي أولئك الشيوخ، وكنتُ في العادة أردّ: "هذا شيء لا يعنيكَ، قم بعملكَ، وأنا أقوم بعملي. "ولكنْ لسبب لا أدريه، قرّرتُ أن أحكي له ما يجري: صديقة تموت، ولا أستطيع أن أعتني بها، أنا مكلّفة بكتابة سردية، لا تمثّل شيئًا بالنسبة إليّ، فما هي سوى دليل على غرور الملك. لم يُعجبه ذلك: "لا تتحدّثي هكذا. إنه تاريخ مهمّ، إنه تاريخ شعب، يتبع إرادة إلهية". فزاد ذلك من ثورتي.

"إرادة إلهية؟ أيّ إرادة إلهية تترك للموت امرأة لم تسئ أبدًا إلى أحد؟ ربّكم لا يريد غير القرابين، ولا شيء غير ذلك. أمّا حلّ المشاكل، فهو لا يعرفه. انظر ما حلّ بالمسكين أيّوب! بسبب رهان مع الشيطان، غمرَ الرجلَ جروحًا! إرادة إلهية! هي ذي إرادتكَ الإلهية!"

كان يمكن أن يثور الشيخ عليّ. أن يندّد بالرجس، أو أيّ شيء من هذا

---

*) طالوت لدى المسلمين.

القبيل. كان يمكن أن يُبلّغ عنّي لدى سليمان. ولكنه لم يفعل. لماذا؟ لأنه رقّ لألمي؟ لأنه في حاجة إليّ؟ لا أدري. المهمّ أنه فضّل مواساتي. قال لي إن ميكول في الواقع تلقى العذاب الرّبّاني. الجميع كانوا يعلمون أنها غير مُطيعة. وأنها خانت سليمان مع رجال كُثُر: جلّاس الملك، حرّاس القصر، وحتّى راع أعرج، كان في فترة ما يحوم بالقصر، وهو يعزف على الناي. سليمان غفر لها، ولكنه لم يستطع أن يجنّبها العقاب الإلهي.

أذهلتْني المكاشفة. كنتُ أعلم أن ميكول كان لها علاقات. ولكنْ، الراعي؟ لذلك إذنْ كان يرود بالقصر؟ على أيّة حال، ميكول لم ترتكب أيّ سوء. إذا كان من حقّ سليمان أن يحوز ألف امرأة، لمَ لا يكون من حقّها هي أيضًا في بضع مغامرات؟ أيًّا ما يكن الأمر، ألجمَ التعليق لساني. قلتُ للشيخ إني عائدة إلى العمل، وذلك ما فعلتُ. كتبتُ حتّى الفجر، كتبتُ دون توقّف.

من الغد، وجدتُ ميكول أكثر سوءًا. كانت رئيسة الحريم هناك تهزّ رأسها. إن هي إلا أيّام، وربّما ساعات. طلبتْ منها ميكول أن تخرج، كانت تريد التّحدّث إليّ على انفراد. خرجتِ المرأة. انحنيتُ عليها فوق السرير.

"لي طلب إليكِ، قالتْ بصوت يكاد لا يُسمَع - طلب أخير".

كانت تودّ رؤية سليمان قبل أن تموت. كانت تريد مضاجعته، للمرّة الأخيرة. عندئذ فقط يمكن لها أن تقضي مرتاحة البال. ضغطتْ على يَدَيّ بيَدَيْها الواهنَتَيْن المتيبّسَتَيْن.

"أرجوكِ، ساعديني. إن طلبتِ منه، فسوف يسمع منكِ. لم يعد يحتاج إليّ، ولكنه حقًّا في حاجة إليكِ".

ما حيلتي؟ كانت قد انقضت مدّة طويلة دون أن أراه، ولا أدري هل يقبلني. ولكني سأفعل كل شيء لأجل ميكول.

خرجتُ وذهبتُ إلى المسؤول عن المقابلات.

"أريد أن أتحدّث إلى الملك. إنها مسألة عاجلة".

نظر إليّ بارتياب - لم يكن يحبّني، ذلك الرجل - وفحص رقّ المواعيد الملكي.

"غير ممكن. اليوم وغدًا مشغول كامل الوقت. عدّة بعثات من الخارج ... غير ممكن".

ألححتُ: كنتُ في مأزق بخصوص تحرير الكتاب، وما عدتُ قادرة على التّقدّم، لقد توقّف العمل. سليمان نفسه كان أمرني بالاتّصال به حال بروز صعوبة. تنهّد المستشار، وعاد إلى رقّ المواعيد، يتفحّصه.

"سأرى إن كان بإمكانكِ ملاقاته الآن. ولكنْ، لديكِ خمس عشرة دقيقة، هه؟ خمس عشرة دقيقة. حاولي أن تستعجلي أمركِ ..".

دخلْنا الإيوان. كان سليمان جالسًا على العرش، يستقبل أعيانًا أجانب. دون بهرج، ودون إذنْ، صعدتُ الدرجات، والأسود تحرِّك رؤوسها المصنوعة من الخشب المنحوت علامة على استنكارها، وتمتمتُ في أذنه:

"ينبغي أن ترى ميكول، يا سليمان! المسكينة تُحتَضَر. هذه آخر رغباتها!"

عبس سليمان.

مكتبة
t.me/soramnqraa

"ميكول؟ أعرف مَنْ تكون، ولكني لا أذكر جيّدًا ..".

وقبل أن يطلب من النّسّاخ أن يجيئه بالجذاذة، ما قد يضيّع الوقت، شرحتُ له بعجالة أنها من أوّليّات خليلات حريمه، تلك التي ...

"آه، أجل، الآن تذكّرها. ولكنها ليست ذكرى جميلة: "إنها المرأة التي جعلتْني قرنان، قال في نبرة مغتمة، تلك التي خانتْني مع نصف مَنْ في القصر ...

– إنها تُحتضَر! ألححتُ بشدّة، وغلظة. هذا ليس وقت تصفية حسابات، يا سليمان!"

جعل يقول إن ذلك يستعصي عليه الآن، وإنه سيبعث إليها بطبيبه.

– "كلّا!" صرختُ، فأفزعتُ الزائرين الذين لم يفهموا ما يجري. "هي لا تريد طبيبًا! هي تريدكَ أنتَ!"

ما زال يمُعن في المقاومة: لا يمكن أن يغادر الإيوان الآن، فالحاضرون هنا مهمّون جدًّا: ثمّة اتّفاقيّة سوف تُوقَّع في اليوم نفسه، اتّفاقيّة عن الدَّين الخارجي - مسألة حسّاسة.

أثار ذلك استنكاري. ميكول المسكينة تُحتضَر وهذا الشخص الذي وهبتْه حياتها منشغل بالمقابلات والتشريفات. قلتُ في غضب:

"كلّا. ستذهب الآن!

– غدًا، قال متمتمًا. أعدكِ أني غدًا ...

– اليوم! إن لم يكن اليوم، أقسم لكَ أني سأتخلّى عن كتاب الخراء هذا، وأذهب في سبيلي، ولن تراني أبدًا".

تنهّد.

"حسنًا. هذا المساء.

– لا. الآن.

– غير ممكن. هذا الأصيل، إذنْ. في أوّل فرصة".

كان الليل قد انتصف حينما دخل غرفة ميكول. لم تره: كانت في غيبوبة. وماتت بعدها بأسبوع.

لم يلفتْ موت ميكول انتباهَ أحد في البلاط. ولم يحضر دفنها أكثر من نصف دستة من النساء - بمَنْ فيهنّ أنا وإحدى أخواتها. لم يشرّفنا سليمان بحضوره. كان مشغولًا في تلك الأيّام، ينتظر زيارة هامّة. لم تكن الزيارات الهامّة المدوّنة بأجندته نادرة، ولكن هذه الزيارة استثنائية، فلا حديث إلا عنها في أروقة القصر. حتّى الشيوخ العقلاء كانوا يعلّقون على الموضوع: "أتدرين مَنْ سيجيء؟"، سألوني وعيونهم متّقدة.

لا أعرف، ولا أريد أن أعرف. كنتُ منكفئة على ألمي، لا يمكن أن أفكّر في شيء. لم أحتمل غياب ميكول، لا سيّما أن فقدانها لا يمكن أن يشاطرني فيه أحد. لم تكن معروفة لدى نساء الحريم. وعجائز "التقاعد" يذكرنها - إذا استطعنَ التّذكّر - في حسد: "كانت مَحظية سليمان. لم يكن يهمّها من أمرنا شيء". بلغ بي الحزن مبلغًا، جعلني أفكّر في العودة إلى القرية، والبحث عن ملاذ وسط عائلتي. ولكنهم لن يفهموني على

الأرجح. خليلة ماتت؟ وأين المشكلة؟ ألا تبقى مائتان وتسع وتسعون خليلة؟ وما شأني؟ أنا زوجة، وأنتمي إلى صنف آخر. إن صادف أن ربطت بالفقيدة صلات، فينبغي نسيانها. قد يكون في ذلك أثر سيِّئ، وربّما يثير شكوكًا، لا تليق.

الوحيدة التي اهتمّتْ بمرض ميكول كانت خليلة أخرى، ولكنْ، لأسباب مادّيّة: كانت ترغب في سريرها. "سريري رديء جدًّا، كانت تقول، ظهري مرضوض!" ما كادت ميكول تُدفن حتّى استولت على السرير الجديد في غبطة مَن يغرز رايته في أرض مغزوّة.

لم يكن ثمّة أحد أُحدّثه عن عذابي، فانهمكتُ في الشغل. بيد أني لا يمكن ألا ألاحظ الحركة غير المعهودة التي رانت على القصر. كان الناس ينظّفون، ويرتّبون، ويجيئون بالأثاث والزرابي والفوانيس. استخلصتُ أن ذلك مرتبط بالزيارة الموعودة، وسألتُ رئيسة الحريم التي أقبلت. نظرتْ إليه باندهاش كأني قادمة من كوكب غريب:

"ألستِ على علم؟ ولكنْ، أين رأسكِ؟ إنها ملكة سبأ، يا ابنتي! إنها قادمة لزيارتنا!

– ومَنْ هي ملكة سبأ؟" سألتُ، دون كثير اهتمام في الواقع: ملوك وملكات كانوا يمرّون من هنا كل يوم تقريبًا، ولا أذكر دائمًا أسماء البلدان التي يأتون منها. نظرتْ إليّ من جديد، منذهلة من درجة جهلي. كهذا إذنْ، أنا، المرأة المتعلّمة التي اختارها سليمان كي تؤلّف كتابًا، لا تعرف مَنْ هي ملكة سبأ؟ كلّا، لا أعرفها. وهل تستطيع أن تفسّر لي؟ بالتأكيد، قالت، وقد سرّتْها فرصة، قد تسمح لي ربّما بتخصيص هامش لها في

الكتاب المنتظر: "تفاصيل عن زيارة ملكة سبأ، قدّمتْها رئيسة الحريم، مصدر موثوق ..".

كانت ملكة بلاد أسطورية، لا يعرف أحد تحديد موقعها. في الجزيرة العربية حسب بعضهم، وفي إفريقيا حسب آخرين. اشتهرت هذه المرأة بجمالها، وجرأتها وثرائها. كانت ترغب منذ زمن طويل في التّعرّف إلى سليمان الذي بلغ صيته مملكتها. كان ذلك هو الهدف الحصري من زيارتها. جاءت لترى الملك - وهي زيارة قد تطول. ليس غريبًا ألا تفرح نساء الحريم بهذه الزيارة. فالخلاف على فراش سليمان كان لا يزال على أشدّه. وقدوم هذه الغريبة لن يزيد الأمور إلا تعقيدًا. جاءت في الظاهر لتلقّي نصائح حكيمة، على غرار الحكّام الآخرين. ولكنْ، ألا تخفي تلك الغاية المعلنة نوايا خفية، تحالفًا سياسيًّا جنسيًّا؟ أيًّا ما يكن الأمر، لا بدّ للملك من العناية بضيفته، وأقلّ التبعات ألا يهتمّ بنساء الحريم - ما يلهب تنافسًا كان قد بلغ الحدود المسموح بها.

أمّا أنا، فلم أكن أشاطرهنّ تلك المشاغل. كنتُ أحمل حداد ميكول، وأرفض الإصغاء لأحاديث القصر. ثمّ إني، وأنا لا أزال تحت ضغط الشيوخ، لا بدّ أن أنهمك في النّصّ. كنّا نشتغل على شخصية معذَّبة، صعبة: شاول، أوّل ملك لإسرائيل. كان في صراع مع المعادلة الكلاسيكية ذات الحدَّيْن سلطة / حرب - حرب فظيعة، أسفرت كما في مثال العماليق عن قتل رجال ونساء وأطفال. لم تكن الفظاعات نادرة حتّى ذلك التاريخ - الرقوق التي تتكدّس على طاولتي مملوءة بها. الجديد في حكايتنا هو حاكم يعاني الاكتئاب، هو من عداد المجموعة المعذّبة من الدميمات ومريضات السرطان والممرّقين. وهذا يجعله أكثر

إنسانية في نظري. إذ إن ثمّة شيئًا بات يحدوني: أن أكون أكثر رقّة، وأُحوّل الضغينة المُتولّدة عن دمامتي والألم بفقد ميكول إلى استسلام هادئ، إلى حكمة. حكمة - ولكنْ، ليست حكمة سليمان التي تبدو مهارة أكثر من شيء آخر. ما كنتُ أبحث عنه هو الأصالة، الحكمة الحقّ التي لا تنشأ إلا من الألم المفهوم والمتعالي. أن يبحث شاول في الموسيقى عن عزاء يؤثّر فيّ أيضًا. أنا أيضًا، كنتُ في لحظات الحزن الطافح أُدندن ببعض الأغاني التي سمعتُها من أمّي أو من نساء القرية، في أثناء طفولتي. كان شاول، قلتُ في نفسي حين بدأت الكتابة عنه، في طريق القداسة.

إلا أنه لم يبلغْها. لم يبلغْها بسبب علاقته المأساوية والمرضية بداود. هذان الرجلان، قلتُ في نفسي، كان عليهما أن يتعلّما من راعوث وناومي. ولكنْ، لعلّ الصداقة لم تكن أمرًا سهلًا بالنسبة إلى رجلَيْن معقّدَيْن. كان شاول يحبّ داود ويكرهه في الوقت ذاته. حاول قتله، ثمّ زوّجه ابنته. أن يكون استشار الساحرة أندور، ليسمع بفضلها صوت مرشده الفقيد صاموئيل، كان دليلًا بالنسبة إليّ على فزعه العاطفي. هذا الرجل، كان يمكن أن أواسيه وأُمتّعه بحكاياتي، أكثر من المغرور سليمان. كنتُ للأسف متأخّرة بمَلِكَيْن.

مع داود، خلف شاول، وصلْنا أخيرًا إلى تاريخ حديث، يمكن للشيوخ أن يقدّموا عنه شهادات شخصية. لم يعودوا في حاجة للرجوع إلى الرقوق. حسبهم أن يتركوا مَدّ ذكرياتهم الذاتية المحترمة ينساب. تحدّثوا عن رجل لائق بشكل استثنائي، موسيقي، شاعر، محارب، عاشق كبير. رووا معركته التاريخية ضدّ جالوت، خلال الحرب ضدّ الفلسطينيّيْن. تحدّثوا

عن أورشليم التي بناها، والتي نقل إليها تابوت الرّبّ(*). كانوا يتحدّثون عن الانتصارات ضدّ الفلسطينيّيْن والأدوميّيْن والموآبيّيْن والعمّونيّيْن والكنعانيّيْن - انتصارات ساهمت في توسيع رقعة المملكة بشكل كبير.

ولكنهم لا يستطيعون أن يتجنّبوا الفصول الأقلّ مجدًا، مثل الثورة المأساوية لابنه أبسلوم، الذي قُتل وهو يحارب أباه. والقصّة الغامضة مع بثشبع التي يرويها الشيوخ في حرج، دون أن ينظروا إلى بعضهم بعضًا أو إليّ. ثمّة أسباب لذلك. الطريقة التي تخلّص بها داود من أوريا، زوج بثشبع(**) وكان قد وقع في هواها، هي ببساطة مثيرة للسخط: أرسل القائدَ إلى الجبهة في موقع خطير، حيث قُتل، كما تمنّى. الرّبّ الذي يرى كل شيء، عاقب ذلك الخزي: هلك الطفل الأوّل للزوجَيْن. ولكن الثاني عاش وصار ملكًا. الملك سليمان.

بفضل هذه الحكاية، بدا لي كل شيء واضحًا. فجأة فهمتُ سليمان، ورغبته في النساء، ولا سيّما النساء الجميلات. لمستُ أيضًا ثغرة في البنيان المتين لثباته العاطفي. ألا يكون مضطهدًا بشبح أخيه، ذلك الشبح المتخفّي في جوانب القصر، وستائر الهيكل، في عتمة الخلوة، هناك حيث ارتخى عضوه بكيفية غير مفهومة؟ الأشباح لها قدرةُ كُلّيّة الحضور، تختفي في كل مكان، في أيّ شيء، في نبتة، آكلة لحوم أم لا، في حيوان ثديي، في طائر. الغراب الذي ينعق هازئًا في الحديقة، أو الحمامة التي لا تطير أبدًا، وتتطلّع إلى الجميع بعينها السوداء الصغيرة الصلبة مثل حبّة - هذان الطائران كانا يملكان كل شيء لحمل الأرواح

---

*) التابوت الذي ورد ذكْره في سورة البقرة، ويحوي بقية من آثار آل موسى وآل هارون، كعصا موسى وثيابه وبعض الألواح التي كُتبت فيها التوراة.

**) انظر الهامش 17.

المعذّبة. ربّما لذلك تعلّم سليمان لغة الطير. كي يسأل كل غراب، كل حمام: "ماذا تنتظر منّي؟ ليس ذنبي إن وقع الاختيار عليكَ لتكفّر عن ذنب أبينا وأمّنا ..". ولكن سليمان، وتلك عقدة القضية، كان له سبب كي يشعر بالذنب. فالأخ مات كي يعيش هو - يعيش في العزّ، والبذخ، والثراء، مع سبعمائة زوجة وثلاثمائة خليلة. عندما طلب سليمان من الرّبّ أن يهبه الحكمة، فليس لفهم البشر فقط. بل لكي يفهم نفسه أيضًا. أكثر من ذلك، كان يريد أن يفهم الماضي - وهي مهمّة معقّدة، ومشروع عملاق، جُنِّدتُ لأجله. فالكتاب لا يُراد منه أن يكون مُجرّد مَعلَم ثقافي، كما يزعم، بل منارة قائمة في الزمن، وإجابة عن اللغز. كان سليمان في حاجة لإيجاد معنى للمسيرة التاريخية التي يرتبط بها. لو يستطيع أن يُبرز أنه ذروة المسار الطويل الذي بُدئ مع الرجل الأوّل والمرأة الأولى، لو يستطيع أن يُظهر أن بؤس الماضي وعظمته، الفضيلة والخطيئة، الصواب والخطأ تركّز في شخصه، في شكل حزمة من المتناقضات -وأنه أيضًا بشر يجهد، كي يكون عادلًا، يحسن الحكم على الناس، وعلى نفسه، كي يعيد رضيعًا إلى أمّه الحقيقية-، فربّما تتركه حينئذ روح الأخ في سلام، وتمضي إلى راحتها المستحقّة في وادي أطياف الموت. ذلك هو الغرض الحقيقي للنّصّ الذي أشتغل عليه: التاريخ كرُقية. لم يكن سليمان يعلم أني أحاول التّسرّب إلى تلافيف الحكاية، وأني أحاول أن أستعيض، ما بين السطور، بشبح عضوي التناسلي غير المشبع شبح الأخ غير المرتاح. كثيرة هي الأشياء ما بين هذه السطور، أليس كذلك؟ بلى، هي كثيرة.

المفازع فوق الطبيعية معدية. بما أني كتبتُ عن الأخ الميّت، بدأتُ أستشعر هنا، في القصر، حضور ذلك الروح - المعذّب كروحي. كان

يتجسّس عليّ، مثلما يتجسّس على سليمان: من خلف كوم رقوق، من تحت الطاولة التي أكتب عليها. إلا أن ذلك الحضور اللامرئيّ لم يكن يخيفني. بالعكس، كان يفتنُني. فلنا أشياء مشتركة كثيرة. أنا أيضًا كنتُ هائمة في الحياة، أبحث عن موقعي. أنا أيضًا أحسّ بأني منبوذة، مهمّشة. ذلك الروح النبيل، الذي غادر الحياة باكرًا، ذلك الروح أُحبّه. لن أستطيع اجتذابه، استقدامه داخلي، احتواءه ... فسيكون في ذلك كسبٌ مضاعَف. أوّلًا، لذّة خيانة سليمان. ليست لذّة جسدية، ملموسة، كتلك التي ذاقتْها ميكول، بما فيها خاصّة لذّتها مع الراعي الشّابّ (تُرى أين هو؟)، وإنما لذّة مضمَرة، وربّما أكثر رقّة. ثانيًا، سيكون لي على سليمان نفوذ خاصّ. لن يرى فيّ الزوجة رَقْم سبعمائة، ولا النّسّاخة الدميمة، بل توأم روحي - إن صحّت العبارة. في البداية، سوف يقترب منّي برهبة، وهو يخشى الانجذاب المحتوم ... غير أني، بالنفوذ الذي سأحوزه بصفتي مالكة روح الأخ الميّت، سأشفع له ذنبه، ولكي أُثبت له ذلك، سأقبل بأن يمارسَ الجنس معي ..".

ولكن إدماج الروح المعذّب ليس بالأمر الهيّن. ينبغي أوّلًا أن أربط الصلة بما وراء القبر. لعلّ ميكول، بوصفها وافدة جديدة، تساعدني: "ألو، ألو، ميكول، ابحثي لي عن أخي سليمان الميّت، أريد أن أهبه جسدي ملجأ في الأرض. قولي له إن هذا اقتراح، لا ينبغي الاستهانة به، يمكنكِ أن تشهدي أني دميمة، ولكني جسديًّا على أحسن تقويم، وأنه سيكون في أبهى محلّ". ثانيًا، ينبغي أن أجتذب الروح الهارب وسجنه بداخلي. ما العمل؟ أجري عارية في الأروقة، على أمل التقاط الجِبْلة الخارجية الضّالّة بالفم أو الأنف أو الفَرج؟ وهذا أمر أقلّ ما يقال فيه معقّد. بوصفي زوجة، لي بعض الحقوق، ولكنْ، ليس حقّ التّجوّل عارية.

آه لو استطعتُ الاستفادة من عون الساحرة إندور. ولكنها ماتت من زمن، ولم تترك حسب علمي لا أخلاقًا ولا أدلّة استعمال، لا شيء. والماسك بالعلم كله، حتّى الباطني، هو سليمان. وسليمان لن يساعدني في هذه المهمّة. لذا أرجأتُ مشروع القبض على الشبح. لا سيّما أن الملك لا يبدو منشغلاً هذه الأيّام بذكرى أخيه الميّت. كان القصر كله في احتفال. ملكة سبأ قادمة. وأورشليم، مزدانة كلها، تستعدّ لاستقبالها. في غرفة سليمان، المجاورة لغرفتي، كان سرير جديد ذو قبّة يُنذر بفيض من الفسق.

ذات صباح، بينما كنتُ منهمكة في العمل، انطلقت عشرات المزامير. هرعتُ إلى النافذة، فإذا قافلة قادمة. ويا لها من قافلة! أكثر من مائتَي جمل باذخة التسريج. أوّلها، حيوان ضخم، كان يحمل خيمة شبيهة بتلك التي قدمتُ فيها، ولكنها أكبر حجمًا وأكثر زخرفة - خيمة ملكة سبأ. كان سليمان وحاشيته هناك، في انتظارها. برك الجمل، وأفرجت ستائر الخيمة، وأطلّت الملكة.

إلهي، يا لها من امرأة جميلة! سوداء مشيقة القوام، ذات وجه رائع القسمات، وعينَيْن واسعَتَيْن، وفم ممتلئ، شهواني - فاتنة. أمامها لا تبدو الزوجات السبعمائة والخليلات الثلاثمائة سوى عيّنات رثّة (دون الحديث عنّي). النظرات الحاسدة التي فاجأتْها تشهد على هذه المفارقة المزعجة. كانت تبحث عن شيء ما، تلك النظرات النافذة، عيب في الوجه، أو في الجسد... ولكنها لم تجد شيئًا، لأننا كنّا أمام الكمال المطلق. كان لون البشرة، بطبيعة الحال، يلفت الانتباه. كان لنا كلّنا لون كامد، ولكنْ، ما من واحدة فينا كانت سوداء. وأين

المشكل؟ كان يمكن للملكة أن تقول: أنا سوداء، إلا أني جميلة، يا بنات أورشليم"(*) وليس بوسع بنات أورشليم إلا أن يخرسنَ.

تقدّم الملك طلق المُحيّا. ألقى كلمة، قال فيها إن زيارة الملكة يوم تاريخيّ، يضاف إلى النّعم التي أغدقها الرّبّ على مُلكه:

"مجدنا يروج في العالم المعروف. وهيكلنا يجلب الزّوّار من كل مكان. وعمّا قريب ..".

صمت درامي.

"عمّا قريب، سوف يُكلَّل كل ذلك بعمل بالغ الأهمّيّة! عمل ليس مادّيًّا، بل ثقافيّ، سوف يَطبع إلى الأبد تاريخ الإنسانية! وأنا سعيد أن يوافق انطلاق هذا العمل زيارة ملكة سبأ، التي قدمت من الأقاصي لتكريمنا!"

خلقت المكاشفة نوعًا من التشويق: "عمّ يتحدّث الملك؟" ما هو هذا العمل الثقافيّ؟ كان الجميع حيارى بدءًا بي. هل يتحدّث الملك عن الكتاب الذي أشتغل عليه؟ هل يريد، بثمرة جهودي (وجهود آخرين)، أن يكرّم غريبة، أيًّا ما تكن أهمّيّتها؟ أم هي مُجرّد عملية دعائية، يريد من ورائها لفت الانتباه إلى انطلاق الكتاب؟ مهما يكن من أمر، فأنا لم أُستشَر، ما أثار غيظي. قرّرتُ أن أسأل الملك في أوّل فرصة، كي أعلم جليّة الأمر.

بعد انتهاء الحفل، دعا سليمانُ الملكةَ إلى الاستراحة في الخدر الذي أُعدّ لها. عبرا معًا أروقة القصر - وكانت هي تُبهر كل مَنْ هبّ

*) بالعبرية في الأصل: Sch'hora ani ve nava, banot Ierushalaim.

لرؤية هيئتها المهيبة وسِحْرها وجمالها. لم أطقْ احتمالًا، فمضيتُ إلى غرفتي، حيث المخطوطات في انتظاري. ماذا أريد، أنا الدميمة؟ لا تكريم ولا ابتسامات لأجلي. لي العمل فقط. عمل سوف يستغلّه سليمان، ليزيد من هيبته العالمية.

في المساء نفسه، أُقيمت مأدبة. مأدبة ستظلّ في سجلات الملُكية. أطباق لا تُحصى عددًا، أعدّها طبّاخون جاؤوا من المناطق البعيدة؛ ألف نوع من أنواع الخمور، ثمار مستوردة من البلدان النائية ... شطط كنتُ أراه من الباب، لأن المدعوّات كنّ الزوجات المائة الأكبر سنًّا فقط. بدعوى أن المكان لا يسع الجميع. هراء. السبب هو غير ذلك: الأكبر سنًّا، بوصفهنّ أكبر سنًّا، هنّ أقلّ غَيْرة.

كانت الملكة مستعدّة لردّ التبجيل. بإشارة منها، دخل القاعة نحو خمسين عبدًا، ينوؤون بالهدايا.

ويا لها من هدايا! إلهي، يا لها من هدايا! عطور ذكية نادرة. أحجار كريمة. وذهب - أربعة آلاف كيلو غرام، كما علمنا لاحقًا، سوف يُمحى بفضلها مشكل الدَّين الخارجي. سيكون لسليمان ما يكفي من المال، ليجري اللمسات الأخيرة على الهيكل، ويجهّز الجيش بصورة أفضل، ويشتري خليلات. كان سعر الذهب في ارتفاع في الأسواق الدولية، وبكمّيّة كهذه في خزائنه، لم يعد سليمان يحتاج إلى التنقيب في مناجم أوفير الغريبة، الواقعة في مكان غير معروف: في إفريقيا، يقول بعضهم، وفي الأراضي المدارية الأمازونية حسب آخرين. كل هذا مقابل بضع نصائح؟ أم أنه كان بصدد عقد حلف جديد مع الملكة، يشمل الشرق الأوسط وإفريقيا، التي تُعدّ من الحدود الجديدة الواعدة؟

أيًّا ما يكن، كانت الضيفة تفوق في هذا المجال أيّ امرأة من نساء الحريم. كلهنّ مجتمعات، ليس باستطاعتهنّ منح التاج، ضرائب ومزايا أخرى، نصفَ ما قدّمتْ. وكذا الجمال: كلهنّ لا يبلغنَ كعب هذه المرأة الفاتنة.

لم تتأخّر العواقب. صار سليمان يتجاهل الزوجات والخليلات. قاطعهنّ حتّى نهاية الزيارة.

أمّا أنا، فقد دعاني ليُعلمني أنه، مثلما قال في كلمته عند استقبال الضيوف، يريد أن يقدّم نسخة من الكتاب الذي أشتغل عليه للملكة. كَتَبَة كثرٌ كانوا مكلّفين بنَسْخ ما كتبتُ، ولكنْ، ينبغي أوّلًا أن أُتمّ وصف حكم داود، لكي أصل إلى حكم سليمان نفسه. وهنا سوف يكون ثمّة وصف لزيارة الملكة، مع الإشارة إلى الأربعة آلاف كيلوغرام من الذهب والبقية. سوف يكون الفصل الأخير، الخاتمة الذهبية (الذهب الاستعاري بطبيعة الحال، أما الذهب الحقّ، فهو في الخزينة الملكية). فلتتقدّمِ الأعمال إذنْ على عجل!

لم أقلْ شيئًا. وما عساي أن أقول؟ كانت لي مسؤولية أداء مهمّة، ولا بدّ أن أُنهيَها. الملذّات، مخصّصة لملكة سبأ. فهي جميلة. ووهبت الملك أربعة آلاف كيلوغرام من الذهب. ليس لي ما أقول. عدتُ إذنْ إلى المخطوط.

كنتُ منهمكة في العمل حين طُرق الباب. كانت جارية. جاءت تحمل رسالة من النساء: كنّ يرغبنَ أن أذهب إلى الحريم، لأتحدّث معهنّ. لم يذكرنَ عن الموضوع شيئًا. ولكنها مسألة عاجلة.

لم أفكّر طويلاً، كي أعرف أن طلبهنّ له علاقة بزيارة الملكة. وأنه على أغلب الظّنّ شيء هامّ مع إمكانية حصول أزمة. ورغم أني كنتُ في سباق ضدّ الساعة - اتّضح أن حكاية داود معقّدة - لم أتردّد في الذهاب.

كما توقّعتُ، وجدتهنّ على أهبة الحرب، وقد ساءهنّ ما أَسمينَه "احتقار سليمان". "منذ أن حلّت السوداء، قالت إحداهنّ، لم يعد لنا نوبة!" وأردفت ثانية: "هذا الملك ليس حكيمًا بالمرّة، تخدعه أوّل غريبة قادمة!" ثمّة حتّى مَن تحدّثت عن السِّحْر، وهو شيء متداول في إفريقيا: "شراب عادي يُسكب خلسة في نبيذ سليمان، و... هوبْ ها إن الأحمق يسيل لعابه عشقًا!".

بعد مناقشات طويلة، قرّرنَ تنظيم حركة احتجاج، رغبنَ أن أتولّى قيادتها، إذ إن لي تأثيرًا ما على الملك (ما يتخيّلْنَه على الأقلّ) وبإمكاني أن أنقل إليه مطالب الحريم.

كنتُ قبلتُ هذه المسؤولية عن طواعية قبل بضعة أشهر، ولكنْ، الآن تغيّر كل شيء، لم أعد المرأة نفسها. لم يعد لديّ أدنى رغبة في الانخراط في هذه الحكايات. إرهاق؟ استسلام؟ لا أدري. وإن كنتُ لا أعدَم تمامًا تحمّسًا لهذا. ولكني لا يمكن أن أتخلّى عنهنّ. فهنّ مهما يكن رفيقات، ويمررنَ بلحظة صعبة، ومن واجبي مساعدتهنّ.

سألتهنّ عمّا يجول بأذهانهنّ. كانت ثورة جنسية بطبيعة الحال. ميثاق تتعهّد وفقه كل واحدة برفض الذهاب إلى فراش سليمان.

"ولكن ذلك ما يريده بالضبط!" قلتُ.

نظرنَ إليّ في استغراب. كيف؟ إضراب نسوة لا يهزّ سليمان؟ أجبتُ

أن لا، ففي مجال الجنس لا ريب أن سليمان مشبَع من الضيفة. ولا مفرّ من أن يقضي هذه الفترة في ممارسة الحُبّ معها. السؤال الحقّ كان غير هذا: هل ينوي تمديد هذه العلاقة؟ هل يفكّر في تحويل هذا الحلف السياسي إلى زواج فعلي؟ إن حدث ذلك، فما هو مصير الزوجات والخليلات؟

أسئلة غير مريحة حيّرت النساء - لا سيّما أني لا أملك جوابًا بدوري.

"تريدين القول إننا لا نستطيع أن نفعل شيئًا؟ "سألتْ إحداهنّ.

– لم أقلْ هذا، رددتُ. قلتُ ينبغي عليكنّ أن تتصرّفنَ بعقولكنّ. أوّل المسائل هي اكتشاف ما يرغب فيه سليمان من هذه المرأة".

أجل، بدا لهنّ ذلك منطقيًّا. إلا أنهنّ لا يعرفنَ كيف يتصرّفنَ. طلبنَ من جديد - كلّا، توسّلنَ - مساعدتي. بوسعي مساعدتهنّ. لسبب وجيه: الملكة كانت تقيم في الخدر الملاصق لغرفتي، وسليمان كان يتردّد عليه كل ليلة. كانت التعلة ربّما تقديم النصائح حول امتلاك موارد خارجية، ولكن النتيجة غير ذلك: السيمفونية المعهودة - آهات، تنهّدات، وحتّى صيحات. كان ثنائيًّا صاخبًا - ولكنْ، ما الداعي إلى أن يتناكحا في صمت، إن كان لا يدينان بشيء لأحد؟ في الأيّام الأولى، كنتُ أجهد كي لا أسمع، فأسّد أذنيّ بالقطن، وأتوصّل إلى التركيز على عملي. كنتُ قد وصلتُ إلى وصف الهيكل، بكل التفاصيل التي يرغب فيها الملك، وهي عديدة. وبطلب من النساء، صرتُ ألصق أذني إلى الحائط، وأصغي بانتباه، وقد طرحتُ العمل جانبًا. كنتُ أريد أن أعرف ما يقوله الملك والملكة.

فاجأني أنهما يتكلّمان كثيرًا. قبل المضاجعة، في أثنائها، وبعدها. لم يكن ذلك الكلام السمج الذي يفوه به العشّاق عادة، إذ تصرخ المرأة "أدخلْه إلى العمق" ويقول الرجل: "كم أنتِ حلوة! نعم، كم أنتِ حلوة!". كلّا. فوجئتُ، وهذا ما أثار غَيْرتي، أن حديثهما بالغ الرفعة - وممزوج بالشِّعْر. "لينكحني بقبلات من فمه"، كانت تقول في لغة عبرية، تعلّمتْها خصّيصًا للرحلة، وتضيف: "عشقكَ ألذّ من الخمر"، "اسمكَ زيت يندفق / لذلك تهواكَ الفتيات".

("ثمّ يمكثنَ في الحريم، يمضغنَ حنقهنّ"، أضفتُ).

وكان سليمان بدوره يعقد مقارنات موحية بالسلطة والغنى: "بفرسي الموثوقة إلى مركبة فرعون/ أشبّهكِ، يا حبيبتي/ وجنتاكِ تظلان على حسنهما، بين النياط(*)/ وجيدكِ في القلائد./ سنقدّ لكِ أشنافًا من الذهب/ وكريّات من الفضّة".

(الذهب الذي زوّدته به. والفضة التي منحته إيّاها. يا له من أحمق!).

كانا يتركان أحيانًا جنون العظمة ذاك، ويمضيان في مقارنات أكثر بيئية، إن صحّ التعبير. كانت مثل "زنبقة وسط الأشواك"، "غزال" (غزال!) قادم "عبر جبال المقسم". ثمّ يمرّان إلى التفاصيل الجسدية "شَعْركِ مثل قطيع عنز". (عنز. همم. هل أوجد الراعي تقليدًا، مع إحالات جنسية معيّنة؟) "أسنانكِ قطيع غنم مجزوز/ خارج من الحمّام".

إلى الجوازات الشِّعْرية كان يضيف أحيانًا الكذب الصّفيق. إذ يقول: "ثمّة ستّون زوجة/ وثمانون خليلة/ وفتيات بلا عَدّ/ فريدة أنتِ، يا حمامتي/ كاملة الأوصاف".

---

*) جمع نَوْط وهو الجوهر المتدليّ من القُرط.

يعني أن الزوجات السبعمائة نزل عددهنّ إلى ستّين، تخفيض بأكثر من تسعين بالمائة. أمّا الخليلات، فخسارتهنّ أقلّ، من ثلاثمائة إلى ثمانين. ما يجعل فقدَ الزوجات اعتبارهنّ أكبر. ألا تدرك تلك الغبية ملكة سبأ كل ذلك؟ الجميع يعلم أنها منبهرة بحكمة الملك المزعومة، فهل ذلك سبب كافٍ، كي تفقد تمامًا قدراتها المنطقية؟ أيٌّ كان يمكن أن يرى أن عدد النساء في الحريم يفوق ما ذكره سليمان في هذا التصريح الهاذي بالممتلكات الزوجية ... كيف لا تتفطنّ؟ ربّما لأن سليمان لا يدع لها فسحة من الوقت، وهو يكيل لها المديح: "حضنكِ مثل كوب مدوّر / لا ينقصه النبيذ!" وهكذا دواليك بين ضحكات مقتضبة وآهات وملامسات وتقليب، تقليب كثير.

ذلك ما سمعتُ أو ما خيّل إليّ أني أسمعه، لأنهما كانا أحيانًا يتحدّثان بخفوت، فأضطرّ حينئذ إلى تكهّن الحوار. كنتُ أدوّن كل شيء، وأسوّد الرّقّ تلو الرّقّ. عزائي الوحيد -بدل النكاح، كتابة-، ولكنها سوف تخدم أهدافي. كنتُ أنوي، حينما يؤون الأوان، تقديم ذلك كدليل اتّهام: "تُنكر أنكَ في الليلة الفاصلة بين الخامس عشر والسادس عشر، وأنتَ في الفراش مع هذه المرأة، شبّهتَ بطنها بكوب مدوّر، في تحريض واضح على الفحش، وكذلك، وهو ليس أقلّ الأخطاء، على الإفراط في استهلاك المشروبات الكحولية؟".

ولكنْ، لم يكن وقت اتّهامات كهذه. كانت ملكة سبأ تشعر أنها سيّدة المكان. هي لم تكن نزيلة القصر فحسب، بل استقدمت كل حاشيتها، بمَنْ فيهم عبيدها. أولئك الأشخاص جميعًا كانوا يقضون اليوم في أروقة القصر، يضحكون ويتكلّمون بأصوات عالية، ويغنّون. أناس من بلدان غريبة بعيدة، وإن كانوا ظرفاء.

كان من بينهم شخص، بدا لي غريب الأطوار، وحتّى نذير شؤم. كان يتخفّى تحت شملة، تغطّي وجهه، فلا يظهر منه غير عينَيْه - ويا لهما من عينَيْن! كان فيهما بريق متوحّش، مهلوس تقريبًا، يقشعرّ له بدني. المشكل أنه كان دائمًا يتطلّع إليّ. صدفة أم لا، الثابت أني لا أكفّ عن مصادفته في أروقة القصر، قريبًا من غرفتي. وإذ سألتُ عنه يمنة ويسرة، علمتُ أنه لم يكن من رعايا الملكة. بل هو يهودي اعترض قادة القافلة في صحراء الجنوب. حذّرهم من المسارب الخطرة المسكونة بقطّاع الطُّرُق، واقترح عليهم أن يرشدهم حتّى أورشليم، فقبلوا اقتراحه برحابة صدر. وكان سيدلّهم أيضًا في طريق العودة. كل ذلك معقول - ولكنْ، لماذا يُثبت نظره فيّ بإلحاح شديد؟ حتّى الشيوخ لاحظوا ذلك. الشبقي الأسبق، ذلك الذي يدين لي بانتصابه المفاجئ، قال لي في سخرية (لا تخلو من غَيْرة): "سترين أن هذا الشخص وقع في هواكِ!"

كان لا بدّ أن أميط اللثام عن هذه الحكاية. ذات مساء، وقت المغيب، صادفتُ المتخفّي، وحيدًا، في الرواق. "الآن!" قلتُ في نفسي. تشجّعتُ، ودنوتُ منه. لم يبتعد. بالعكس، بدا أنه كان ينتظر تلك اللحظة. بقينا برهة نترامق، هو بنظرته الثابتة، المنوّمة، إلى أن نفد صبري.

"ولكنْ، في النهاية، ماذا تريد منّي؟".

لم يجبْ على الفور. وعندما تكلّم، كان بصوت أبحّ، يكاد لا يُسمَع.

"تعرفين مَن أكون".

الراعي الشّابّ. إلهي، كان الراعي الشّابّ. أوّل ردّ فعلي كان غبطة

حقيقية: "أنتَ على قيد الحياة، إذنْ! كم أنا مسرورة! لم أكن أدري ما حالكَ، كنتُ في قلق شديد! لحسن الحظّ، أنكَ نجوتَ بجلدكَ، كم أنا مسرورة!"

ولكنه لم يبدِ أيّ تحمّس، ولا أيّ فرح. ظننتُ أنه سيُقبّلني، على الأقلّ يسلّم عليّ بحرارة. ولكنْ، لا، واصل التحديق فيّ، وهو ثابت لا يريم. أفزعني ذلك بعمق. ماذا يعني ذلك السكوت وتلك النظرة الثابتة؟ واضح أنه تغيّر، تغيّر كثيرًا. الفتى الذي كان يجوب مسارب الجبل، الفتى الذي كان يقود العنز للرعي (ويسافدها)، الفتى الذي صحب أختي إلى الكهف، الفتى الذي تطوّع لحمل رسالة إلى أبي - ليس هذا الذي يقف أمامي. هذا شخص غريب، مختلف، يُولّد في نفسي خشية، لا سيطرة لي عليها. لماذا؟ ما الذي غيّره هكذا؟ صحيح أنه مرّ بأوقات عصيبة: الرَّجْم، الطَّرْد، الشجار مع الجنود، فقدان ذراعه - وهو ما يفسّر الشملة: لم يكن يريد أن يظهر عاهته. ولكنْ، لا شيء من ذلك يمكن أن يفسّر هذا البرود، هذا التباعد. ولا شيء يمكن أن يفسّر خاصّة البريق المهلوس الذي ألمحه في نظرته، تلك النظرة التي ترهبني، وكأني مسؤولة عن آلامه. جمعتُ شجاعتي: "ماذا جرى لكَ؟" سألتُه. تردّدَ، وقلّبَ النظر حوله.

"لا يمكن أن نتحدّث هنا. هل نستطيع الذهاب إلى مكان هادئ؟".

قلتُ نعم، يمكن أن نذهب إلى غرفتي. "لديكَ غرفة في القصر، إذنْ؟ لاحظَ في سخرية، غرفة لكَ وحدَكَ... جميل. هيّا بنا".

ذهبْنا. اعترضَنا أحد الشيوخ، ونظر إلينا نظرة فيها سوء ظنّ. لا يهمّني أن يسيء بي الظّنّ. كان لا بدّ أن أتحدّث مع الراعي الشّابّ، أن أعلم ما يجري. لأني على يقين من أن أمرًا يُدبَّر.

دخلْنا، وأغلقتُ الباب. خلع ثيابه التي تُثقل حركته بصعوبة، مستعملاً قدر جهده جذَعة ذراعه.

كان الواقف أمامي رجلاً وسيمًا، وليس ذلك الصبي الذي عرفته. ولكن تقاسيم الوجه - الذي يحمل ندوب الحجر التي تلقّاها - كانت كئيبة، بل متوحّشة. لم أر قطّ مثل تلك الكآبة. ولكنْ لم يكن من النوع الذي يلوك الضغينة. نظر حوله، ليتأكّد أننا فعلاً وحيدان، وألا أحد يمكن أن يسمعنا. دنا منّي، وقال لي في نبرة مَنْ يبوح بسرّ:

"أنا في مهمّة. ليست قيادة قافلة الملكة. كانت تعلة؛ كي أدخل القصر. مهمّتي هي غير ذلك. إنها انتقام. انتقام مقدّس".

لاحظتُ عندئذ ما يحمل في حزامه. ارتجفتُ: خنجران، خنجر في كل جانب - خنجران معقوفان، خنجرًا قاتل. كان الرجل يتحدّث بجدّ. يبدو أن ثمّة مَنْ سيدفع ثمن الذراع المقطوعة. أدرك ما جال بذهني، وابتسم بمرارة.

"لا شكّ أنك تعتقدين أني جعلتُها مسألة شخصية، وأني سأنتقم من جنود الملك. أنتِ مخطئة. لتعلمي أن ضياع ذراعي كانت نعمة بالنسبة إليّ. كانت تلك رسالة إلهية، اضطرّتني إلى التفكير في حياتي وقَدَري. مَنْ كنتُ قبل ذلك؟ تعرفين جيّدًا: آثم، متهتّك. كان لي علاقات جنسية حتّى مع الماعز، هل تتصوّرين؟ ..".

صمت حرج، ولكنه، الآن وقد بدأ، سوف يمضي إلى النهاية.

"كنتُ سيِّدًا في هذا المجال. آتي من خلف، مدندنًا في خفوت بالأُغنيّة التي أعرف أنها ستُنوّمها، وفي لمح البصر، آخذها. واحدة،

اثنتان، ثلاث، لم يكن ثمّة حدّ لهذا الفسق الدنيء ... مسكينة تلك العنزات، مسكينة تلك المخلوقات، كانت تدفع ثمن إثارتي. وكان الشيء نفسه مع أختكِ: فحش على فحش. ولكنْ، في هذه الحالة، كانت هي التي تطلبه، وليس لأني فرضتُه عليها. آسف أن أقول لكِ هذا، ولكنها كانت هي أيضًا آثمة كبرى مثلي. كنتُ أظنّ أنها تحبّني، كلاّ، كان شيئًا آخر، كان جنسًا رخيصًا، حقيرًا. ودفعتُ الثمن لقاء ذلك.

كنتُ أسمع. مروّعة؟ لا، غير مروّعة. مفتونة؟ لا، غير مفتونة أيضًا. كنتُ أسمع فقط. لم أدرِ ما أقول عن هذا الاعتراف المباغت.

"أبوك أمر برجمي وطردي، أردف قائلاً، ولكن العقاب لم يفد شيئًا. لم يكن ذلك هو الدرس الذي أحتاج إليه. لأنه لم يفعل سوى الانتقام، فهمتِ؟ وليس باسم الخير، كان يتصرّف باسمه الخاصّ، يعاقبني، ليثأر لسمعته. أنا لم أتغيّر في شيء. هجرتُ أرضنا، وقدمتُ إلى أورشليم، وواصلتُ المضي في طريق الإثم. لم أكتفِ بالفتيات البائسات اللاتي ألقطهنّ في الشارع، كلاّ. هنا أيضًا، في القصر، كان لي عشيقة، خليلة عجوز ... رأتْني ذات يوم من الشّبّاك، ووقعتْ في هواي. كانت تهرب من الحريم لكي تلقاني. هل تظنين أني اعترفتُ بجميل تلك المرأة؟ إطلاقًا. كنتُ أستغلّها كيفما أقدر! آخذ منها المجوهرات والمال ...

مسكينة ميكول. مسكينة، مسكينة ميكول.

"كان ذلك حين التقيتُ بكِ. وكانت قد مرّت عشرة أيّام دون أن أرى المرأة، وتلك كارثة. دون مساعدتها أجوع، وأضطرّ إلى التّسوّل. خطرت ببالي فكرة إسناد ظهري إلى جدار القصر والعزف على الناي - كانت

تعرف أني أعزف. ولكنْ، ظهرتِ أنتِ، وليست هي؛ وطلبتِ منّي حمل رسالة إلى أبيكِ. قبلتُ. أتعرفين لماذا؟ لأني تأثّرتُ لرؤيتكِ من جديد. تأثّرتُ؛ لأني .. ".

قطع كلامه، ونظر إليّ لحظة بكيفية غريبة. كان له شيء يريد قوله، شيء هامّ، ولكنه يربكه - ويربكني أيضًا . فجأة عاودني كل ما أحسستُ به ناحيته. وهذه المرّة، فيما يبدو لي، كان شيئًا يشاركني فيه هو أيضًا. ومن ثمّ كانت شدّة تأثّره. غير أنه لم يستسلم لها. تنفّس بعمق:

"لنترك هذا. في يوم ما، إذا شاءت الصدف، سوف نتحدّث فيه. اليوم أريد أن أحكي لكِ ما جرى. كما قلتُ لكِ، في تلك اللحظة، أمسكني الجنود. تعرفين البقية. كانوا يريدون أن أسلّمهم الرسالة، الرسالة التي عهدتِ بها إليّ. رفضتُ، قائلًا إني سأذود عن الرّقّ بحياتي، إن اقتضى الأمر. انقضوا عليّ، فقاومتُ ما استطعتُ، ولكنها كانت معركة غير متكافئة، سيوف ضدّ يَدَيْن عاريَتَيْن. فقدتُ ذراعًا، قطعها رئيسهم. كنتُ سأموت حين أسعفتْني امرأة رحيمة. عدتُ أتسكّع في الطُّرُق معوَّقًا، وأتسوّل، وأجوع. ولكنْ، من عجبٍ أني حتّى في تلك الحال، لم أتعلّم شيئًا. كنتُ ممتلئًا حقدًا، أجل، ولكنه حقد أعمى، بلا غاية. أخيرًا، وبعد أن تهتُ طويلًا، وصلتُ - ولم تكن صدفة، بل الإرادة الإلهية - إلى الجبل، جبلنا. وفي كهف الفواحش القديم، الكهف الذي كان أبوك يمارس فيها الجنس، وأنكح العنزات، ثمّ أختكِ، قابلتُ سيِّد العدل ومريديه ..".

نظر إليّ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

"سيِّد العدل. لم تسمعي بهذا الاسم قطّ، أليس كذلك؟ ولكنكِ سوف تسمعين به. عمّا قريب سوف تسمعين به. سيِّد العدل كان مثل أبيكِ: بطركًا غنيًّا، رجلًا قويًّا، ولكنه فاسق. كان ينكح كالمجنون، ويسيء معاملة أفراد قبيلته. مثلي، عُوقب، من قِبل سليمان. ولمّا كان عاجزًا عن دفع الضرائب سُجن. بقي ثلاث سنوات في السجن، هنا، في أورشليم. وهنا حصل كل شيء: ذات ليلة، تجلّى له في المنام أخو سليمان، طفل ذو عينَيْن واسعَتَيْن حزينَتَيْن. قال له إنه، رغم كونه ميِّتًا، لا يستطيع أن ينام قرير العين، بسبب خطايا أخيه الملك وغطرسته. "أمامكَ مهمّة، قال له، ينبغي أن تخلِّص الأرض من الإثم، والمنكر!" عندئذ جاب سيِّد العدل البلاد لنشر الدعوة، يتبعه بعض مريديه - فئة قليلة، لأن الأصفياء كما تعلمين نادرون. بفضل الرّبّ، التحقتُ بهذه الفئة في أوّل مرّة، سمعتُ فيها كلام السَّيِّد، كلمات حكيم سوف تُغيِّر حياتي.

– ماذا قال لكَ؟" سألتُه.

– قال "-اتّقدت عيناه، وشعّ وجهه- قال إن النهاية قربت. والعلامات باتت حاضرة، أمام أعيننا. يمكنكِ أن تريها أنتِ أيضًا: سليمان، ملكنا، لا يحترم كلام المولى. الحريم ملآن بالغريبات، موآبيات، عمونيات، حثّيّات، فضلًا عن ملكة سبأ هذه التي يقضي معها الآن كل الليالي. سليمان يتبع عشتار، إلهة الوثنيّيْن الكبرى، مومس شعبنا الأولى، الإلهة التي يركع لها نفوذ العالم السفلي كله. سليمان بنى هيكلًا لآلهة العمونيّيْن. ولكي يموّل ذلك الرجس، صار الشعب يئنّ تحت وطأة الضرائب. أهذا هو الملك الحكيم؟ قولي لي، أهذه هي حكمة الملوك؟"

واصل دون أن ينتظر جوابي، وهو يزداد تحمّسًا.

"ولكننا نحن، جنود الخير، نعدّ أنفسنا، تحت إمرة سيِّد العدل! عددنا في الوقت الحاضر قليل، كما قلتُ لكِ. ولكنْ، عمّا قريب سوف تلتحق بنا أعداد غفيرة! وسوف نقود المعركة الحاسمة! عندما تندلع، سوف تسيل الدماء أنهارًا على هذه الأرض، لتحمل معها الإثم والرجس!".

كنتُ مندهشة - ومروّعة. أكيد أن الشّابّ كان مستعدًّا لأن يَقتُلَ ويُقتَلَ. ثمّة شكّ يشغلني: ماذا يفعل في القصر؟ لماذا رافق ملكة سبأ؟ هي مهمّة، قال. أيّ مهمّة؟ طرحتُ السؤال، فلم يجب. أعاد شملته في بسمة شاحبة، رافضًا مساعدتي:

"قلتُ ما عندي. البقية، سوف ترينها، حين تأزف الساعة. وأؤكّد لكِ أن هذه الساعة وشيكة!".

وبهيئة خفيفة متحرّرة -تخالف اضطرابه السابق- جعل يذرع الغرفة. نظر إلى المخطوطات على الرفوف، وأرد أن يعرف حقيقتها. قلتُ له إني أعدّ كتابًا لسليمان.

"كتاب"، قال بإعجاب. أجل، كنتُ أعرف أنكِ ستؤلّفين في يوم ما كتابًا. أنتِ ذكية على الدوام. أذكى من أختكِ - أكثر ذكاء وحشمة. عندما أفكّر في هذا ...

وسكت عن الكلام مرّة أخرى. عاد ينظر إلى المخطوط. وقال بنبرة، جهد في جعلها محايدة، وإن كانت تشي بقلق ظاهر:

"أتصوّر أن هذا الكتاب هامّ جدًّا، بالنسبة إليه".

"نعم. هامّ جدًّا. يقول إنه في أهمّيّة الهيكل. يريد أن يجعل منه نسخة لملكة سبأ".

أعاد المخطوط إلى الرّفّ، وضحك في سخرية:

"لهذا يحبسكِ هنا. لكي تكتبي كتابًا، سوف يُسلَّم إلى ملكة سبأ. وهذا منكر آخر يأتيه. ولكنْ، كل هذا سينتهي، أؤكّد لكِ. وبأسرع ممّا تتخيّلين".

لغز آخر. ماذا يريد أن يقول؟ وقبل أن أسأله، قال إنه ذاهب، لأن غيابه قد يثير الظنون. أمسك يدي -كان ثمّة لطف في حركته هذه المرّة، لطف وحنان- وطلب منّي ألا أذكر شيئًا ممّا دار بيننا لأحد. وبابتسامة فيها نوع من الشؤم، وإن كان فيها رغم كل شيء حياء الراعي الشّابّ، فتح الباب، وتوارى في ظلمة الرواق.

تهالكتُ على السرير. كنتُ في حال من الاضطراب والفزع، جعلتْني حائرة. ولكني كنتُ أدرك أن عليّ أن أكتشف بسرعة ما الذي جاء بالراعي إلى القصر. مهمّة، قال. ولكنْ، أيّ نوع من المهامّ يمكن أن يؤدّي هنا - وحيدًا؟ هل ينوي مثلًا نشر دعوة على غرار الأنبياء التقليديّيْن وهو يصرخ: "النهاية وشيكة! النهاية وشيكة!"؟ كلّا. ليس من أسلوبه أن يُلقي خطبًا. أسلوبه شيء آخر. ليس هذا نوع العملية التي يخطّط لها. ماذا تكون، يا ترى؟

فجأة، لمع بذهني: اغتيال. بالتأكيد. كيف لم يخطر ببالي من قبل؟ اغتيال. مخطّط له بدقّة فيما يبدو. اللقاء مع قافلة الملكة، الذي لم

يكن صدفة على الأرجح، منحه فرصة الدخول إلى القصر تحت قناع دليل. وها هو الآن مسلَّح ومهيّأ للعملية.

ولكنْ، اغتيال مَنْ؟ إحدى النساء اللاتي تحدّث عنهنّ بحنق كبير، موآبية، عمُّونية، حثّيّة؟ ما الذي يستفيد منه من قتل امرأة واحدة، والحال أن منهنّ كثيرًا في الحريم؟ أو مَنْ يدري؟ لعلّه واحد من الحاشية - رئيس العسس مثلاً، ذلك الذي قطع ذراعه؟ ولا هذا. كان يمكن أن يصفّي حسابه معه من قبل. إذ لا يبدو عليه أنه يكنّ الكره بشكل خاصّ للجنود الذين هاجموه، فما هم في الواقع غير منفّذي أمر.

كلّا، هدفه شخص آخر.

سليمان. كان يقصد الملك. عندما أدركتُ ذلك، شملتْني رعدة. سليمان؟ الملك؟ صار لكلام الرجل معنى. في منطقه، صار لهذا معنى. لأن الملك هو الآثم الأكبر. الرجل الذي يستغلّ الحكمة المستمَدَّة من الرّبّ، ليعلي من شأنه هو، ويعيش عيشة ثراء وبذخ ومجون. أن يكون بنى هيكلاً، ليس له قيمة فيما يبدو. الهيكل هو منطقة صفوة الإكليروس التي تربطها بالملك مصالح. كلّا، الهيكل لا يمكن أن يكفّر عن انتهاك القانون الإلهي. سليمان لا بدّ أن يُعاقَب، كذلك قرّر سيِّد العدل المزعوم. والراعي الأسبق هو أداة هذا العقاب.

ولكنْ، ثمّة مسألة تُحيّرني: لماذا روى لي كل شيء؟ لماذا جعلني المؤتمَنة على سرّه؟ ليس ثمّة غير تفسير واحد: كان يعدّني حليفة. فمن منظوره الخاصّ، كنتُ ضحيّة مثله: ضحيّة أبي، وضحيّة سليمان. محبوسة في هذه الغرفة، لأؤلّف كتابًا - كنتُ أمَة الملك التائقة إلى الحُرّيّة.

هل كنتُ أمَة؟ ذلك هو السؤال الذي أطرحه على نفسي الآن؟ سؤال متسام. من الإجابة التي أتوصّل إليها تتحدّد طريقتي في التّحرّك. هل كنتُ أَمَة؟ هل كنتُ خاضعة لإرادة سليمان؟

كلاّ. لم أكن أمَة. ولا أتوق إلى الحُرّيّة. إن كنتُ أعيش حبيسة، فقد اعتدتُ حبسي. ثمّ إن مشروع سليمان جعلتُه مشروعي. هل كانت حياتي بشعة؟ ربمّا. تعرّضتُ لأكثر من إهانة منذ قدومي إلى القصر. وإن شئتُ اتّهام سليمان، فلي مسوّغات.

غير أني لن أفعل. لأن ثمّة نصًّا، تاريخًا كنتُ بصدد كتابته. وهذا النّصّ يواسيني، ويسندني، ويعطي حياتي معنى. بهذا النّصّ أتواصل مع سليمان، وليست رسالة كره تلك التي سأنقلها إليه. لأني أعرف أنه في الحقيقة بشر، إنسان كبقية البشر. لا أحسن ولا أسوأ. ومن ثمّ فهو لا يستحقّ العقاب الذي يُعدّ له. والذي لا يحلّ شيئًا - والذي قد لا يتمّ. لم أعرف بالضبط ما الذي كان يخطّط له الراعي الشّابّ، إلا أني كنتُ أعرف أن ذلك سوف ينتهي بكارثة - بالنسبة إليه على أغلب الظّنّ. تطرّفه هو الذي قاده إلى الاعتقاد بأنه يستطيع أن يدخل القصر، ويقتل سليمان. نسبة حظّه بقتل سليمان ضئيلة. فالحرّاس سوف يقطّعونه إرْبًا إرْبًا قبل أن يحاول ما يحاول. على أيّة حال، ثمّة خطر - بالنسبة إليه، أقل ممّا هو بالنسبة إلى العاهل مباشرة.

لا توجد غير طريقة واحدة لتجنّب المأساة. لا بدّ أن أُخبر سليمان. وتلك مشكلة في الوقت الراهن. لا أحد يعلم أن يوجد هو والملكة. هرعتُ إلى الإيوان، وبي أمل أن أجده هناك يسوّي بعض القضايا. لا، لم يكن هناك. توجّهتُ إلى مختلف الغرف. ليس هناك أيضًا.

بقي مضوع: الخدر المخصّص لملكة سبأ. ركضتُ نحوه. نعم، قال لي الحرّاس الواقفون عند الباب، وهم يمنعونني من المرور، سليمان هنا، ولكنه لا يريد أن يزعجه أحد. شرحتُ في توتّر أنها مسألة عاجلة، مسألة أمن. تعلّلتُ، توسّلتُ - دون جدوى. لا يمكن أن نقطع على الملك ما هو فيه، قالوا، تلك هي الأوامر.

أثارني ذلك كثيرًا. الملك كان ينكح، ويستهين بما عدا ذلك، بما فيه الأخطار التي تهدّده - ولكني لن أستسلم. تذكّرتُ الجدار، الحاجز الذي كنتُ أسمع عبره أحاديثهما. إن كنتُ أسمعهما، فسوف يسمعانني بالتأكيد. ذهبتُ إلى غرفتي، وألصقتُ أذني بالجدار الفاصل. أجل، كانا هناك، لا يصدر عنهما سوى ضحكات مقتضبة وآهات والمضاجعة الشِّعْرية: "لينكحني بقبلات من فمه"، "حضنكِ مثل كوب مدوّر"، تلك الألفاظ التي حفظتُها عن ظهر قلب.

"سليمان! صرختُ عبر الجدار. سليمان! افتح الباب، لديّ ما أقول لكَ! إنه أمر عاجل!"

لا جواب.

"سليمان! عرشكَ مهدّد!"

عرش مهدّد؟ يبدو أنه لن يتخلّى عن الجماع من أجل ذلك. ليذهب العرش إلى الجحيم، فالنكاح أفضل.

"سليمان! حياتكَ في خطر!"

لا شيء. نفد صبري.

"سليمان! اللعنة، سليمان، ألا تكفّ عن النكاح لأمر عاجل؟ أين حكمتكَ إذنْ، يا جبان؟".

كان الصمت في الجانب الآخر مطلقًا. ولكني كنتُ أتخيّل سليمان يهمس في أذن الملكة: "لا تبالي، إنها الدميمة ... هذا المرأة لا تعرف ماذا تصنع كي تُزعجني، كل ذلك لأني لم أشأ مضاجعتها، وها هي الآن تسمّم حياتي". مغتاظة، أمسكتُ شمعدانًا من البرونز، ورحتُ أدقّ. كانت الضربات تتردّد في كامل الغرفة. لا شيء. جعلتُ أنشج وأجهش بالبكاء. كان هذا السليمان من الغباء ما سوف يدفع حياته ثمنًا لرغبته الجامحة في النكاح. ولا أستطيع أن أفعل أيّ شيء.

جلستُ منهارة إلى الطاولة، وبقيتُ هناك جامدة، لا أعرف ما أصنع، ولا ما أفكّر. وأمامي المخطوطات والرقوق. وبحركة آلية، مسكتُ القلم، وبدأتُ أكتب. ذلك كل ما تبقّى لي: أن أكتب، وأروي ما جرى، وأقدّم شهادتي عن تلك اللحظات الحرجة. رسالة إلى سليمان نفسه - إن نجا من الموت. ولكنها أيضًا رسالة بلا متلقٍّ محدّد، قارورة ملقاة في بحر الزمن، تحتوي على رسالة، تقول حتّى أكثر الرجال حكمة يغدو أحمق حين يلعب الجنس بعقله. نَقْلُ تلك الرسالة كان بالنسبة إليّ مهمّة، شبيهة بتلك التي قال الراعي إنه مكلّف بها. أو بتلك التي ظنّ الملك تأديتها ببناء الهيكل. هكذا بدأت: "الملك سليمان أحبّ نساء أجنبيات كثيرات".

وتوقّفتُ. أتلك هي الرسالة؟ هذا يندرج ضمن ثرثرة النسوة أكثر من التصريح. ولم أضف شيئًا، لعلّ الجدار يقدّم شهادة أفضل عن كل تلك المضاجعات. ماذا أريد؟ أشتكي إلى المدير؟ ومَنْ يكون المدير؟ كلّا،

ينبغي أن أغيّر وجهتي. أن أترك الماضي خلفي، وأنقذف نحو المستقبل. أريد أن أتنبّأ. وهو أمر صعب، أقرّ بذلك. ماذا كان الأنبياء يفعلون عدا أنهم يتلمّسون في الحاضر بذور ما سوف يقع؟ مثل متابعة ورقات متتالية في لعبة رَقْمية، تأتي فيها "الأربعة" حتميًّا بعد "الثلاثة". كمثل نصّ حين نبدؤه، قد ينكتب وحده مدفوعًا بمنطقه الخاصّ. عندما أعلن النبيّ العقاب الإلهي ضدّ داود، لم يتكهّن بشيء، ولم يُحدث ذلك أيّ مشكلة. صحيح أن طفلًا سوف يُولَد من علاقة الملك ببثشبع. صحيح أن هذا الطفل سيكون شهادة على عشق أثيم. وأنه سوف يكون قربانًا بسبب ذلك، مثل حيوان على مذبح الهيكل.

كالأنبياء، كنتُ أرى، في صفاء ظُهريّ، ما سوف يحدث، ليس في الأشهر أو الأعوام القادمة، بل في القرون. سردية يمكن أن تكون مصدرًا لعدّة كُتُب (أفكّر حتّى في عنوان لهذه الكُتُب، اسم يونانيّ(*)، لأن اليونانية ستكون لغة هامّة: توراة). كانت يدي، وقد نشّطتْها قوّة غريبة، لا تني تكتب بحمية. فيما يخصّ الملك، ماذا يمكن أن يحصل لغبي فاجر، يمكث في الفراش مع أجنبية، كي ينكح ويقرأ "نشيد الأنشاد"(**) في وقت، يتآمرون فيه على قتله؟ إذا نجا من الخناجر، فسوف يواصل بناء مزيد من المعابد، فيظهر مزيد من التعبدّ مثل أبواغ(***) في الحمأ، حيث يعاشر نساء، يجعله ضعفه وغروره عبدًا لهنّ. سيكون العقاب محتومًا، لا مفرّ منه. عقاب، سأسمّيه إلهيًّا، كي أبقى في نبرة النّص

---

*) ta biblia: ومعناها الكُتُب.

**) انظر الهامش 2.

***) جمع بَوغ، خلية، أو عضو متعدّد الخلايا، للتكاثر النباتي، وتمثّل مرحلة من دورة حياة عدّة بكتيريات.

العامّة: "يَهْوَه"، كتبتُ، غضب على سليمان، لأن قلبه مال عن يَهْوَه، إله إسرائيل، الذي تراءى له مرّتَيْن، وأوصاه ألا يتّبع آلهة أخرى [...]. وقال: "من أجل أن ذلك عندكَ، ولم تحفظْ عهدي وفرائضي التي أوصيتُكَ بها، فإني أمزّق المملكة عنكَ تمزيقًا، وأعطيها لعبدكَ. إلا إني لا أفعل ذلك في أيّاملكَ، من أجل داود أبيكَ، بل من يد ابنكَ أمزّقها". ثمّ رويتُ بعدها كيف أن ثورة، قام بها يربعام، ابن سليمان، قسمت المملكة شطرَيْن. وصفتُ تينك المملكَتَيْن وقد مزّقتْهما النزاعات. تحدّثتُ عن يأس النبيّيْن، الذين حاولوا، مثلي، تحذير الحكّام من مخاطر الزندقة. استبقتُ احتلال القوى الأجنبية العظمى للمنطقة - آخر تلك القوى تملك إمبراطورية شاسعة - وعذاب الشعب الذي يضطهده المفوّضون الأجانب، الذي يناقض عيشة حلفائهم الرخيّة، كَهَنَة الهيكل والمتسلّطين المحلّيّيْن. والإجابة على هذا الوضع لا تكون إلا الثورة - كثورة الراعي الشّابّ -، وكذلك مولد ديانة جديدة. في هذه الديانة، سيُعوّض اليَهْوَه الملغز، المتسلّط، بالرّبّ - الأب، كُلّيّ القدرة طبعًا، ولكنْ، رحيم في الوقت ذاته. وسيكون له ابن، يتمثّل الناس فيه شدّتهم. هذا الابن، في هيئة بشرية، سوف يوصي بالحُبّ والعدل، ويحقّق المعجزات، ويشفي المرضى - تذكّرتُ يأس ميكول التي تعذّبتْ دون أن تعرف إلى مَنْ تلجأ. بطبيعة الحال، سوف يضحّي به ممثّلو الإمبراطورية وشركاؤه المحلّيّون، ولكنه سوف يُبعث من بين الأموات، ويصعد إلى السماء. طبعًا سيكون لهذا الابن أمّ، وجه أنثوي يختلف عن حواء، وحتّى عن المطربركات(*) (أو والدتي الساذجة)، أمّ تكون رمز الطيبة، وجه أنثوي، يستطيع المؤمنون من خلاله أن يناشدوا الأب والابن. وسوف يكمّل الثالوث روح قُدُس،

---

*) أموميات: نظام الأمومة عند بعض الشعوب التي يُنسب فيها الأبناء لأمّهاتهم، وتكون فيها الولاية لهنّ عليهم.

يرمز إليه بطائر - ليس غرابًا من تلك التي يحبّ سليمان الحديث معها، وإنما حمامة طاهرة بريئة، تختلف عن حمام القصر، بما فيها حملة الأرواح المعذّبة. بدل معبد مركزي، بتضحياته المكلفة، ستظهر آلاف المعابد، كبيرة وصغيرة، غنية وفقيرة، حيث يستطيع الناس أجمعين ارتيادها بلا مشاكل، ودون تقديم قرابين. سوف يستمع الكَهَنَة إلى الناس، ويمحون خطاياهم، ويخلّصونهم من خطأ ألفيّ. سينتهي تعاظم الشعب المختار، وستحاول الديانة الجديدة إيجاد مشايعين من كل الشعوب، ووضع حدّ لهذه العادة القائمة على التّميّز عن الآخرين بالختان. أمام ضخامة الديانة الجديدة، سوف ينكسف ببساطة مجد سليمان.

كان النهار قد بدأ يطلع حين انتهيتُ. نظرتُ إلى الرقوق - أكثر من عشرة. ماذا أفعل بها؟ أريها للشيوخ؟ أبدًا. أتخيّل بسهولة ردود أفعالهم: سوف يحملون المادّة إلى سليمان، وهم يندّدون بالرجس، مطالبين بأن ألقى أقسى العقاب. لا سيّما أن المهمّة انتهت، وما عادوا في حاجة إليّ.

كلّا- لا يمكن أن أُريَ هذا لأحد. بالعكس، ينبغي حفظ المخطوطات في مكان آمن، داخل آنية ما، جرّة محكمة الغلق مثلًا، ووضعها في جوف كهف معيّن، يوجد في جبل معيّن. سوف ترقد المخطوطات هناك مدّة طويلة، طوال قرون ربّما، إلى أن يأتي في أحد الأيّام شخص ما - راع شابّ، من يدري، يبحث عن عنزته العزيزة الهاربة - فيكتشف الرسالة القادمة من الماضي. وسوف يقولون عندئذ بإعجاب: "كانت عالمة، تلك المرأة!" وسوف يبحثون عبثًا عن عظامي، ليعرضوها على الفضوليّينْ. ما يتبقّى منّي سيكون في النّصّ، في الثفل المالح لدموعي المسكوبة عليه. ولكنْ، كيف الوصول إلى الكهف؟ في ذلك كنتُ أفكّر حين طُرق الباب. كانت رئيسة الحريم. جاءت تحمل أمرًا:

"كلنا مدعوّون إلى قاعة القصر الكبرى. لأمر عاجل".

انتابني دوار. أمر عاجل؟ هل حدث شيء ما؟ هل ما توقّعتُه حصل؟ أمسكتُها من ثيابها في هستيريا: "ماذا جرى، أخبريني! ماذا جرى للملك؟" فنظرت إليّ باستغراب وغضب.

"ما هذا، يا امرأة؟ صاحت في وجهي وهي تتملّص بعنف. هل جننتِ؟ فقدتِ الآن عقلكِ تمامًا؟ الملك بخير. لمَ لا يكون بخير؟ هو الذي يدعونا. ينبغي أن يحضر الجميع، الزوجات، الخليلات، الحاشية، كلهم. هيّا، أسرعي، لقد تأخّرتِ!".

سليمان بخير. إلهي، سليمان بخير. شكرًا لكَ، يا إلهي، يا إلهي الحبيب، شكرًا لإنقاذكَ حياته. شكرًا لكَ. يا إلهي.

وإذ هدأتُ، سألتُ عن سبب هذه الدعوة. هزّت رأسها وهي تبتسم في سخرية.

"أتعيشين في القمر؟ ألستِ على علم؟ ملكة سبأ سترحل، وسنكرّمها جميعًا. أربعة آلاف كيلوغرام من الذهب، ليست مزحة، يا صغيرتي. عمّا قريب، سيسود حياتنا جميعًا رغد العيش!".

ثمّ نظرتْ إلى في استغراب:

"أنتِ التي ليست على ما يرام ... هيئتكِ توحي بأنكِ في حال لا تسرّ... ما الأمر؟".

تخلّصتُ من السؤال بتفسير مبتذل: قضيتُ ليلة سيِّئة، كنتُ مريضة.

"حيض مؤلم، تعرفين ...

– أعرف. ولكنه ليس سببًا كي تتنصّلي، الملك لن يغفر لكِ ذلك. سَوِّي هيئتكِ، وتعالي. ولكنْ، لا تتأخّري. لن يكون التوديع طويلًا، وهو يوشك أن يبدأ".

التوديع. نعم، كان عليّ أن أبتهج، فالفاتنة راحلة. انتهت الضحكات المقتضبة والآهات، انتهت الخلاعة الشِّعْرية: "فمكَ الذي يغمرني قبلات" - انتهى؛ "حضنكِ مثل كوب مدوّر" - انتهى.

عندئذ - وأنا أتهاوى من شدّة النوم، وفكري خامل - أدركتُ أمرًا، جمّدني من شدّة الرعب. إنه أوان الوداع - وهو أيضًا أوان تنفيذ الراعي الشّابّ لخطّته، الأوان الذي سيمزّق فيه الخنجر لحم الملك. لا بدّ أن أُحذّر سليمان على عجل. ما الحيلة؟ لم يكن لي أدنى فكرة. الشيء الثابت الوحيد: ينبغي أن أحافظ على هدوئي. يجب أن أحافظ على برودة دمي. لن يجدي نفعًا أن أخرج صارخة: "احذروا! احذروا! جريمة سوف تُرتَكَب!" مع سمعتي كامرأة مغالية، لا يستبعد أن يتمّ تكبيلي وسجني في غرفتي، لكي لا أُفسد الحفل. كلّا، لا بدّ أن أتصرّف بكيفية مغايرة. لم أكن أدري بعد ما هي، سأُقرّر في الوقت المناسب.

هيّأتُ نفسي بسرعة، وتبعتُ المرأة. كانت أروقة القصر مكتظّة بالناس، كانوا كلهم يستعجلون الوصول إلى القاعة الكبرى. لم تكن الزوجات والخليلات يخفينَ فرحتهنّ: "ليس عاجلًا!" كنّ يقلنَ بخصوص رحيل ملكة سبأ. وكان جلّاس الملك، الذين استُبعدوا هم أيضًا طوال هذه المدّة، يشاطرونهنّ ارتياحهنّ.

ولشدّة يأسي، كانت القاعة مليئة حين دخلتُها. لا أستطيع أن أقترب من المقعدَيْن المخصّصَيْن لسليمان وملكة سبأ. حاولتُ المرور متعلِّلة بأن قصر قامتي يمنعني من الرؤية، ولكنْ، ما من أحد أفسح لي الطريق: "مَنْ تحسبين نفسكِ؟ ألأنكِ تكتبين كتابًا، تظنّين أن لكِ حقوقًا خاصّة؟" قنعتُ بالبقاء هناك، قرب الباب، وأنا أحاول أن أرى ما يجري.

فجأة، أبصرتُ الراعي الشّاب. عاينتُ بنوع من الارتياح أنه، مثلي، كان قريبًا من الباب، من الناحية المقابلة. يلزمه اختراق حشدٍ كثيف، كي يصل إلى الملك. ولكنه كان مستعدًّا أن يفعل دون ريب. أدركتُ ذلك من يده، التي كانت تَصرّ مقبض الخنجر تحت شملته.

حاولتُ في يأس أن أقابل نظره. "لا تفعلْ شيئًا!" كانت الرسالة الصامتة التي أريد نقلها إليه. "لن تبلغ ضالّتكَ، أعرف أنكَ لن تبلغَها، فقد كتبتُ بعد أن سليمان سينجو، وليس عبثًا ما فعلتُ، إن هو إلا هاجس داخلي انتابَني. انفتح ستار المستقبل أمام عينَيّ، لا تفعلْ شيئًا! سليمان سيدفع ثمن أخطائه! الرّبّ بصدد معالجة الأمر، ومن العبث التضحية بحياته في هذه المهمّة المجنونة!".

وقف إلى جانبي رجل مسلَّح، سيفه في حزامه. عرفتُه في الحال، إنه رئيس العسس، القائد الذي قطع ذراع الراعي الشّاب. ذلك بالضبط ما تمنّيتُ، العون الذي أرسله الرّبّ إليّ. بلا تردّد، سحبتُه جانبًا:

"أمر عاجل، همستُ في أذنه. أعرف عن قناعة أن ثمّة محاولة لاغتيال الملك. الآن!".

نظر إليّ غير مُصدِّق. اغتيال؟ ضدّ الملك؟ محاولة لاغتيال الملك، في قصر يعجّ بالناس - والجنود، والعسس؟ مستحيل.

"بالحقّ! ألححتُ. الدليل الذي قاد القافلة! يريد أن يقتل سليمان! ليس دليلًا. إنه الرجل الذي قطعتَ ذراعه، وهو الآن ضمن عصابة متطرّفين. جاء لأجل هذا، لقتل الملك!".

لم يصدّقني: دليل القافلة شابّ هادئ، ليس له سمات قطّاع الطُّرُق. وأنا أبكي، طلبتُ منه أن يفتّش الشّابّ على الأقلّ: سوف يعثر على خنجرَيْن في حزامه.

"حسنًا، قال متأفّفًا، كي ينهي الحديث. سأفعل، لا لسبب سوى أنكِ تلحّين. أين هو؟

– هناك"، أجبتُ، وأنا أشير إلى الناحية الأخرى من القاعة. ولكني فوجئتُ، لشدّة رعبي، أن الراعي المقنَّع لم يعد هناك.

فجأة اقتنع الضابط أن كلامي صحيح. إن لم يعد الفتى هناك، فمن الممكن جدًّا أنه يحاول قتل الملك قبل دخوله إلى القاعة. نادى جنديَّيْن، وخرج جريًا. تنفّستُ ملء رئتَيّ: في تلك اللحظة بالذات، دخل سليمان رفقة ملكة سبأ على صوت المزامير؛ هو فاخر في معطف ملكي، وهي أكثر إشراقًا من أيّ وقت مضى. هلّل الجميع في أدب. جلسا على مقعدَيْهما وهما يبتسمان وحولهما حرّاس. رغم جهله بما يجري، صار الملك الآن في مأمن. لن يستطيع الراعي الشّابّ إصابته هنا.

تنفّستُ. كان ابنَ عاهرة شهيرًا، هذا السليمان، ولكنْ، ما حيلتي إن كنتُ أحبّه بهذا القدر، إن كنتُ سعيدة برؤيته سليمًا معافى؟ فليخنّي، ولْيمنَح ملكة سبأ المكان الذي طالما حلمتُ به. كان حيًّا يُرزَق، وذلك هو الأهمّ. إلى ذلك، دعوتُ أن يكون الراعي الشّابّ قد أيقن فشله، فاختفى في صمت. بعد زوال الخطر، ليس من الضروري أن يُقبَض عليه. لو يحصل ذلك، فسوف يُعدَم بتهمة الخيانة. وهذا ما لا أريده ... كلّا، لا أريده. أريد أن يعيش، ذلك الراعي الشّابّ المسكين، الراعي الذي، مثلي، لم يجد مكانه في هذا العالم. ولكنْ، أين هو؟ هل عاد إلى القاعة؟ وقفتُ على رؤوس أصابع قدمي محاولة، عبثًا، أن أراه.

في تلك اللحظة، ارتفعتْ صرخات في الرواق: "النار! النار!" وما لبثت رائحة حريق قوية أن غمرت القاعة. خرجنا كلنا في ذعر، والنساء يصرخنَ كالمجنونات.

كان الدخان يخيّم على الرواق. خطوتُ بضع خطوات مترنّحة - وفجأة أمسكتْني رئيسة الحريم:

"في غرفتكِ! صاحتْ. الحريق هناك!"

هرعنا معًا. فعلًا، كان كل شيء ملتهبًا. كل شيء: الأثاث، الملابس. ومخطوطاتي. كل الحكاية التي كتبتُها وكل توقّعاتي. يَهْوَه. آدم وحواء. هابيل وقابيل. إبراهيم، إسحاق ويعقوب. موسى. شاول وداود. سليمان والهيكل. ملكة سبأ. الأب والابن والروح القُدُس. الأمّ. معجزات ولعنات، ثواب وعقاب، ضحك ودموع، وصايا، أحلام، رؤى، نبوءات. كل ذلك

غدا رمادًا. لم يسلم أيّ شيء، حتّى نسخة الملكة التي راجعتُها، والتي كانت ستُسلّم إليها لحظة الرحيل. انحنيتُ، والتقطت جزءا من الرّقّ المحترق، كتبُ عليه "عندئذ طلبوا". مَنْ هم الذين طلبوا؟ ماذا طلبوا؟ ممّنْ طلبوا؟ ماذا كان الرّدّ؟ لم أعد أعرف المراد. ولن أعرفه أبدًا. ليكتب النّصّ شخص آخر أو امرأة أخرى، فقد انتهت مهمّتي.

أبصرتُ الراعي الشّابّ وسط الدخان، وقد سيطر عليه جنديّان. أحدهما يمسكه من ذراعه، والآخر من جَدعته. كان قد فقد شملته، وصار نصف عار، ينزف من عدّة جروح. ولكنه كان يقف قائمًا، وعلامة الظفر على وجهه. ظفر يائس، ولكنه ظفر على أيّة حال. وإلى جانبهم الضابط الذي أعلمتُه بمحاولة اغتيال محتملة.

"إنه هو! صرخ. أضرمَ النار في الرقوق! كان يريد خَلْق فوضى، كي يقترب من الملك!".

كلّا. لم يكن ذلك هو المقصود. لم يكن الراعي الشّابّ يستهدف الملك، أدركتُ ذلك الآن. ربّما كانت غايته الأولى قتله، حسب المهمّة التي كلّفه بها سيّد العدل - ولكنْ، إلى حدود البارحة. لقد غيّر رأيه بعد أن جاء إلى غرفتي. لم يعد الملك هو المقصود، بل المخطوط الملكي. وبالأحرى أنا. فهمت ذلك عندما التقت عيناي بعينَيْه، وهو يمرّ بقربي يقوده الجنديان. "فعلت هذا وأنا أفكّر فيكِ، قالت لي تلك النظرة الكابية الحزينة، لأحرّركِ". يا للراعي الصغير المسكين! يا للراعي الصغير الحبيب!

"الملك قد أقبل!" قال أحدهم، وكان سليمان فعلاً يتقدّم، مصحوبًا بملكة سبأ. من الباب، نظر إلى ما بقي من الغرفة، وقد أُطفئت النار. رأى المخطوطات - الأثر الذي سيخلّد ذِكْره - محترقة، ولكنه لم يقلْ شيئًا، ولم يبدُ أيّ علامة تأثّر. لأنه الملك، والملك مطالب بالتّحكّم في انفعالاته أمام رعاياه، لا سيّما أنه يزعم الحكمة والعظمة.

نظر إليّ الملك. وهنا، أي نعم، كان الحزن في عينَيْه ... لأجل المكاتيب المُتلَفة، ولكنْ، أيضًا، أنا واثقة، لأجلي. "كنتِ في هذا النّصّ - كان يقول لي -، جهدكِ، شغفكِ. أنا متألّم لأجلكِ، مثلما أنا متألّم لأجلي وأجل الأثر".

في الحقيقة، سليمان رجل طيّب. ولكنه كان الملك أيضًا، وفي تلك اللحظة، كان لا بدّ أن يؤدّي وظيفته الملكية. "ماذا سنفعل بهذا الشخص؟" سأل رئيس العسس مشيرًا إلى الراعي الشّابّ الموثَق. فكّر سليمان لحظة:

"سنُحاكمه. الآن".

والتفت إلى ملكة سبأ:

"كنتِ تريدين أن تشهدي محاكمة؟ سيكون لكِ ذلك". وابتسم: "بدل الكتاب الذي وعدتُكِ به".

وأعلن بصوت ممتلئ واضح:

"لنذهب إلى قاعة العرش! كلّنا!".

ذهبْنا، يتقدّم الموكبَ رئيسُ العسس والحارسان اللذان يقودان الراعي الشّابّ. يليهم سليمان وملكة سبأ. ثمّ الزوجات والخليلات والحاشية، وتقاسمْنا الفضاء. صعد الملك درجات العرش ببطء. لم يجلس، ظلّ واقفًا، ينظر إلى الراعي الشّابّ من عليائه:

"أنتَ متّهم، قال بصوت هادئ رصين، بإضرام النار في إحدى غرف القصر في نطاق مؤامرة ضدّ الملك. هذه جريمة خطيرة. تسبّبت في إتلاف وثيقة ذات قيمة كبرى، تطلّبتْ عملاً طويلاً وجهودًا جهيدة".

صمت. كان السكون شاملاً.

"هل هذه التهمة ثابتة؟" سأل الملك.

لم يجب السجين. اكتفى بتركيز النظر عليه.

"سكوتُكَ، أردف الملك، علامة على اعترافكَ بذنبكَ".

صمت من جديد. كان الجميع متوتّرين في انتظار الحكم. مفاجأة:

"لن أحكم عليكَ"، قال العاهل. سرتْ في الجمع همهمة، أسكتها برفع يده. وواصل: "أنتَ لم تضرّني بشيء. لستَ سوى ضحيّة نفسكَ، وأحقادكَ".

صمت مرّة أخرى (كانت لحظات الصمت ضرورية لإضفاء الثقل على تصريح بحكم، أو جعله دراميًّا)، وأضاف:

"أنا، بإمكاني أن أُطلق سراحكَ. ولكني لا أستطيع. أنتَ أتلفتَ عمل شخص، وهذا الشخص من حقّه أن يطالب بعقابكَ".

وأشار إليّ بإصبعه:

-"أنتِ! أنتِ ستقاضينه".

أنا؟ أنا أُقاضي الراعي الشّابّ؟ أنا الدميمة، المنبوذة؟ أنا؟ كلّا. لا يمكن أن آتي ذلك. كان شرفًا، وكان الجميع ينظرون إليّ بإعجاب وغَيْرة - ولكنْ، لا، مَنْ أكون حتّى أُقاضي؟ مولاي لستُ أهلًا(*). إلا أنه ألحّ، وكان أمرًا هذه المرّة:

"أنتِ، نعم. تعالي، خذي مكاني!".

نزل، وأقبل نحوي، وصعد بي الدرجات:

"هيّا، اصعدي!".

لم يكن ثمّة مجال آخر. صعدتُ الدرجات ببطء، وأنا أنظر إلى الأسود. رغم هيئتها الضارية وأنيابها المكشوفة، كانت ثابتة. لم أخشَ فقط أن تحرّك رؤوسها علامة على استنكارها -"آه، لا يمكن، امرأة تتّجه نحو العرش! ودميمة فوق ذلك!"-، وإنما أيضًا أن تثب من قواعدها، وتقطع عليّ الطريق: "لن تمرّي! لن تمرّي!" غير أنها ظلّت جامدة. كانت كذلك كأن شخصًا - ليس الملك، بل مدير الآلات - لم يحرّكها. هل سمع أمر سليمان؟ أم أخذ القرار من تلقاء نفسه؟ حسب الأسطورة، تتأتّى حكمة سليمان من بعض الكُتُب الموضوعة تحت عرشه، وهي مستوحاة من الرقوق، وتدخل عقل الملك كالدّفق. ولكنْ، ألا تكون بالأحرى مُرسَلَة

*) باللاتينية في النّصّ الأصلي Domine, non sum digna.

من مدير أسوده - عن طريق آلية تخاطرية[*]؟ ألا يكون سليمان سوى مأمورٍ عاملٍ بسيط، لا يرى ضوء النهار أبدًا؟ سؤال لن أحصل له على جواب. ليس الآن، لأني بلغتُ العرش.

بعد تردّد وجيز، جلستُ. كان المقعد باردًا، برودة معادية. كان عاليًا هذا العرش، أعلى ممّا تصوّرتُ. أحسستُ نفسي وحيدة في هذا العلوّ. ليس العزلة نفسها التي كنتُ أشعر بها وأنا أتسلّق الجبل لتأمّل الصحراء من شاهق، كلّا. عزلة ونفوذ، لم أكن مهيّأة لهما. كل أولئك الناس -بالمئات- كانوا ينظرون إليّ، وينتظرون كلماتي، وذلك ما أرعبني حقًّا. ولكنْ، لا يمكن أن أترك نفسي نهبًا للذعر. تنفّستُ بعمق، وتهيّأتُ للحكم. "أيّها الناس! أين ذلك الطفل الذي ينبغي أن يُقطع نصفَينْ؟ هيّا!".

"اقتربْ!" قلتُ للراعي الشّابّ. فدنا من العرش. نظر إليّ برعب، ولّد لديّ رغبة في الضحك: "ما هذا، يا صديقي؟ تُضرم النار في المخطوطات، وبعدها تبول في سراويلكَ، أي أمر هذا؟".

"هل صحيح، سألتُ، أنكَ أضرمتَ النار في المخطوطة التي ذكرها ملكنا سليمان؟".

سؤال لا جدوى من ورائه، ولكنْ، لم يخطر ببالي شيء آخر. على الأقلّ سوف يُكسبني بعض الوقت).

"نعم، قال في غمغمة، صحيح. أضرمتُ فيها النار. أضرمتُ النار في تلك المخطوطة.

*) التخاطر هو تناقل الخواطر من عقل إلى عقل عن بُعد بغير الوسائل الحسّيّة.

– همم. أضرمتَ النار في المخطوطة ... طيّب، أنتَ أضرمتَ النار في المخطوطة ..".

مثل الملك - تعلّمتُ الدرس -، أدّيتُ لحظة صمت درامي. وصرّحتُ بحكمي، حكم فاجأني أنا نفسي، لأني سمعتُ نفسي أتكلّم، وكأن صوتًا آخر ينطق بلساني - مَنْ؟ ليست زوجة سليمان، هذا مؤكّد. لعلّها الطفلة التي كانت تعدو عبر مسارب الجبل، تلك الطفلة، رغم كونها تعسة، لم تكن تخشى شيئًا؟

"ليُطلَق سراح هذا الرجل! وليكن دليل ملكة سبأ في طريق عودتها!".

أثارت كلماتي عاصفة حقيقة: اختلط صياح الهزؤ والسخرية بالهتاف. فوجئتُ - مفاجأة سعيدة - أن النساء اهتجنَ من شدّة الفرحة. أمّا جلّاس الملك، فكانوا مغتاظين: "هذا الحكم لا أساس له، إنه عار! تسريح قاطع طريق كهذا!" هذا لا يعنيني، فقد أدّيتُ مهمّتي في تحرير الراعي الشّابّ الذي كان ينظر إليّ نظرة اعتراف بالجميل والدمع في عينَيْه. نزلتُ الدرجات، والأسود تهزّ رؤوسها هذه المرّة، في تأييد واضح. التحقتُ بسليمان، فاكتفى بغمزة ملكية. سألني رئيس العسس، مذهولًا، ماذا سيفعل بالسجين.

"ألم تسمع الحكم؟" قال الملك. هذا الرجل حُرّ. دعه يذهب".

فكّ الحرّاس الأغلال التي تعطّل رجلي الراعي الشّابّ وذراعه السليمة. لامس أحدهم كتفي. التفتُّ، فإذا ملكة سبأ تريد أن تهنّئني على الحكم. اعترفتُ أنها لم تفهم كل شيء، ولكنها سوف تعود إلى مملكتها معجبة حدّ الانذهال.

بعد التصريح بالحكم، اتّجهنا نحو مدخل القصر، حيث القافلة في انتظارها، على أهبة الرحيل. افترق سليمان وملكة سبأ في كثير من البهرج، كما يجمل بالحكّام. لا ضحكات مقتضبة، ولا آهات، ولا خلاعة شِعْرية - "لينكحني بقبلات من فمه"، لم يعد ثمّة داعٍ. حيّاها سليمان بانحناءة بسيطة فحسب. اتّجهتْ رشيقة كالعادة نحو جمل بارك في البهو، كان يجترّ في انتظارها. دخلت الخيمة، فانغلقت الستائر. أمّا الراعي الشّابّ، فقد أخذ مكانه كدليل. مرّ قربي، ونظر إليّ: ودّ أن يقول شيئًا، ولم يستطع. إلا أن نظرته كانت تنطق بدلًا منه. سارت القافلة، تُحيّيها الجموع المحتشدة أمام القصر، وسرعان ما توارت خلف هضبة.

لم يعد ما أصنع في الغرفة المدمّرة، فعدتُ إلى الحريم. وكما توقّعتُ، كان سريري مشغولًا. في الأيّام الأخيرة، ورغم البلبلة التي شملت القصر، كان سليمان قد اتّخذ له زوجَتَيْن جديدَتَيْن، واشترى ثلاث خليلات من ملك بسيط، يكاد يُفلس. لحسن الحظّ، كان هناك سرير آخر، لأدومية ماتت مؤخّرًا. كان أقلّ جودة، بسبب انحدار قيمة الأدوميّيْن، ولكنْ، لم أملك الشجاعة للنقاش. عند هبوط الليل، نمتُ، مُجهَدة.

أيقظتْني رئيسة الحريم من نوم ثقيل، نوم خال من الأحلام.

"سليمان يدعوكِ" همستْ لي وعيناها تبرقان في العتمة.

لم أفهم في البداية. سليمان يدعوني؟ لِمَ؟ إلا أن المرأة ألّحتْ، فنهضتُ وأنا لا أزال مترنّحة. أرادت أن تُهيّئني، تُجمِّلني قليلاً، فرفضتُ.

سأذهب كما أنا، منتفشة الشَّعْر، مشوّشة الثياب - أكثر دمامة من العادة.

كان سليمان في انتظاري، مستلقيًا على السرير الكبير. كان بالغ اللطف معي. مدَّدني إلى جانبه، داعبَني، وطلب منّي ماذا أنتظر منه. في الحقيقة وددتُ لو يتركني أنام، ولكني لا يمكن أن أنطق بمثل هذا الطلب الطائش.

"لينكحني بقبلات من فمه"، قلتُ في استحياء. هل ستفعل الكلمة السِّحْرِيَّة فعلها؟ ألا أعرّض نفسي لمخاطر خيبة جديدة؟

كان للكلمة السِّحْرِيَّة مفعولها. إلهي، مفعولها جاء كأحسن ما يكون. كان الرجل جيّدًا، في الفراش؛ وأنا، المبتدئة، أبليتُ بلاء غير رديء. كان حضني مثل كوب مدوّر، ومن هذا الكوب شرب بوفرة نبيد العشق. لم تكن ليلة العرس التقليدية التي انتظرتُها: كان احتفالًا، مأدبة جنس حقيقية، كل الأوضاع ومشتقّاتها طُلبت. من صفر إلى عشرة: ثمانية - بتخفيض سببه تواضعي.

صحوتُ عند الفجر. كان لا يزال نائمًا، يحلم - بأيّ شيء، لن أعرف ذلك أبدًا، ولم أشأ أن أعرف: أفضّل الإبقاء على اللغز. قبّلتُه لآخر مرّة، وخرجتُ. مشيتُ بلا ضجّة في الممرّات حتّى بلغتُ الحديقة. من مَطْيَرتها، ركّزت الحمائم نحوي أنظارها.

تسلّقتُ جدار القصر بغير صعوبة. وجريتُ في شوارع المدينة النائمة

في اتّجاه الجنوب، في اتّجاه الصحراء. كنتُ أقفو خطى راع شابّ معيّن. لو أُسرع، فسوف ألقاه بعد يومَيْن أو ثلاثة. عند ارتفاع جبل معيّن. وكهوفه الغامضة، ولكنها واعدة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

المترجم

أبـو بكـر العيـادي: كاتب ومترجم تونسي مهاجر، يقيم في فرنسا منذ 1988، ويعمل محرّرًا بجريدة "العرب" ومجلّة "الجديد" اللندنيَّتَيْن. نشر ستّ روايات، وسبع مجموعات قصصية، ووضع كُتُبًا بالفرنسية مستوحاة من التراث القصصي العربي والحكايات الشعبية التونسية، ونقل إلى العربية أعمالًا من الأدب العالمي: "أمراض الأدب القاتلة" مقالات لمجموعة من المؤلّفين، عن الهيئة الثقافية العامّة، بغداد 1990 ؛ "ذهول ورعدة" رواية لأميلي نوتومب، القاهرة 2012، و"مذكّرات شيهم" رواية لألان مابانكو، القاهرة 2015، عن الهيئة المصرية العامّة للكتاب.

آخر ما صدر له من أعمال روائية مترجمة:

"بوذا في العالم السفلي" لجولي أوتسوكا، و"ليلة مع صبرينا لاف" لبدرو ميرال، تونس 2016، عن مسكلياني؛ و"عدْو" و"بروق" لجان إشنوز عن مشروع كلمة، أبو ظبي 2016.

من الرواية:

ويا لها من رسالة كانت! يا لها من رسالة! كنتُ مُلهَمَة. لم أقتصر على الأحداث الأخيرة. عدتُ إلى الماضي: النفور الذي لقيتُه من سليمان لم يكن حادثة معزولة. بالعكس هو يندرج بشكل طبيعي في تاريخي كمخلوق دميم ومنبوذ. كانت تلك نتيجة متوقّعة من علاقة إشكالية بين أب مستبدّ جاف، وبنت حسّاسة ومريرة. تحدّثتُ عن مخاوف هذه البنت وتطلّعاتها، عن الأمل الذي عقدتُه على حنان رجل، آلت إليه. وصفتُ في عبارات نارية الإذلال الذي لقيتُه والذي يصيب كل الأسرة، وشجرة العائلة بتمامها وكمالها - حتّى أصغرِ برعم في أصغر غصن. وختمتُ بدعوة أبي إلى مساعدتي، باسم كل الأجداد. بعد هذه المقدّمة الطويلة المبينة، دخلتُ في التفاصيل العملية بشرح دقيق لما يمكن فعله لاقتحام القصر واحتجاز الملك.

وختمتُ الرسالة في اليوم الذي سيقترب فيه الراعي الشّابّ من القصر. كان عند وعده. سمعتُ صوت الناي في الساعة الموعودة. هرعتُ إلى الحديقة، ورميت الرّقّ من فوق الجدار. قُضي أمره.

منشورات المتوسط

هذه الرواية حاصلة على جائزة Jabuti للآداب لسنة 2000 (أهم جائزة أدبية في البرازيل)

ماذا لو كان مَنْ كتبَ التوراة امرأة؟

امرأةٌ قبيحةٌ، لها جسمٌ مثالي، ومزاجٌ ناريّ، وقدرةٌ على القراءة والكتابة كامتيازٍ في زمانها، لكنَّها قبيحة الوجهِ، القبحُ هنا أساسيٌّ، كما الحيلة، والمفارقات التاريخية الكوميدية التي يستحثُّها الخيال حين تكتبُ التوراةَ امرأة. هذا ما يفترضه مُواسير سكليار في روايته هذه. ثُمَّ يُقدِّم تفسيراً لا منطقياً لميلاد النَّص المقدس. ذاتُ الوجه القبيح، ابنةُ زعيمِ قبيلةٍ، ينتهي بها المطاف لتكونَ بين حريم الملك سليمان، الزوجة رقم ٧٠١، وتقع في غرامِه. وفي خضمِّ المؤامرات التي تُحاك والخطط المأساوية ومحاولات الإغواء، يصبح القبحُ سلاحاً مثله مثل الذكاء تماماً، ويطلب الملك سليمان شخصياً مِنها أن تَسْرِدَ كتابةَ قصَّةَ شعبِ إسرائيل.

ليس تدنيساً مجَّانيَّ الغرضِ للأسطورة، بل رؤية خارجَ السِّياق، ساخرة، بلمسةٍ نسوية. إنَّ هذه الرواية باختصار هي فعلُ تمرُّدٍ ضدَّ قناعاتٍ مُفرطة في تفاؤلِها، أو ربَّما تكون مجرَّد لعبة استفزازية ومُسلِّية لا أكثر، لواحدٍ من أعظم الكتّاب البرازيليين المعاصرين.

الناشر

ISBN 978-88-32201-28-4
9 788832 201284

المتوسط